

كُتَابُ

الجواب الكافي

لمن

(سأل عن الدواء الشافي)

تأليف

الامام العالم العلامة المتقن الحافظ الناقد

شمس الدين أبي عبد الله محمد بن

الشيخ أبي بكر المعروف

بإبن القيم الجوزية

رضي الله عنه

الطبعة الاولى

بسم الله الرحمن الرحيم

سئل الشيخ الامام العالم العلامة المتقن الحافظ الناقد شمس الدين أبو عبد الله محمد بن الشيخ الصالح أبي بكر عرف (بأن القيم الجوزية) رضى الله عنه ما تقول السادة العلماء أئمة الدين رضى الله عنهم أجمعين في رجل ابتلى ببلىة وعلم أنها إن استمرت به أفسدت دنياه وآخرته وقد اجتهد في دفعها عن نفسه بكل طريق فما يزداد الا توقداً وشدة فما الحيلة في دفعها وما الطريق الى كشفها فرحم الله من أعان مبتلى والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه أفئونا مأجورين

فكتب الشيخ رضى الله عنه تحت السؤال الجواب الحمد لله (أما بعد) فقد ثبت في صحيح البخارى من حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ما أنزل الله داء الا أنزل له شفاء وفي صحيح مسلم من حديث جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لكل داء دواء فإذا أصيب دواء الداء برأ بذن الله وفي مسند الامام أحمد من حديث أسامة بن شريك عن النبي صلى الله عليه وسلم قال إن الله لم ينزل داء الا أنزل له شفاء علمه من علمه وجهله من جهله وفي لفظ إن الله لم يضع داء الا وضع له شفاء أو دواء إلا داء واحداً قالوا يا رسول الله ماهو قال الهرم قال الترمذى هذا حديث صحيح وهذا يعم أدواء القلب والروح والبدن وأدويتها وقد جعل النبي صلى الله عليه وسلم الجهل داء وجعل دواءه سؤال العلماء فروي أبو داود في سننه من حديث جابر بن عبد الله قال خرجنا في سفر فاصاب رجلاً منا حجر فشججه في رأسه ثم احتلم فسأل أصحابه فقال هل تجدون لى رخصة في التيمم قالوا ما نجد لك رخصة وأنت تقدر على الماء فاغتسل فمات فلما قدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبر بذلك فقال قتلوه قتلهم الله الا سألوا إذ لم يعلموا فانما شفاء النسيء إنما كان يكفيه أن يتيمم ويعصر أو يعصب على جرحه بخرقه ثم يمسح عليها ويغسل سائر جسده فاخبر أن الجهل داء وإن شفاء السؤال وقد أخبر سبحانه عن القرآن أنه شفاء فقال الله تعالى ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته أعجمي وعربي قل هو للذين آمنوا هدي وشفاء وقال ونزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين ومن ههنا لبيان الجنس لا للتبويض فان القرآن كله

شفاء كما قال في الآية الاخرى فهو شفاء للقلوب من داء الجهل والشك والريب فلم ينزل الله سبحانه من السماء شفاء قط أعم ولا أنفع ولا أعظم ولا أشجع في إزالة الداء من القرآن وقد ثبت في الصحيحين من حديث أبي سعيد قال انطلق نفر من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم في سفرة سافروها حتى نزلوا على حي من أحياء العرب فاستضافوهم فابوا أن يضيفوهم فلدغ سيد ذلك الحي فسموا له بكل شيء لا ينفعه شيء فقال بعضهم لو أنتم هؤلاء الرهط الذين نزلوا لعلم أن يكون عند بعضهم شيء فاتوهم فقالوا أيها الرهط ان سيدنا لدغ وسعينا له بكل شيء لا ينفعه فهل عند أحد منكم شيء فقال بعضهم نعم والله إني لأرقي ولكن والله إستصفناكم فلم تضيفونا فما أنا براق حتى تجعلوا لنا جلا فصالحوهم على قطع من النعم فانطلق يتفل عليه ويقرأ الحمد لله رب العالمين فكأنما نشط من عقال فانطلق يمشي وما به قلبه فأوفوهم جملهم الذي صالحوهم عليه فقال بعضهم إقتسموا فقال الذي رقا لا نفعل حتى نأتي النبي صلى الله عليه وسلم فنذكر له الذي كان فنظر بما يأمرنا فقدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكروا له ذلك فقال وما يدريك إنها رقية ثم قال قد أصبتم اقتصموا وأضربوا لى معكم سهماً فقد أثر هذا الدواء في هذا الداء وأزاله حتى كأن لم يكن وهو أسهل دواء وأيسره ولو أحسن العبد التداوي بالفاتحة لرأي لها تأثيراً عجيباً في الشفاء وبمكث بمكة مدة تعزيني أدواء ولا أجد طبيباً ولا دواء فكنت أعالج نفسي بالفاتحة فأري لها تأثيراً عجيباً فكنت أصف ذلك لمن يشتكي الماء وكان كثير منهم يبرأ سريعاً ولكن ههنا أمر يذنب التفطن له وهو ان الاذكار والآيات والادعية التي يستشفى بها ويرقابها هي في نفسها نافعة شافية ولكن تستدعى قبول المحل وقوة همة الفاعل وتأثيره فتى تخلف الشفاء كان لضعف تأثير الفاعل أو لعدم قبول المنفع أو لما منع قوي فيه يمنع ان ينجح فيه الدواء كما يكون ذلك في الأدوية والادواء الحسية فان عدم تأثيرها قد يكون لعدم قبول الطبيعة لذلك الدواء وقد يكون لما منع قوي يمنع من اقتضائه أثره فان الطبيعة اذا أخذت الدواء لقبول تام كان انتفاع البدن به بحسب ذلك القبول وكذلك القلب اذا أخذ الرقاء والتعاويد بقبول تام وكان لاراق نفس فعالة وهممة مؤثرة في إزالة الداء وكذلك الدعاء فانه من أقوى الاسباب في دفع المكروه وحصول المطلوب ولكن قد يتخلف عنه أثره إما لضعفه في نفسه بان يكون دعاء لا يحبه الله لما فيه من العدوان وإما لضعف القلب وعدم إقباله على الله وجمعيته عليه وقت الدعاء فيكون بمنزلة القوس الرخو جدا فان السهم يخرج منه خروجاً ضعيفاً وإما لحصول المانع من الاجابة من أكل الحرام والظلم ودين الذنوب على القلوب واستيلاء الغفلة والسهو والهاو وغلبتها عليها كما في صحيح الحاكم من حديث

أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أدعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة واعلموا أن الله لا يقبل دعاء من قلب غافل لاه فهذا دواؤنا نافع من كل داء ولكن غفلة القلب عن الله تبطل قوته وكذلك أكل الحرام يبطل قوته ويضعفها كافي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم وقال يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يده إلى السماء يارب يارب ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام فأنى يستجاب لذلك وذكر عبد الله بن أحمد في كتاب الزهد لآبيه أصاب بني إسرائيل بلاء فخرجوا مخرجاً فأوحى الله عز وجل إلى نبيهم أن أخبرهم إنكم تخرجون إلى الصعيد بأبدان نجسة وترفعون إلى أركفا قد سفكتم بها الدماء ومسلاتم بها بيوتكم من الحرام الآن حين اشتد غضبي عليكم ولن تزدادوا مني إلا بعداً وقال أبو ذر يكفي من الدعاء البرأ ما يكفي الطعام من المالح

— ﴿﴾ فصل ﴿﴾ —

والدعاء من أنفع الادوية وهو عدو البلاء يدافعه ويعالجه ويمنع نزوله ويرفعه أو يخففه إذا نزل وهو سلاح المؤمن كما روى الحاكم في صحيحه من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرم الله وجهه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الدعاء سلاح المؤمن وعماد الدين ونور السموات والأرض وله مع البلاء ثلاث مقامات • أحدها أن يكون أقوى من البلاء فيدفعه • الثاني أن يكون أضعف من البلاء فيقوى عليه البلاء فيصاب به العبد ولكن قد يخففه وإن كان ضعيفاً • الثالث أن يتقاوما ويمنع كل واحد منهما صاحبه وقد روى الحاكم في صحيحه من حديث عائشة رضي الله عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يغني حذر من قدر والدعاء ينفع مما نزل وما لم ينزل وإن البلاء لينزل فيلقاه الدعاء فيحتاجان إلى يوم القيامة وفيه أيضاً من حديث ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال الدعاء ينفع مما نزل وما لم ينزل فعليكُم عباد الله بالدعاء وفيه أيضاً من حديث ثوبان عن النبي صلى الله عليه وسلم لا يرد القدر إلا الدعاء ولا يزيد في العمر إلا البر وإن الرجل ليحرم الرزق بالذنوب يصيبه

— ﴿﴾ فصل ﴿﴾ —

ومن أنفع الادوية الإلحاح في الدعاء وقد روى ابن ماجه في سننه من حديث أبي هريرة

قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من لم يسأل الله يغضب عليه وفي صحيح الحاكم من حديث أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم لا تعجزوا في الدعاء فإنه لا يهلك مع الدعاء أحد وذكر الأوزاعي عن الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله يحب الملحين في الدعاء وفي كتاب الزهد للإمام أحمد عن قتادة قال قال مورك ما وجدت للمؤمن مثلاً إلا رجل في البحر على خشبة فهو يدعو يارب يارب لعل الله عز وجل أن ينجي

— فصل —

ومن الآفات التي تمنع ترتب أثر الدعاء عليه أن يستعجل العبد ويستبطي الإجابة فيستحسر ويدع الدعاء وهو بمنزلة من بذر بذراً أو غرس غرساً فجعل يتعاهده ويسقيه فلما استبطأ كماله وإدراكه تركه وأهمله وفي البخاري من حديث أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يستجاب لأحدكم ما لم يعجل يقول دعوت فلم يستجب لي وفي صحيح مسلم عنه لا يزال يستجاب للعبد ما لم يدع بأثم أو قطيعة رحم ما لم يستعجل قيل يا رسول الله ما الاستعجال قال يقول قد دعوت وقد دعوت فلم أر يستجاب لي فيستحسر عند ذلك ويدع الدعاء وفي مسند أحمد من حديث أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يزال العبد بخير ما لم يستعجل قالوا يا رسول الله كيف يستعجل قال يقول قد دعوت لربي فلم يستجب لي

— فصل —

وإذا اجتمع مع الدعاء حضور القلب وجمعيته بكليته على المطلوب وصادف وقتاً من أوقات الإجابة الستة وهي الثلث الأخير من الليل وعند الأذان وبين الأذان والاقامة وادبار الصلوات المكتوبات وعند صعود الإمام يوم الجمعة على المنبر حتى تقضى الصلوة وآخر ساعة بعد العصر من ذلك اليوم وصادف خشوعاً في القلب وانكساراً بين يدي الرب وذلاله وتضرعاً ورقة واستقبل الداعي القبلة وكان على طهارة ورفع يديه إلى الله تعالى وبدأ بحمد الله والثناء عليه ثم ثني بالصلوة على محمد عبده صلى الله عليه وسلم ثم قدم بين يدي حاجته التوبة والاستغفار ثم دخل على الله والحق عليه في المسئلة وتعلقه ودعاه رغبة ورهبة وتوسل إليه باسمائه وصفاته وتوحيده وقدم بين يدي دعائه صدقة فإن هذا الدعاء لا يكاد يرد أبداً ولا سيما إن صادف الادعية التي أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أنها مظنة الإجابة أو أنها متضمنة للأسم الأعظم فيها ما في السنن وفي صحيح ابن حبان

حديث عبد الله بن بريدة عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع رجلاً يقول اللهم إني أسألك بأنني أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن كفواً أحد فقال لقد سألت الله بالاسم الذي إذا سئل به أعطى وإذا دعي به أجاب وفي لفظ لقد سألت الله باسمه الأعظم وفي السنن وصحيح أبي حاتم بن حبان أيضاً من حديث أنس بن مالك أنه كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم جالساً ورجل يصلي ثم دعا فقال اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت المنان بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام يا حي يا قيوم فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم لقد دعا الله باسمه العظيم الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى وأخرج الحديثين أحمد في مسنده وفي جامع الترمذي من حديث أسماء بنت يزيد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال إسم الله الأعظم في هاتين الآيتين وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم وفاتحة آل عمران ألم الله لا إله إلا هو الحي القيوم قال الترمذي هذا حديث حسن صحيح وفي مسند أحمد وصحيح الحاكم من حديث أبي هريرة وأنس بن مالك وربيعة بن عامر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال أنطوا بياد الجلال والإكرام يعني تعلقوا بها والزموها وداوموا عليها وفي جامع الترمذي من حديث أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا أحمه الأمر رفع رأسه إلى السماء وإذا اجتهد في الدعاء قال يا حي يا قيوم وفيه أيضاً من حديث أنس بن مالك قال كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا كرهه أمر قال يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث وفي صحيح الحاكم من حديث أبي أمامة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال اسم الله الأعظم في ثلاث سور من القرآن البقرة وآل عمران وطه قال القاسم فالتسها فإذا هي آية الحي القيوم وفي جامع الترمذي وصحيح الحاكم من حديث سعد بن أبي وقاص عن النبي صلى الله عليه وسلم قال دعوة ذي النون اذ دعا وهو في بطن الحوت لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين إنه لم يدع بها مسلم في شيء قط إلا استجاب الله له قال الترمذي حديث صحيح وفي صحيح الحاكم أيضاً من حديث سعد عن النبي صلى الله عليه وسلم ألا أخبركم بشيء إذا نزل برجل منكم أمرهم فدعاه به يفرج الله عنه دعاء ذي النون وفي صحيحه أيضاً عنه أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقول هل أدلكم على اسم الله الأعظم دعاء يونس فقال رجل يا رسول الله هل كان ليونس خاصة فقال ألا تسمع قوله فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك نجى المؤمنين فأما مسلم دعا بها في مرضه أربعين مرة فمات في مرضه ذلك أعطي أجر شهيد وإن برأ برأ مغفوراً له وفي الصحيحين من حديث بن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول عند الكرب لا إله إلا الله العظيم الحليم لا إله إلا الله رب العرش العظيم

لا إله الا الله رب السموات ورب الارض رب العرش الكريم وفي مسند الامام أحمد من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال علمني رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا نزل بي كرب أن أقول لا إله الا الله الحليم الكريم سبحان الله وتبارك الله رب العرش العظيم والحمد لله رب العالمين وفي مسنده ايضاً من حديث عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أصاب أحداً قط هم ولا حزن فقال اللهم إني عبدك بن عبدك بن أمتك ناصيتي بيدك ماض في حكمك عدل في قضاؤك أسألك اللهم بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو علمته أحدا من خلقك أو أنزلته في كتابك أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همي الا أذهب الله همه وحزنه وأبدله مكانه فرحاً ف قيل يا رسول الله ألا نتعلمها قال بل ينبغي لمن سمعها أن يتعلمها وقال ابن مسعود ما كرب نبي من الانبياء الا استغاث بالتسبيح و ذكر ابن أبي الدنيا في كتاب المجتنبين في الدعاء عن الحسن قال كان رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم من الانصار يكنى أبا معلق وكان تاجر آتجر بمال له ولغيره يضرب به في الآفاق وكان ناسكاً ورعاً فخرج مرة فلقبه لص مقنع في السلاح فقال له ضع مامك فاني قاتلك قال فما تريد الا دمي فساألك والمال قال أما المال فلي ولست أريد إلا دمك قال أما إذا أبيت فذرني أصلي أربع ركعات قال صل ما بدا لك فتوضأ ثم صلى أربع ركعات فكان من دعائه في آخر سجدة أن قال يا ودود يا ذا العرش المجيد يا فعال لما تريد أسألك بعزك الذي لا يرام وبملكك الذي لا يضام وبنورك الذي ملأ أركان عرشك ان تكفيني شر هذا اللص يا مغيث اغثنني يا مغيث اغثنني ثلاث مرات فاذا هو بفارس أقبل بيده حربة قد وضعها بين أذني فرسه فلما بصربه اللص أقبل نحوه فطعنه فقتله ثم أقبل اليه فقال قم فقال من أنت باني أنت وأمي فقد أغاثني الله بك اليوم فقال أنا ملك من أهل السماء الرابعة دعوت فسمعت لابواب السماء مقعقة ثم دعوت بدعائك الثاني فسمعت لأهل السماء نجدة ثم دعوت بدعائك الثالث ف قيل لي دعاء مكروب فسألت الله ان يوليني قتله قال الحسن فمن توضي وصلى أربع ركعات ودعا بهذا الدعاء استجيب له مكروباً كان أو غير مكروب

❦ فصل ❦

وكثيراً ما نجد أدعية دعا بها قوم فاستجيب لهم فيكون قد اقترن بالدعاء ضرورة صاحبه وإقباله على الله أو حسنة تقدمت منه جعل الله سبحانه إجابة دعوته شكراً لحسنه أو ضاداً في الدعاء وقت إجابة ونحو ذلك فاحييت دعوته فيظن الظان ان السر في لفظ ذلك الدعاء فيأخذ

مجردا عن تلك الامور التي قارنته من ذلك الداعي وهذا كما اذا استعمل رجل دواء نافعا في الوقت الذي ينبغي على الوجه الذي ينبغي فانتفع به فظن غيره ان استعمال هذا الدواء مجردا كاف في حصول المطلوب كان غالطا وهذا موضع يغلط فيه كثير من الناس ومن هذا قد يتفق دعاؤه باضطرار عند قبر فيجيب فيظن الجاهل ان السر للقبر ولم يعلم ان السر للاضطرار وصدق الاجاء الى الله فاذا حصل ذلك في بيت من بيوت الله كان افضل وأحب الى الله

— فصل —

والادعية والتعوذات بمنزلة السلاح والسلاح بضاربه لا يجده فقط فمتى كان السلاح سلاحا تاما لآفة به والساعد ساعد قوي والمانع مفقود حصلت به النكابة في العدو ومتى تخلف واحد من هذه الثلاثة تخلف التأثير فان كان الدعاء في نفسه غير صالح أو الداعي لم يجمع بين قلبه ولسانه في الدعاء أو كان ثم مانع من الاجابة لم يحصل الاثر

— فصل —

وهنا سؤال مشهور وهو ان المدعو به إن كان قد قدر لم يكن بد من وقوعه دعا به العبد أو لم يدع وإن لم يكن قد قدر لم يقع سواء سأله العبد أو لم يسأله فظنت طائفة صحة هذا السؤال فتركت الدعاء وقالت لا فائدة فيه وهؤلاء مع فرط جهلهم وضلالهم متناقضون فان اطردهم مذهبهم لوجب تعطيل جميع الاسباب فيقال لاحدهم ان كان الشبع والري قد قدرا لك فلا بد من وقوعهما أكلت أو لم تأكل وإن لم يقدر لم يقعما أكلت أو لم تأكل وإن كان الولد قدر لك فلا بد منه وطأت الزوجة والامة أو لم تطأها وإن لم يقدر لم يكن فلا حاجة الى التزويج والتسري وهلم جرا فهل يقال هذا عاقل أو آدمي بل الحيوان البهيم مفطور على مباشرة الاسباب التي بها قوامه وحياته فالحيوانات أعقل وأفهم من هؤلاء الذين هم كالانعام بل هم اضل سبيلا وتكليس بعضهم وقال الاشتغال بالدعاء من باب التعب والمحض يثيب الله عليه الداعي من غير أن يكون له تأثير في المطلوب بوجه ما ولا فرق عند هذا الكيس بين الدعاء والامساك عنه بالقلب واللسان في التأثير في حصول المطلوب وارتباط الدعاء عندهم به كارتباط السكوت ولا فرق وقالت طائفة أخرى أ كيس من هؤلاء بل الدعاء علامة مجردة نصها الله سبحانه أمانة على قضاء الحاجة فمتى وفق العبد للدعاء كان ذلك علامة له وأمانة على أن حاجته قد قضيت وهذا كما إذا رأيت غيما أسود باردا في زمن الشتاء فان ذلك دليل وعلامة على أنه يمطر قالوا وهكذا حكم الطاعات مع الثواب والكفر والمعاصي مع العقاب هي أمارات محضة لوقوع الثواب والعقاب لانها أسباب له

على الشرط والمعلول على العلة والمسبب على السبب وهذا في القرآن يزيد على ألف موضع فتارة يرتب الحكم الخبري الكوني والأمر الشرعي على الوصف المناسب له كقوله تعالى فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين وقوله فلما آسفونا انتقمنا منهم وقوله والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا وقوله إن المسلمين والمسلمات إلى قوله والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرًا عظيماً وهذا كثير جداً وتارة ترتبه عليه بصيغة الشرط والجزاء كقوله تعالى إن تنقوا الله يجعل لكم فرقاناً ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم وقوله وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقاً وقوله فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين ونظائره وتارة يأتي بلام التلليل كقوله ليتدبروا آياته وليتذكروا أولوا الألباب وقوله ليعلموا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً وتارة يأتي باداءة كي التي للتعليل كقوله كيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم وتارة يأتي بباء السببية كقوله تعالى ذلك بما قدمت أيديكم وقوله بما كنتم تعملون وبما كنتم تكسبون وقوله ذلك بأنهم كفروا بآياتنا وتارة يأتي بالفعول لأجله ظاهراً أو محذوفاً كقوله فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضرل إحداها فتذكر إحداها الأخرى وكقوله تعالى أن تقولوا إنا كنا عن هذا غافلين وقوله أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا أي كراهة أن تقولوا وتارة يأتي بفاء السببية كقوله فكذبوه فمقروها قدمدم عليهم ربهم بذنبيهم فسواها وقوله فمضوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية وقوله فكذبوها فكانوا من المهلكين ونظائره وتارة يأتي باداءة لما الدالة على الجزاء كقوله فلما آسفونا انتقمنا منهم ونظائره وتارة يأتي بأن وما علمت فيه كقوله انهم كانوا يسارعون في الحيرات وقوله في ضد هؤلاء إنهم كانوا قوم سوء فأغرقتناهم أجمعين وتارة يأتي باداءة لولا الدالة على ارتباط ما قبلها بما بعدها كقوله فلولا أنه كان من المسبحين للبث في بطنه إلى يوم يبعثون وتارة يأتي بلو الدالة على الشرط كقوله ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وبالجمله فالقرآن من أوله إلى آخره صريح في ترتيب الجزاء بالخير والشر والاحكام الكونية والامرية على الاسباب بل ترتيب احكام الدنيا والآخرة ومصالحهما ومفاسدهما على الاسباب والاعمال ومن تفقه في هذه المسئلة وتأملها حق التأمل انتفع بها غاية النفع ولم يتكل على القدر جهلاً منه وعجزاً وتفريطاً وإضاعة فيكون توكله عجزاً أو عجزه توكلًا بل الفقيه كل الفقيه الذي يرد القدر بالقدر ويدفع القدر بالقدر ويعارض القدر بالقدر بل لا يمكن الانسان ان يعيش الا بذلك فان الجوع والعطش والبرد وأنواع المخاوف والمحاذير هي من القدر والخلق كلهم ساعون في دفع هذا القدر بالقدر وهكذا من وفقه الله وألهمه

رشده يدفع قدر العقوبة الآخروية بقدر التوبة والإيمان والأعمال الصالحة فهذا وزن الخوف في الدنيا وما يضاعه قرب الدارين واحذو حكمته واحدة لا ينقض بعضها بعضاً ولا يبطل بعضها بعضاً فهذه المسألة من اشرف المسائل لمن عرف قدرها ورعاها حق رعايتها والله المستعان لكن يبقى عليه أمران بهما تتم سعادته وفلاحه أحدهما أن يعرف تفاصيل أسباب الشر والخير ويكون له بصيرة في ذلك بما شهد في العالم وما جربه في نفسه وغيره وما سمعه من أخبار الأمم قديماً وحديثاً ومن أنفع ما في ذلك تدبر القرآن فإنه كفيل بذلك على أكمل الوجوه وفيه أسباب الخير والشر جميعاً مفصلة مبينة ثم السنة فإنها شقيقة القرآن وهي الوحي الثاني ومن صرف اليهما عنايته اكتفى بهما من غيرهما وهما يربانك الخير والشر وأسبابهما حتى كأنك تعين ذلك عياناً وبعد ذلك فإذا تأملت أخبار الأمم وأيام الله في أهل طاعته وأهل معصيته طابق ذلك ما علمته من القرآن والسنة ورأيت به تفاصيل ما أخبر الله به ووعد به وعلمت من آياته في الآفاق ما يدلك على أن القرآن حق وأن الرسول حق وأن الله ينجز وعده لا محالة فالتاريخ تفصيل لجزئيات ما عرفنا الله ورسوله من الأسباب الكلية للخير والشر

﴿ فصل ﴾

الأمر الثاني أن يحذر مغالطة نفسه على هذه الأسباب وهذا من أهم الأمور فإن العبد يعرف أن المعصية والغفلة من الأسباب المضرة له في دنياه وآخرته ولا بد ولكن تغالطه نفسه بالاتكال على عفو الله ومغفرته تارة وبالتشويق بالتوبة والاستغفار باللسان تارة وبفعل المندوبات تارة وبالعلم تارة وبالاحتجاج بالقدر تارة وبالاحتجاج بالاشياء والنظراء تارة وبالاقتداء بالأكابر تارة وكثير من الناس يظن أنه لو فعل ما فعل ثم قال أستغفر الله زال أثر الذنب وراح هذا بهذا وقال لي رجل من المنتسبين إلى الفقه أنا أفعل ما أفعل ثم أقول سبحان الله وبحمده مائة مرة وقد غفر ذلك أجمعه كما صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال من قال في يوم سبحان الله وبحمده مائة مرة حطت خطاياہ ولو كانت مثل زبد البحر وقال لي آخر من أهل مكة نحن أحدنا إذا فعل ما فعل ثم اغتسل وطاف بالبيت أسبوعاً قد محي عنه ذلك وقال لي آخر قد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال أذنب عبد ذنباً فقال أي رب أصبت ذنباً فأغفر لي فغفر الله ذنبه ثم مكث ما شاء الله ثم أذنب ذنباً آخر فقال أي رب أصبت ذنباً فأغفر لي فقال الله عز وجل علم عبي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به قد غفرت لعبي فليصنع ما شاء وقال أنا لأشك أن لي رباً يغفر الذنب ويأخذ به وهذا الضرب من الناس قد تعاق بنصوص من الرجاء واتكل

وتعاقب بها بكتات يديه واذا عوتب على الخطايا والانهماك فيها سر ذلك ما يحفظه من سعة رحمة الله ومغفرته ونصوص الرجاء والجهال من هذا الضرب من الناس في هذا الباب غرائب وعجائب كقول بعضهم وكثير ما استطعت من الخطايا اذا كان القدوم على كريم وقول بعضهم انتزده من الذنوب جهل بسعة عفو الله وقال الآخر ترك الذنوب جرأة على مغفرة الله واستصغارها وقال محمد بن حزم رأيت بعض هؤلاء من يقول في دعائه اللهم اني أعوذ بك من العصمة ومن هؤلاء المغرورين من يتعاقب بمسألة الجبروان العبد لأفعل له البتة ولا إختيار وإنما هو مجبور على فعل المعاصي ومن هؤلاء من يغتر بمسألة الارجاء وأن الايمان هو مجرد التصديق والاعمال ليست من الايمان وأن ايمان أفسق الناس كايمن جبريل وميكائيل ومن هؤلاء من يغتر بمحبة الفقراء والمساكين والصالحين وكثرة التردد إلى قبورهم والتضرع إليهم والاستشفاع بهم والتوسل إلى الله بهم - وإله بحقهم عليه وحرمتهم عنده ومنهم من يغتر بأبائه وأسلافه وأن لهم عند الله مكانة وصلاً فلا يدعون أن يخلصوه كما يشاهد في حضرة الملوك فان الملوك تهيب لحواصم ذنوب أبنائهم وأقاربهم وإذا وقع أحد منهم في أمر مفضح خالصه أبوه وحده بجاهه ومنزله ومنهم من يغتر بأن الله عز وجل غنى عن عذابه وعذابه لا يزيد في ملكه شيئاً ورحمته له لا ينقص من ملكه شيئاً فيقول أنا مضطر إلى رحمته وهو أغني الأغنياء ولو أن فقيراً مسكيناً مضطراً إلى شربة ماء عند من في داره شط يحجري لما منعه منها قاله أكرم وأوسع فالعقوبة لا تنقصه شيئاً والعقوبة لا تزيد في ملكه شيئاً ومنهم من يغتر بفهم فاسد فهمه هو وأضرابه من نصوص القرآن والسنة فاتكلموا عليه كاتكال بعضهم على قوله تعالى وسوف يعطيك ربك فترضى قال وهو لا يرضى أن يكون في النار أحد من أمته وهذا من أقبح الجهل وأبين الكذب عليه فإنه يرضى بما يرضى به ربه عز وجل والله تعالى يرضيه تعذيب الذل والنسفة والخونة والمصرين على الكبائر فإشأ رسول الله أن يرضى بما لا يرضى به ربه عز وجل واتكالك بعضهم على قوله تعالى ان الله يغفر الذنوب جميعاً وهذا أيضاً من أقبح الجهل فان الشرك داخل في هذه الآية فإنه رأس الذنوب وأساسها ولا خلاف أن هذه الآية في حق التائبين فإنه يغفر ذنب كل تائب أي ذنب كان ولو كانت الآية في حق غير التائبين أبطلت نصوص الوعيد كلها وأحاديث إخراج قوم من الموحدين من النار بالشفاعة وهذا إنما أوتي صاحبه من قوة علمه وفهمه فإنه سبحانه ههنا عم وأطلق فعلم أنه أراد التائبين وفي سورة النساء خصص وقيد فقال إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء فأخبر الله سبحانه أنه لا يغفر الشرك وأخبر أنه يغفر ما دونه ولو كان هذا في حق التائب لم يفرق بين الشرك وغيره وكاغترار بعض الجهال بقوله

تعالى يا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم فيقول كرمه وقد يقول بعضهم انه لقن المغتر حجته وهذا جهل قبيح وانما غر به الغرور وهو الشيطان ونفسه الأمارة بالسوء وجهه وهواه وأني سبحانه بالفظ الكريم وهو السيد العظيم المطاع الذي لا ينبغي الاعتزاز به ولا إيهل حقه فوضع هذا المغتر الغرور في غير موضعه واعتز بمن لا ينبغي الاعتزاز به وكعترار بعضهم بقوله تعالى في النار لا يصلها إلا الأشتى الذي كذب وتولى وقوله أعدت للكافرين ولم يدرك هذا المغتر أن قوله فأندرتكم نارا تالطي هي النار مخصوصة من حجة دركات جهنم ولو كانت جميع جهنم فهو سبحانه لم يقل لا يدخلها بل قال لا يصلها إلا الأشتى ولا يلزم من عدم صليها عدم دخولها فان الصلي أخص من الدخول ونفي الأخص لا يستلزم نفي الأعم ثم هذا المغتر لو تأمل الآية التي بعدها لعلم أنه غير داخل فيها فلا يكون مضمونا له ان يحجبها وأما قوله في النار أعدت للكافرين فقد قال في الجنة أعدت للمتقين ولا ينافي إعداد النار للكافرين أن تدخلها الفساق والظلمة ولا ينافي إعداد الجنة للمتقين أن يدخلها من في قلبه أدنى مثقال ذرة من إيمان ولم يعمل خيرا قط وكأن اغترار بعضهم على صوم يوم عاشوراء أو يوم عرفة حتى يقول بعضهم يوم عاشوراء يكفر ذنوب العام كلها ويبقى صوم عرفة زيادة في الاجر ولم يدرك هذا المغتر أن صوم رمضان والصلوات الخمس أعظم وأجل من صيام يوم عرفة ويوم عاشوراء وهي إنما تكفر ما بينهما إذا اجتبت الكبائر ف رمضان والجمعة الى الجمعة لا يقويا على تكفير الصغائر الا مع انضمام ترك الكبائر اليها فيقوي مجموع الامرين على تكفير الصغائر فكيف يكفر صوم تطوع كل كبيرة عماتها العبد وهو مصر عليها غير نائب منها هذا محال على أنه لا يمتنع أن يكون صوم يوم عرفة ويوم عاشوراء يكفر لجميع ذنوب العام على عمومته ويكون من نصوص الوعد التي لها شروط وموانع ويكون إصراره على الكبائر مانعا من التكفير فاذا لم يصبر على الكبائر تساعد الصوم وعدم الاصرار وتعاونوا على عموم التكفير كما كان رمضان والصلوات الخمس مع اجتناب الكبائر متساعدين متعاونين على تكفير الصغائر مع أنه سبحانه قد قال إن تجذبوا كبائر ما تنهون عنه تكفروا عنكم سيئاتكم فعمل أن جعل الشيء سببا للتكفير لا يمنع أن يتساعد هو وسبب آخر على التكفير ويكون التكفير مع اجتماع السببين أقوى وأتم منه مع انفراد أحدهما وكما قويت أسباب التكفير كان أقوى وأتم وأشمل وكاتكال بعضهم على قوله صلى الله عليه وسلم حاكيا عن ربه أنا عند حسن ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء يعني ما كان في ظنه فانا فاعله به ولا ريب أن حسن الظن إنما يكون مع الاحسان فان المحسن حسن الظن بربه أن يجازيه على إحسانه ولا يخلف وعده ويقبل توبته وأما المسيء المصير على الكبائر والظلم والمخالفات فان وحشة المعاصي والظلم والحرام تمنعه

من حسن الظن بربه وهذا موجود في الشاهد فان العبد الأبق المدي الخارج عن طاعة سيده لا يحسن الظن به ولا يجامع وحشة الاساءة إحسان الظن ابداً فان المديء مستوحش بقدر إساءته وأحسن الناس ظناً بربه أطوعهم له كما قال الحسن البصري ان المؤمن أحسن الظن بربه فأحسن العمل وان الفاجر أساء الظن بربه فساء العمل فكيف يكون يحسن الظن بربه من هو شارد عنه حل مرتحل في مسأخطة وما يغضبه متعرض للعتة قد هان حقه وأمره عليه فاضاه وهان نهيه عليه فارتكبه وأصر عليه وكيف يحسن الظن به من بارزه بالمحاربة وعادى اوليائه ووالى اعداءه وجحد صفات كماله وأساء الظن بما وصف به نفسه ووصفته به رسله وظن بجهله ان ظاهر ذلك ضلال وكفر وكيف يحسن الظن به من يظن أنه لا يتكلم ولا يأمر ولا ينهى ولا يرضى ولا يغضب وتذقال الله في حق من شك في تعلق سمعه ببعض الجزئيات وهو السر من القول وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين فهؤلاء لما ظنوا أن الله سبحانه لا يعلم كثيراً مما يعملون كان هذا اساءة لظنهم بربهم فأرداهم ذلك الظن وهذا شأن كل من جحد صفات كماله ونعوت جلاله ووصفه بما لا يليق به فاذا ظن هذا أنه يدخله الجنة كان هذا غروراً وخداعاً من نفسه وتسويلاً من الشيطان لا احسان ظن بربه فتأمل هذا الموضع وتأمل شدة الحاجة اليه وكيف يجتمع في قلب العبد تيقنه بانه ملاقي الله وأن الله يسمع ويرى مكانه ويعلم سره وعلايته ولا يخفى عليه خافية من أمره وأنه موقوف بين يديه ومستول عن كل ما عمل وهو مقيم على مسأخطة مضيع لاوامره معطل لحقوقه وهو مع هذا يحسن الظن به وهل هذا الا من خدع النفوس وغرور الاماني وقد قال ابوا امامة بن سهل بن حنيف دخلت أنا وعروة بن الزبير على عائشة رضي الله عنها فقالت لورائتما رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرض لا وكانت عندي ستة دنانير أو سبعة فأمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أفرقها قالت فشغاني وجع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتي عافاه الله ثم سأني عنها فقال ما فعلت أ كنت فرقت الستة الدنانير فقلت لا والله لقد كان شغاني وجعك قالت فدعا بها فوضع في كفه فقال ما ظن نبي الله لوائي الله وهذه عنده وفي لفظ ما ظن محمد بربه لوائي الله وهذه عنده فيالله ما ظن أصحاب الكبار والظلمة بالله اذا تقوه ومظالم العباد عندهم فان كان ينفعهم قولهم حسناً ظنونا بك لم يعذب ظالم ولا فاسق فليصنع العبد ما شاء وليرتكب كل ما نها الله عنه وليحسن ظنه بالله فان النار لا تمسه فسيحان الله ما يبلغ الغرور بالعبد وقد قال ابراهيم لقومه افكا آلهة دون الله تريدون فما ظنكم برب العالمين أي ما ظنكم أن يفعل بكم إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره ومن تأمل هذا الموضع حق التأمل علم أن حسن الظن

بالله هو حسن العمل نفسه فان العبد إنما يحمله على حسن العمل حسن ظنه بربه أن يجازيه على أعماله
ويثيبه عليها ويتقبلها منه فالذي حمّله على العمل حسن الظن فكلما حسن ظنه حسن عمله والا
فحسن الظن مع اتباع الهوى عجز كما في الترمذي والمسنّد من حديث شداد ابن أوس عن
النبي صلى الله عليه وسلم الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه
هواها وتمنى على الله وبالجملة فحسن الظن إنما يكون مع انعقاد أسباب النجاة وإمام مع انعقاد
أسباب الهلاك فلا يتأني احسان الظن فان قيل بل يتأني ذلك ويكون مستند حسن الظن
سعة مغفرة الله ورحمته وعفوه وجوده وان رحمته سبقت غضبه وأنه لا تنفعه العقوبة ولا
يضره العفو قيل الامر هكذا والله فوق ذلك وأجل وأكرم وأجود وأرحم ولكن إنما
يضع ذلك في محله اللائق به فانه سبحانه موصوف بالحكمة والعزة والانتقام وشدة البطش
وعقوبة من يستحق العقوبة فلو كان معمول حسن الظن على مجرد صفاته وأسمائه لاشتراك
في ذلك البر والفاجر والمؤمن والكافر ووليه وعدوه فما ينفع المجرم أسماؤه وصفاته وقد
بأنه بسخطه وغضبه وتعرض لعنته وأوقع في محارمه وانتكح حرمانه بل حسن الظن
ينفع من تاب وندم وأقلع وبذل السيئة بالخشنة واستقبل بقية عمره بالخير والطاعة ثم أحسن
الظن فهذا حسن ظن والاول غرور والله المستعان ولا تستبطل هذا الفصل فان الحاجة
اليه شديدة لكل أحد ففرق بين حسن الظن بالله وبين الغرة به قال الله تعالى ان الذين
آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله فجعل هؤلاء أهل
الرجاء لا الظالمين والفاسقين وقال تعالى ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما قاتلوا ثم جاهدوا
وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم فآخبر سبحانه أنه بعد هذه الأشياء غفور رحيم
لمن فعلها فالعالم يضع الرجاء مواضعه والجاهل المغتر يضعه في غير مواضعه

❦ فصل ❦

وكثير من الجهال اعتمدوا على رحمة الله وعفوه وكرمهم وخيروا أمرهم ونهيه ونسوا أنه شديد
العقاب وأنه لا يرد بأسه عن القوم المجرمين ومن اعتمد على العفو مع الاصرار على الذنب فهو
كلما ندد وقال معروف رجائك لرحمة من لا تطيعه من الخذلان والحق وقال بعض العلماء
من قطع عضواً منك في الدنيا بسرقة ثلاثة دراهم لا تأمن أن تكون عقوبته في الآخرة على
نحو هذا وقيل لا يحسن نراك طويلاً بالبكاء فقال أخاف أن يطرحني في النار ولا يبالي وسأل رجل
الحسن فقال يا أبا سعيد كيف تصنع بمجالسة أقوام يخوفوننا حتى تكاد قلوبنا تنقطع فقال والله
لأن تصحب أقواماً يخوفونك حتى تدرك أمناً خيراً لك من أن تصحب أقواماً يؤمنونك حتى

تلحقك المخاوف وقد ثبت في الصحيحين من حديث أسامة بن زيد قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق افتاب بطئه فيدور في النار كما يدور الحمار برحاه فيطوف بها أهل النار فيقولون يا فلان ما أصابك ألم تكن تأمرنا بالمعروف وتنهي عن المنكر فيقول كنت آمركم بالمعروف ولا آتية وأنهاكم عن المنكر وآتية وذكر الامام أحمد من حديث أبي رافع قال مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبقيع فقال أف لك أف لك فظننت أنه يريدني قال لا ولكن هذا قبر فلان بعثته ساعياً إلى آل فلان فغل نمره فدرع الآن مثلها من نار وفي مسنده أيضاً من حديث أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مررت ليلة أسري بي على قوم تقرض شفاهم بمقاريض من نار فقلت من هؤلاء قالوا خطباء من أمتك من أهل الدنيا كانوا يأمرون الناس بالمعروف وينهون أنفسهم أقلاً يعقلون وفيه أيضاً من حديثه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما عرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم فقلت من هؤلاء يا جبريل فقال هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم وفيه أيضاً عنه قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول يا مقلب القلوب والابصار ثبت قلبي على دينك فقلنا يا رسول الله آما بك وبما جئت به فهل تخاف علينا قال نعم إن القلوب بين أصبعين من أصابع الله يقابلها كيف يشاء وفيه أيضاً عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لجبريل مالي لم أرميكائيل صاحبك قط قال ما فعلك منذ خلقت النار وفي صحيح مسلم عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤتى بأهل الدنيا من أهل النار فيصبغ في النار صبغة ثم يقال له يا بن آدم هل رأيت خيراً قط هل مر بك نعيم قط فيقول لا والله يارب ويؤتى بأهل الدنيا من أهل الجنة فيصبغ في الجنة صبغة فيقال له يا بن آدم هل رأيت بؤساً قط هل مر بك شدة قط فيقول لا والله يارب ما مر بي بؤس قط ولا رأيت شدة قط وفي المسند من حديث البراء بن عازب قال خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة رجل من الأنصار فأتيناهم إلى القبر وما يلحد فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وجلسنا حوله كأن على رؤسنا الطير وفي يده عود ينكت به في الأرض فرفع رأسه فقال استعيذوا بالله من عذاب القبر مرتين أو ثلاثاً ثم قال إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه كان وجوههم الشمس معهم كفن من أكفان أهل الجنة وحنوط من حنوط الجنة حتى يجلسوا منه مدالبصر ثم يحجي ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول أخرجني أيها النفس النطمة أخرجني إلى مغفرة من الله ورضوان فنخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء فيأخذها فإذا أخذها

لم يدعوها في يده طرفة عين حتي يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن وفي ذلك الحنوط ويخرج منها كأطيب نضجة مسك وجدت على وجه الأرض فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملائكة من الملائكة الا قالوا ما هذه الروح الطيبة فيقولون فلان بن فلان باحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا حتي ياتوها به الى سماء الدنيا فيستفتحون له فيفتح له فيشيعه من كل سماء مقربوها الى السماء التي تليها حتي ياتي به الى السماء السابعة فيقول الله عز وجل اكتبوا كتاب عبدي في عاين وأعيدوه الى الأرض فاني منها خلقهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى قال فتعاد روحه فيأتية ملاكان فيجلسانه فيقولان له من ربك فيقول ربى الله عز وجل فيقولان له ما دينك فيقول ديني الاسلام فيقولان له ما هذا الرجل الذي بعث فيكم فيقول هو محمد رسول الله فيقولان له وما علمك فيقول قرأت كتاب الله عز وجل فأمنت به وصدقت فينادي مناد من السماء أن صدق عبدي فأفرشوا له من الجنة والبسوه من الجنة وأفتحوا له باباً الى الجنة قال فيأتية من روحها وطيرها ويفسح له في قبره مد بصره قال ويا أتية رجل حسن الوجه حسن الثياب طيب الريح فيقول أبشر بالذي يسرك هذا يومك الذي كنت توعده فيقول له من أنت فوجهك الوجه الذي ينجي بالخير فيقول أنا عملك الصالح فيقول رب أقم الساعة ثم رب أقم الساعة حتي أرجع الي أهلي ومالي قال وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل اليه ملائكة من السماء سود الوجوه معهم المسوح فيجلسون منه مد البصر ثم يحيى ملك الموت حتي يجلس عند رأسه فيقول أيتها النفس الخبيثة أخرجي إلى سخط من الله وغضب قال فنفرك في جسده فينزعها كما ينزع السمود من الصوف المبتل فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتي يحملوها في تلك المسوح ويخرج منها كأن نرجح جيفة وجدت على وجه الأرض فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملائكة من الملائكة الا قالوا ما هذه الروح الخبيثة فيقولون فلان بن فلان باقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا فيستفتح فلا يفتح له ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتي يابح الجمل في سم الخياط فيقول الله عز وجل اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلى فتطرح روحه طرحة ثم قرأ ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق فتعاد روحه في جسده ويا أتية ملاكان فيجلسانه فيقولان له من ربك فيقول هاه هاه لا أدري فيقول هاه هاه لا أدري فيقولان له ما هذا الرجل الذي بعث فيكم فيقول هاه هاه لا أدري فينادي مناد من السماء أن كذب عبدي فأفرشوا له من النار والبسوه من النار وأفتحوا له باباً إلى النار فيأتية من حرها وسعومها ويضيق عليه

قبره حتى تختلف فيه اضلاعه ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب منتن الريح فيقول أبشر بالذي يسوءك هذا يومك الذي كنت توعده فيقول ومن أنت فوجهك الوجه الذي يحجب بالشعر فيقول أنا عمالك الخيث فيقول رب لا تنقم الساعة وفي لفظ لا حمداً أيضاً ثم يقبض له أعمي أصم أبكم في يده مرزبة لو ضرب بها جبلاً كان تراباً فيضربه ضربة فيصير تراباً ثم يعيده الله عز وجل كما كان فيضربه ضربة أخرى فيصبح صبيحة يسممها كل شيء إلا الثقلين قال البراء ثم يفتح له باب إلى النار ويمهد له من فرش النار وفي المسند أيضاً عنه قال بينما نحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا بصربجمائة فقال على ما اجتمع هؤلاء قيل على قبر يحفرونه ففرع رسول الله صلى الله عليه وسلم فبدر بين يدي أصحابه مسرعاً حتى انتهى إلى القبر فجنى على ركبتيه فاستقبلته من بين يديه لا نظراً ما يصنع فبكى حتى بل الثرى من دموعه ثم أقبل علينا فقال أي إخواني مثل هذا اليوم فاعدوا وفي المسند من حديث بريدة قال خرج إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً فنادى ثلاث مرات يا أيها الناس أندرون مامثلي ومثلكم فقالوا الله ورسوله أعلم فقال إنما مثلي ومثلكم مثل قوم خافوا عدواً يأتهم فبعثوا رجلاً يترأى لهم فابصر العدو فاقبل لينذرهم وخشى أن يدركه العدو قبل أن ينذر قومه فاهوى بشوبه أيها الناس أتيتكم أيها الناس أتيتكم ثلاث مرات وفي صحيح مسلم من حديث جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه كل ما أسكر حرام وإن على الله عز وجل عقداً لمن شرب المسكر أن يسقيه من طينة الخبال قيل وما طينة الخبال قال عرق أهل النار أو عصارة أهل النار وفي المسند أيضاً من حديث أبي ذر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون أطت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع أربع أصابع إلا وعليه ملك يسبح الله ساجداً لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً وما تلتذتكم بالنساء على الفرش ولخرجتم إلى الصعدات تجارون إلى الله تعالى قال أبو ذر والله لوددت أني شجرة تعضد وفي المسند أيضاً من حديث حذيفة قال كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة فاما انتهينا إلى القبر فعد على ساقيه فجعل يردد بصره فيه ثم قل يضغط المؤمن فيه ضغطة تزول منها حمائله ويملاً على الكافر ناراً والحمائل عروق الأنثيين وفي المسند أيضاً من حديث جابر قال خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى سعد بن معاذ حين توفي فاما صلى الله عليه وسلم رسول الله صلى الله عليه وسلم ووضع في قبره وسوى عليه سبوح رسول الله صلى الله عليه وسلم فسبحنا طويلاً ثم كبر فكبرنا فقبل يارسول الله لما سبحت ثم كبرت فقال لقد تضايقت على هذا العبد الصالح قبره حتى فرج الله عنه وفي صحيح البخاري من حديث أبي سعيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا وضعت الجنازة واحتمأها الرجال على

أعناقهم فإن كانت صالحة قالت قدموني وإن كانت غير صالحة قالت يا ويلها أين تذهبون بها يسمع صوتها كل شيء إلا الإنسان ولو سمعها الإنسان لصعق وفي مسند أحمد من حديث أبي أمامة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تدنوا الشمس يوم القيامة على قدر ميل ويزاد في حرها كذا وكذا تغلي منها الرؤس كما تغلي القدور يعرفون فيها على قدر خطاياهم منهم من يبلغ إلى كعبه ومنهم من يبلغ إلى ساقه ومنهم من يبلغ إلى وسطه ومنهم من يلجمه العرق وفيه عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته يسمع متى يؤمر فينفخ فقال أصحابه كيف نقول قال قولوا حسبنا الله وأنعم الوكيل على الله توكلنا وفي المسند أيضاً عن ابن عمر يرفعه من تعظم في نفسه أو اختال في مشيته لقي الله وهو عليه غضبان وفي الصحيحين عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن المصورين يعذبون يوم القيامة ويقال لهم احيوا ما خلقتم وفيه أيضاً عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم إن أحكم إذا مات عرض عليه مقعده من الغداة والعشي إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة وإن كان من أهل النار فمن أهل النار فيقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله عز وجل يوم القيامة وفيهما أيضاً عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم إذا صار أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار جيء بالموت حتى يوقف بين الجنة والنار ثم يذبح ثم ينادى مناد يا أهل الجنة خلود ولا موت ويا أهل النار خلود ولا موت فيزداد أهل الجنة فرحاً إلى فرحهم ويزداد أهل النار حزناً إلى حزنهم وفي المسند عنه قال من اشترى ثوباً بعشرة دراهم فيها درهم حرام لم يقبل الله له صلاة مادام عليه ثم أدخل أصبعه في أذنيه ثم قال صمنا إن لم أكن سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقوله وفيه عن عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم قال من ترك الصلاة سكران مرة واحدة فكأنما كانت له الدنيا وما عاينها فساها ومن ترك الصلاة سكران أربع مرات كان حقاً على الله أن يسقيه من طينة الخبال قيل وما طينة الخبال يا رسول الله قال عصارة أهل جهنم وفيه أيضاً عنه مرفوعاً من شرب الخمر شربة لم تقبل له صلاة أربعين صباحاً فإن تاب تاب الله عليه فلا أدري في الثالثة أو في الرابعة قال فإن عاد كان حقاً على الله أن يسقيه من روعة الخبال يوم القيامة وفي المسند أيضاً من حديث أبي موسى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من مات مدمناً لا يخمر سقاه الله من نهر الغوطة قيل وما نهر الغوطة قال نهر يجري من فروج المؤمنين يؤذي أهل النار ريح فروجهن وفيه أيضاً عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات فاما عرضتان فجدال ومعاذير وأما الثالثة فعند ذلك تطير الصحف في الأيدي فأخذ بيته وأخذ بشماله وفي المسند أيضاً من

حديث بن مسعود ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إياكم ومحقرات الذنوب فانهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه وضرب لهن رسول الله صلى الله عليه وسلم مثلاً كمثل قوم نزلوا أرض فلاة فحضر صنيع القوم فجعل الرجل ينطلق فيجيء بالعود والرجل يجيئ بالعود حتى جمعوا سواداً وأججوا ناراً وانضجوا ما قذفوا فيها وفي الصحيح من حديث أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يضرب الجسر على جهنم فأكون أول من يجوز ودعوى الرسول يومئذ الماهم سلم سلم وحافيه كلاليب مثل شوك السعدان يختطف الناس بأعمالهم فمنهم الموثق بعماله ومنهم المحدث ثم يجيئون حتى إذا فرغ الله من القضاء بين العباد وأراد ان يخرج من النار من أراد أن يرحم من كان يشهد أن لا إله إلا الله أمر الملائكة أن يخرجوه فيعرفونه بعلامة أثر السجود وحرم الله على النار ان تأكل من ابن آدم أثر السجود فيخرجونهم وقد امتحشوا فيصب عليهم من ماء يقال له ماء الحياة فينبئون نبات الحبة في حبل السيل وفي صحيح مسلم عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان أول الناس يقضى فيه يوم القيامة ثلاثة رجل استشهد فاتي به فعرفه نعمه فعرفها فقال ما عملت فيها قال قاتلت فيك حتى قتلت قال كذبت ولكن قاتلت ليقال هو جري فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى أتى في النار ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فاتي به فعرفه نعمه فعرفها فقال ما عملت فيها قال تعلمت فيك العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن فقال كذبت ولكنك تعلمت ليقال هو عالم فقد قيل وقرأت القرآن ليقال هو قاري فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى أتى في النار ورجل وسع الله عليه رزقه وأعطاه من أصناف المال كله فاتي به فعرفه نعمه فعرفها فقال ما عملت فيها فقال ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها الا أنفقت فيها لك قال كذبت ولكنك فعلت ليقال هو جواد فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى أتى في النار وفي لفظ فهو لاء أول خلق الله تسعهم النار يوم القيامة وسمعت شيخ الاسلام يقول كما ان خير الناس الانبياء فشر الناس من تشبه بهم من الكذابين وأدعي أنه منهم وليس منهم فخير الناس بعدهم العلماء والشهداء والصديقون والمخلصون فشر الناس من تشبه بهم يوهم أنه منهم وليس منهم وفي صحيح البخاري من حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم من كانت عنده لأخيه مظلمة في مال أو عرض فليأتها فليستحلها منه قبل أن يؤخذ وليس عنده دينار ولا درهم فان كانت له حسنات أخذ من حسناته فأعطىها هذا والا أخذ من سيئات هذا فطرح عليه ثم طرح في النار وفي الصحيح من حديث أبي هريرة عنه صلى الله عليه وسلم من أخذ شيئاً من الأرض بغير حقه خسف به يوم القيامة الى سبع أرضين وفي الصحيحين عنه قال قال

رسول الله صلى الله عليه وسلم ناركم هذه التي توقدبنوا آدم جزء واحد من سبعين جزءاً من نار جهنم قالوا والله ان كانت لكافية قال فانها قد فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً كلهن مثل حرها وفي المسند عن معاذ قال اوصاني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لا تشرك بالله شيئاً وان قتلت أو حرقت ولا تعقن والدريك وان أمراك ان تخرج من مالك وأهلك ولا تترك صلوة مكتوبة متعمداً فان من ترك صلوة مكتوبة متعمداً فقد برئت منه ذمة الله ولا تشرب خراً فانه رأس كل فاحشة وإياك والمعصية فان المعصية تحل سهط الله والاحاديث في هذا الباب أضعاف أضعاف ما ذكرنا فلا ينبغي لمن نصح نفسه أن يتعاصى عنها ويرسل نفسه في المعاصي ويتعاقى بحسن الرجاء وحسن الظن قال أبو الوفاء بن عقيل أحذر ولا تغتر فانه قطع اليد في ثلاثة دراهم وجلد الحد في مثل رأس الابريرة من الحر وقد دخلت المرأة النار في مرة واشتعلت الشمالة ناراً على من غلبها وقد قتل شهيداً وقال الامام أحمد ثنا معاوية ثنا الاعمش عن سليمان بن مسيرة عن طارق بن شهاب يرفعه قال دخل رجل الجنة في ذباب ودخل رجل النار في ذباب قالوا وكيف ذلك يا رسول الله قال مر رجلان على قوم لهم صنم لا يجوزد أحد حتى يقرب له شيئاً فقال لأحدهما قرب فقال ليس عندي شيء قالوا قرب ولو ذباباً فقرب ذباباً فخلوا سبيله فدخل النار وقالوا الاخر قرب فقال ما كنت أقرب شيئاً دون الله عز وجل فضربوا عنقه فدخل الجنة وهذه الكلمة الواحدة يتكلم بها العبد يهوى بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب وربما اتكل بعض المغترين على ما يرى من نعم الله عليه في الدنيا وأنه يغتر به ويظن أن ذلك من محبة الله وأنه يعطيه في الآخرة أفضل من ذلك فهذا من الغرور قال الامام أحمد ثنا يحيى بن غيلان ثنا رشد بن سعد عن حرملة بن عمران التميمي عن عقبة بن مسلم عن عقبة بن عامر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال إذا رأيت الله عز وجل يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب فانما هو استدراج ثم تلى قوله عز وجل فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عيونهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فاذا هم مباسون وقال بعض السلف إذا رأيت الله عز وجل يتابع عليك نعمه وأنت مقيم على معاصيه فاحذره فانما هو استدراج منه يستدرجك به وقد قال تعالى ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون وليبوتهم أبواباً وسريراً عليهم يتكئون وزخرفاً وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين وقد ردد سبحانه على من يظن هذا الظن بقوله فاما الانسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن كلاً أي ليس كل من أنعمته ووسعت

عليه رزقه أكون قدأ كرمته وإيس كل من ابتليته وضيقته عليه رزقه أكون قد اهتته
بلدأبتلى هذا بالنعم وأكرم هذا بالابتلاء وفي جامع الترمذي عنه صلى الله عليه وسلم إن
الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب ولا يعطي الإيمان إلا من يحب وقال بعض السلف
رب مستدرج بنعم الله عليه وهو لا يعلم ورب مفتون بثناء الناس عليه وهو لا يعلم ورب
مغرور بسرا الله عليه وهو لا يعلم

❦ فصل ❦

وأعظم الخلق غروراً من اغتر بالدنيا وعاجبها فأثرها على الآخرة ورضي بها من
الآخرة حتى يقول بعض هؤلاء الدنيا نقد والآخرة نسيئة والنقد أنفع من النسيئة ويقول
بعضهم درة منقودة ولا درة موعودة ويقول آخر منهم لذات الدنيا متيقنة ولذات الآخرة
مشكوك فيها ولا أدع اليقين للشك وهذا من أعظم تلبيس الشيطان وتسويله والبهائم العجم
أعقل من هؤلاء فإن البهيمة إذا خافت مضرة شيء لم تقدم عليه ولو ضربت وهؤلاء يقدم
أحدهم على ما فيه عطبه وهو ينظر اليه وهو بين مصدق ومكذب فهذا الضرب إن آمن
أحدهم بالله ورسوله ولقائه والجزاء فهو من أعظم الناس حسرة لأنه أقدم على علم وإن لم
يؤمن بالله ورسوله فابعد له وقول هذا القائل النقد خير من النسيئة فجوابه أنه إذا تساوي
النقد والنسيئة فالنقد خير وإن تفاوتتا وكانت النسيئة أكبر وأفضل فهي خير فكيف والدنيا
كلها من أولها إلى آخرها كنفس واحد من أنفاس الآخرة كما في مسند أحمد والترمذي
من حديث المستورد بن شداد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما الدنيا في الآخرة
إلا كأيدي خيل أحكم أصبعه في اليم فليظرب به يرجع فاينار هذا النقد على هذه النسيئة من
أعظم العين وأقبح الجهل وإذا كان هذا نسبة الدنيا بمجموعها إلى الآخرة فما مقدار عمر
الإنسان بالنسبة إلى الآخرة فأما أولى بالعاقل إثبات العاجل في هذه المدة اليسيرة وحرمان
الحير الدائم في الآخرة أم ترك شيء حقير صغير منقطع عن قرب ليأخذ ما لا قيمة له ولا
حضر له ولا نهاية لعدده ولا غاية لأمدته وأما قول الآخر لا أترك متيقناً لمشكوك فيه فيقال
له إما أن تكون على شك من وعد الله ووعدده وصدق رساله أو تكون على اليقين من ذلك
فإن كنت على اليقين فما تركت الا ذرة عاجلة منقطعة فانية عن قرب لأنه متيقن لا شك
فيه ولا انقطاع له وإن كنت على شك فتأمل آيات الرب تعالى الدالة على وجوده وقدرته
ومشيئته ووحدانيته وصدق رساله فيما أخبر وأبه عنه وتجرد وقم لله ناظراً أو مناظراً حتى يتبين
لك أن ما جاءت به الرسل عن الله فهو الحق الذي لا شك فيه وإن خالق هذا العالم هو رب

السموات والأرض يتعالى ويتقدس ويتنزه عن خلاف ما أخبرت به رسله عنه ومن نسه الى غير ذلك فقد شتمه وكذبه وأنكر ربوبيته وملكه اذ من الحال الممتنع عند كل ذي فطرة سليمة أن يكون الملك الحق عاجزا أو جاهلا لا يعلم شيئا ولا يسمع ولا يبصر ولا يتكلم ولا يأمر ولا ينهي ولا يثيب ولا يعاقب ولا يعز من يشاء ولا يذل من يشاء ولا يرسل رسله الى أطراف مملكته ونواحيها ولا يعتني باحوال رعيته بل يتركهم سدى ويخليهم هملا ولهذا يقدح في ملك آحاد ملوك البشر ولا يليق به فكيف يجوز نسبة الملك الحق المبين اليه واذا تأمل الانسان حاله من مبدأ كونه نطفة الى حين كماله واستوائه تبين له ان من عني به هذه العناية ونقله الى هذه الأحوال وصرفه في هذه الأطوار لا يليق به أن يهمله ويتركه سدى لا يأمره ولا ينهيه ولا يعرفه بحقوقه عليه ولا يثيبه ولا يعاقبه ولو تأمل العبد حق التأمل لكان كل ما يبصره وما لا يبصره دليلا له على التوحيد والنبوة والمعاد وأن القرآن كلامه وقد ذكرنا وجه الاستدلال بذلك في كتاب إيمان القرآن عند قوله فلا أقسم بماتبصرون وما لا تبصرون إنه لقول رسول كريم وذكرنا طرفا من ذلك عند قوله وفي أنفسكم أفلا تبصرون وأن الانسان دليل نفسه على وجود خالقه وتوحيده وصدق رسله وإثبات صفات كماله فقد بان بأن المضيع مغرور على التقديرين تقدير تصديقه ويقينه وتقدير تكذيبه وشكه فان قلت كيف يجتمع التصديق الجازم الذي لا شك فيه بالمعاد والجنة والنار ويتخلف العمل وهل في الطباع البشرية أن يعلم العبد أنه مطلوب غدا الى بين يدي بعض الملوك ليعاقبه أشد عقوبة أو يكرمه أتم كرامة ويبيت ساهيا غافلا لا يتذكر موقفه بين يدي الملك ولا يستعد له ولا يأخذ له أهبة قيل هذا امر الله سؤال صحيح وأرد على أكثر هذا الحلق واجتماع هذين الامرين من أعجب الاشياء وهذا التخالف له عدة أسباب أحدها ضعف العلم ونقصان اليقين ومن ظن أن العلم لا يتفاوت فقولاه من أفسد الأقوال وأبطلها وقد سأل ابراهيم الخليل ربه أن يريه إحياء الموتى عيانا بعد علمه بقدرة الرب على ذلك ليزداد طمأنينة ويصير المعلوم غيبا شهادة وقد روى أحمد في مسنده عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ليس الخبر كالمعاين فاذا اجتمع الى ضعف العلم عدم استحضاره أو غيبته عن القلب كثيرا من أوقاته أو أكثرها لاشتغاله بما يضاده وانضم الى ذلك تقاضى الطابع وغلبات الهوى واستيلاء الشهوة وتسويل النفس وغرور الشيطان واستبطاء الوعد وطول الأمل وورقة الغفلة وحب العاجلة ورخص التأويل والف العوائد فهناك لا يمسك الايمان في القلب الا الذي يمسك السموات والأرض أن تزولا وبهذا السبب يتفاوت الناس في الايمان والاعمال حتى ينتهي الى أدنى مثقال ذرة في القلب وجماع هذه الأسباب يرجع الى ضعف

البصيرة والصبر ولهذا مدح الله سبحانه أهل الصبر واليقين وجعلهم أئمة في الدين فقال تعالى
وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون

﴿ فصل ﴾

وقد تبين الفرق بين حسن الظن والغرور وان حسن الظن ان حمل على العمل
وحث عليه وساعده وساق اليه فهو صحيح وان دعا الى البطالة والانهماك في المعاصي فهو
غرور وحسن الظن هو الرجاء فمن كان رجاءه جاذباً له على الطاعة زاجرآله عن المعصية
فهو رجاء صحيح ومن كانت بطالته رجاءه ورجاءه بطالة وتفريطاً فهو الغرور ولو أن
رجلاً كانت له أرض يؤمل أن يعود عليه من مغلها ما ينفعه فاعملها ولم يبذرها ولم يحرقها
وأحسن ظنه بأنه يأتي من مغلها ما يأتي من غير حرث وبذر وسقي وتماهد الأرض لعمده
الناس من أسفه السفهاء وكذلك لو حسن ظنه وقوى رجاءه بأنه يجيئه ولد من غير جماع
أو يصير أعلم أهل زمانه من غير طلب العلم وحرص تام عليه وأمثال ذلك فكذلك من
حسن ظنه وقوى رجاءه في الفوز بالدرجات العلي والتعيم المقيم من غير طاعة ولا تقرب
الى الله تعالى بأمثال أوامرہ واجتناب نواهيه وبالله التوفيق وقد قال الله تعالى ان الذين آمنوا
والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله فتأمل كيف جعل رجاءهم
بآياتهم بهذه الطاعات وقال المغترون ان المفرطين المضيعين لحقوق الله المعطلين لاوامره
الباغين على عباده المتجربين على محارمه أولئك يرجون رحمة الله وسر المستلثة ان الرجاء
وحسن الظن إنما يكون مع الاتيان بالاسباب التي اقتضتها حكمة الله في شرعه وقدره
وثوابه وكرامته فيأتي العبد بها ثم يحسن ظنه بربه ويرجوه أن لا يكله اليها وأن يجعلها
موصلة الى ما ينفعه ويصرف ما يعرضها ويبطل أثرها

﴿ فصل ﴾

ومما ينبغي أن يعلم أن من رجاشئاً استلزم رجاءه ثلاثة أمور أحدها محبته ما يرجوه الثاني
خوفه من فواته الثالث سعيه في تحصيله بحسب الامكان وأما رجاء لا يقارنه شيء من ذلك
فهو من باب الاماني والرجاء شيء والاماني شيء آخر فكل راج خائف والسائر على
الطريق اذا خاف أسرع السير مخافة الفوات وفي جامع الترمذي من حديث أبي هريرة قال
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل ألا إن سلعة الله
غالبه ألا إن سلعة الله الجنة وهو سبحانه كما جعل الرجاء لاهل الاعمال الصالحة فكذلك
جعل الخوف لاهل الاعمال الصالحة فلم ان الرجاء والخوف النافع هو ما اقترن به العمل

قال الله تعالى ان الذين هم من خشية ربهم مشفقون والذين هم بآيات ربهم يؤمنون والذين هم برههم لا يشركون والذين يؤتون ما أتوا وقلوبهم وجة إلههم الى ربهم راجعون أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون وقد روى الترمذى فى جامعه عن عائشة رضى الله عنها قالت سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية فقلت أهم الذين يشربون الخمر ويزنون ويسرقون فقال لا يا ابنة الصديق ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون ويحافون أن لا يتقبل منهم أولئك يسارعون في الخيرات وقد روى من حديث أبي هريرة أيضاً والله سبحانه وصف أهل السعادة بالاحسان مع الخوف ووصف الاشقياء بالاساءة مع الامن ومن تأمل أحوال الصحابة رضى الله عنهم وجدهم فى غاية العمل مع غاية الخوف ونحن جئنا بين التقصير بل التفريط والامن فهذا الصديق يقول وددت انى شجرة فى جنب عبد مؤمن ذكره أحمد عنه وذكر عنه أيضاً انه كان يمسك بلسانه ويقول هذا الذى أوردني الموارء وكان يبكى كثيراً ويقول أبكوا فان لم تبكوا فتبكوا وكان اذا قام الى الصلاة كأنه عود من خشية الله عز وجل وأنى بطائر يقبله ثم قال ماصيد من صيد ولا قطعت من شجرة (١) الا بما ضيعت من التسبيح ولما احتضر قال لعائشة يا بنية انى أصبت من مال المسامين هذه العبادة وهذه الحلاب وهذا العبد فاسرعى به الى بن الخطاب وقال والله لوددت انى كنت هذه الشجرة تؤكل وتمضد وقال قتادة بلغنى ان أبا بكر قال ليتنى (٢) خضرة تأكلنى الدواب وهذا عمر بن الخطاب قرأ سورة الطور الى أن بلغ قوله إن عذاب ربك لواقع فبكى واشتد بكاءه حتى مرض وعادوه وقال لابنه وهو فى الموت ويحك ضع خدي على الارض عساه (٣) أن يرحنى ثم قال ويل أمة إن لم يغفر الله لى ثلاثاً ثم قضى وكان يمر بالآية فى ورده بالليل فتختمه فيبقى فى البيت أياماً ويعاد يحسبونه مريضاً وكان فى وجهه رضى الله عنه خطان أسودان من البكاء وقال له ابن عباس مصر الله بك الامصار وفتح بك الفتوح وفعل وفعل فقال وددت انى أنجوا لأجر ولا وزر وهذا عثمان بن عفان كان اذا وقف على القبر يبكى حتى تبل لحيته وقال لو اننى بين الجنة والنار لأدري الى أيتهما يؤمر بى لاخترت أن أكون رمداً قبل أن أعلم الى أيتهما أصير وهذا على بن أبى طالب رضى الله عنه وبكاؤه وخوفه وكان يشتد خوفه من اثنتين طول الامل واتباع الهوى قال فاما طول الامل فيذهب الآخرة وأما اتباع الهوى فيصد عن الحق والأوان الدنيا قدولت مدبرة والآخرة مقبلة ولكل واحدة منهما بنون فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا فان اليوم عمل ولا حساب وغدا حساب ولا عمل وهذا بالدرء

(١) عضد شجر (٢) وددت أنى (٣) لعل الله

كان يقول إن أشد ما أخاف على نفسي يوم القيامة أن يقال لي يا أبا الدرداء قد علمت فكيف عملت فيما علمت وكان يقول لو تعلمون ما أنتم لاقون بعد الموت لما أكلتم طعاماً على شهوة ولا شربتم شراباً على شهوة ولا دخلتم بيتاً تستظلون فيه ولخرجتم إلى الصعدات تضربون صدوركم وتبكون على أنفسكم ولوددت أني شجرة تعضد ثم تؤكل وهذا عبدالله بن عباس كان أسفل عينيه مثل الشراك البالي من الدموع وكان أبو ذر يقول ياليتني كنت شجرة تعضد ووددت أني لم أخاق وعرضت عليه التفقة فقال عندنا عنز نحلبها وحمرة نقل عالم أو محرر يخدمنا وفضل عبادة وإني أخاف الحساب فيها وقرأ تيم الداري ليلة سورة الجاثية فلما أني على هذه الآية أم حسب الذين اجتزحوا السيئات أن يجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات جعل يرددوها ويبكي حتى أصبح وقال أبو عبيدة بن الجراح ووددت أني كبش فذبني أهلي وأكلوا لحمي وحسوا مرقى وهذا باب يطول تتبعه قال البخاري في صحيحه باب خوف المؤمن أن يحبط عمله وهو لا يشعر وقال ابراهيم التيمي ما عرضت قولي على عملي الا خشيت أن أكون مكذبا وقال بن أبي مايكة ادركت ثلثين من اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كلهم يخاف النفاق على نفسه ما منهم أحد يقول انه على ايمان جبريل وميكائيل ويذكر عن الحسن ما خافه المؤمن ولا آمنه الا منافق وكان عمر بن الخطاب يقول لحذيفة أنشدك الله هل سماني لك رسول الله صلى الله عليه وسلم يعني في المنافقين فيقول لا ولا أذكر بعدك احداً فسمعت شيخنا يقول مراده اني لأبرئ غيرك من النفاق بل المراد اني لا أفتح على هذا الباب فكل من سألتني هل سماني لك رسول الله صلى الله عليه وسلم فأزكيه قلت وقريب من هذا قول النبي صلى الله عليه وسلم للذي سأله أن يدعو له أن يكون من السبعين ألقا الذين يدخلون الجنة بغير حساب سبقك بها عكاشة ولم يرد أن عكاشة وحده أحق بذلك من عداة من الصحابة ولكن لودعا له اقام آخر وآخر وانفتح الباب وربما قام من لم يستحق أن يكون منهم فكان الامساك أولى والله أعلم

- فصل -

فانرجع الى ما كنا فيه مما ذكرنا من ذكر دواء الداء الذي إن استمر أفسد دنيا العبد وآخرته فما ينبغي أن يعلم أن الذنوب والمعاصي تضر ولا شك أن ضررها في القلوب كضرر السموم في الابدان على اختلاف درجاتها في الضرر وهل في الدنيا والآخرة شرور وداء الاسبب الذنوب والمعاصي فما الذي أخرج الأيوين من الجنة دار اللذة والنعيم والبهجة والسرور الى دار الآلام والاحزان والمصائب وما الذي أخرج إبليس من ملكوت السماء

وطرده ولعنه ومسح ظاهره وباطنه فجعلت صورته أقبح صورة واشنعها وباطنه اقبح من صورته وأشنع وبدل بالقرب بعداً وبالرحمة لعنة وبالجمال قبحاً وبالجنة نارا تلظي وبالايمان كفرة وبموالات الولي الحميد أعظم عداوة ومشاقة وبزجل التسبيح والتقدیس والتهايل زجل الكفر والشرك والكذب والزور والفحش وباباس الايمان لباس المكفر والفسوق والمصيان فهان على الله غاية الهوان وسقط من عينه غاية السقوط وحل عليه غضب الرب تعالى فاهواه ومقته أكبر المقت فأرداه فصار قوادا لكل فاسق ومجرم رضي لنفسه بالقيادة بعد تلك العبادة والسيادة فعيذاً بك اللهم من مخالفة أمرك وإرتكاب نهيك وما الذي أغرق أهل الارض كلهم حتى علا الماء فوق رأس الحبال وما الذي ساط الریح العقيم على قوم عاد حتى القتهم موتي على وجه الارض كأنهم أعجاز نخل خاوية ودمرت مامر عليه من ديارهم وحروهم وزروعهم ودوابهم حتى صاروا عبرة للأمم الى يوم القيامة وما الذي أرسل على قوم ثمود الصيحة حتى قطعت قلوبهم في أجوافهم وماتوا عن آخرهم وما الذي رفع قري اللوطية حتى سمعت الملائكة نبيح كلابهم ثم قلبها عليهم فجعل عاليها سافلها فاهلكم جميعاً ثم أتبعهم حجارة من سجيل السماء أمطارها عليهم فجمع عليهم من العقوبة ما لم يجمعه على أمة غيرهم ولاخوانهم أمثالها وما هي من الظالمين ببعيد وما الذي أرسل على قوم شعيب سحاب العذاب كالظلل فلما صار فوق رؤسهم أمطار عليهم ناراً تلظي وما الذي أغرق فرعون وقومه في البحر ثم نقلت أرواحهم الى جهنم فلا جساد لفرق والارواح للحرق وما الذي خسف بقارون وداره وباله وأهله وما الذي أهلك القرون من بعد نوح بأنواع العقوبات ودمرها تدميراً وما الذي أهلك قوم صاحب يس بالصيحة حتى خمدوا عن آخرهم وما الذي بعث على بنى إسرائيل قوماً أولى بأس شديد فجازوا خلال الديار وقتلوا الرجال وسبوا الذراري والنساء وأحرقوا الديار ونهبوا الأموال ثم بعثهم عليهم مرة ثانية فاهلكوا ما قدروا عليه وتبروا ما علو تتيروا وما الذي ساط عليهم بأنواع العذاب والعقوبات مرة بالقتل والسبي وخراب البلاد ومرة بحجور الملوك ومرة بمسخهم قرده وختازيرو آخر ذلك أقسم الرب تبارك وتعالى لبيعن عليهم الى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب قال الامام أحمد ثنا الوائيد بن مسلم ثنا صفوان بن عمرو حدثني عبد الرحمن بن جبير بن نفير عن أبيه قال لما فتحت قبرس فرق بين أهلها فبكي بعضهم الى بعض فرأيت أبا الدرداء جالساً وحده يبكي فقلت يا أبا الدرداء ما يبكيك في يوم أعز الله فيه الاسلام وأهله فقال ويحك يا جبير ما أهون الخلق على الله عز وجل إذا أضاعوا أمره بينما هي أمة قاهرة ظاهرة لهم الملك تركوا أمر الله فصاروا الى ما ترى وقال علي بن الجعدنا شعبة عن عمرو بن مرة قال سمعت

ابا البخاري يقول اخبرني من سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول ان يهلك الناس حتى
 يمذروا من انفسهم وفي مسند أحمد من حديث أم سلمة قالت سمعت رسول الله صلى
 الله عليه وسلم يقول اذا ظهرت المعاصي في أمتي عظم الله بعذاب من عنده فقلت يا رسول
 الله أما فيهم يومئذ أناس صالحون قال بلى قالت كيف يصنع ياؤلك قال يصيبهم ماأصاب
 الناس ثم يصيرون الى مغفرة من الله ورضوان وفي مراسيل الحسن عن النبي صلى الله عليه
 وسلم لاتزال هذه الامة تحت يد الله وفي كنفه ما لم يالك قراؤها امرأه او ما لم يرك صالحاؤها
 فجارها وما لم يهن خيارها ثم ارها فاذا هم فعلوا ذلك رفع الله يده عنهم ثم ساط عليهم جبارتهم
 فيسومونهم سوء العذاب ثم ضربهم الله بالفاقة والفقر وفي المسند من حديث ثوبان قال
 قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الرجل ايجرم الرزق بالذنوب يصيبه وفيه أيضا عنه
 قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوشك أن تداعي عليكم الائم من كل أفق كما تداعي
 الأكلة على قصعتها قلنا يا رسول الله أمن قلة بنا يومئذ قال أئيم يومئذ كثير ولكنكم غثاء
 كغثاء السيل تنزع المهابة من قلوب عدوكم وتجمل في قلوبكم الوهن قالوا وما الوهن قال حب
 الحياة وكره الموت وفي المسند من حديث أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
 لما عرج بي مررت بقوم لهم أظنار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم فقلت من هؤلاء
 يا جبريل فقال هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم وفي جامع الترمذي
 من حديث أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرج في آخر الزمان قوم يختلون
 الدنيا بالدين ويأبسون للناس مسوك الضأن من الدين ألسنتهم أحلى من السكر وقلوبهم قلوب
 الذئاب يقول الله عز وجل أبي تغترون وعلي تجترقون في جانب لا بعين على أولئك فتنة
 تدع الحليم منهم حيرانا وذكر ابن أبي الدنيا من حديث جعفر بن محمد عن أبيه عن جده قال
 قال على يأتي على الناس زمان لا يبقى من الاسلام إلا اسمه ولا من القرآن إلا رسمه مساجدهم
 يومئذ عامرة وهي خراب من الهدى علماءهم أشبر من تحت أديم السماء منهم خرجت الفتنة وفيهم
 تمود وذكروا من حديث سمك بن حرب عن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود عن أبيه اذا ظهر الربا
 والزنا في قرية أذن الله عز وجل بهلاكها وفي مراسيل الحسن اذا أظهر الناس العلم وضيعوا العمل
 وتحابوا بالاسن وتباغضوا بالقلوب وتقاطعوا بالارحام لعنهم الله عز وجل عند ذلك فاصمهم
 وأعمى أبصارهم وفي سنن ابن ماجه من حديث عبد الله بن عمر بن الخطاب قال كنت عاشر
 عشرة رهط من المهاجرين عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فاقبل علينا رسول الله صلى
 الله عليه وسلم بوجهه فقال يا معشر المهاجرين خمس خصال وأعوذ بالله أن تدركوهن ما ظهرت
 الفاحشة في قوم حتى أعلنوا بها إلا ابتلوا بالطواغيت والاوجاع التي لم تكن في أسلافهم الذين

مضوا ولا نقص قوم المكيا والميزان إلا ابتلوا بالسنين وشدة المؤنة وجور الساطان ومما منع قوم زكاة أموالهم إلا تمسوا القطر من السماء فلولوا بها أنفسهم ويغطروا ولا خير قوم الهدى إلا سلط الله عليهم عدوهم من غيرهم فاخذوا بدمع ما في أيديهم وما لم تعمل أثمهم بما أنزل الله في كتابه إلا جعل الله بأسهم بينهم وفي المسند والسنن من حديث عمرو بن مرة عن سالم بن أبي الجعد عن أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود عن أبيه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن من كان قبلكم كان إذا عمل العامل فيهم بالخطيئة جاءه انذاهي تنذيراً فقال يا هذا اتق الله فإذا كان من الغد جالساً وواكله وشاربه كأنه لم يره على خطيئة بالأمس فلما رأي الله عز وجل ذلك منهم ضرب بقلوب بعضهم على بعض ثم لعنهم على لسان نبيهم داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون والذي نفس محمد بيده لا تأمنن بالعرف وتلتون عن المنكر ولتأخذن على يد السنيعة وتأتطرنه على الحق أطراً أو يضربن الله بقلوب بعضكم على بعض ثم ليعلنكم كالعنهم وذكر ابن أبي الدنيا عن إبراهيم بن عمرو الصنعاني قال أوحى الله إلى يوشع بن نون أني هلاك من قومك أربعين ألفاً من خيارهم وستين ألفاً من شرارهم قال يارب هؤلاء الأشرار فأبال الأختيار قال إنهم لم يغضبوا الغضب وكانوا يواكلونهم ويشاربونهم وذكر أبو عمر بن عبد البر عن أبي عمران قال بعث الله عز وجل ملكين إلى قرية أن دمرها بمن فيها فوجدوا فيها رجلاً قائماً يصلي في مسجد فقالا يارب إن فيها عبدك فلانا يصلي فقال الله عز وجل دمرها ودمرها معهم فأنه ما تمعروا وجهه (١) في قط وذكر الحميدي عن سفيان بن عيينة قال حدثني سفيان بن سعيد عن مسعر أن ملكاً أمر أن يخسف قرية فقال يارب إن فيها فلاناً العابد فأوحى الله إليه أن به فابداً فإنه لم يتمر وجهه في ساعة قط وذكر ابن أبي الدنيا عن وهب بن منبه قال لما أصاب داود الخطيئة قال يارب اغفر لي قال قد غفرت لك والزمت عارها بني إسرائيل قال يارب كيف وأنت الحكم العدل لا تغلم أحداً أنا أعلم الخطيئة وتلزم عارها غيري فأوحى الله إليه أنك لما عمات الخطيئة لم يعجلوا عليك بالانكار وذكر ابن أبي الدنيا عن أنس بن مالك أنه دخل على عائشة هو ورجل آخر فقال لها الرجل يا أم المؤمنين حدثينا عن الزلزلة (٢) فقالت إذا استباحوا الزنا وشربوا الخمر وضربوا بالمازف غار الله عز وجل في سمائه فقال الأرض تزلزلي بهم فإن تابوا وترعوا وإلا أهدمها عليهم قال يا أم المؤمنين أعذاباً لهم قالت بل موعظة ورحمة للمؤمنين ونكالاً وكذاباً وسخطاً على الكافرين فقال أنس ما سمعت حديثاً بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا أشد فرحاً مني بهذا الحديث وذكر ابن أبي الدنيا حديثاً مرسل أن الأرض تزلزلت على عهد رسول الله صلى الله عليه

وسلم فوضع يده عليها ثم قال (١) اسكني فانه لم يأن لك بعد ثم انتفت الى أصحابه (٢) فقال إن ربكم ليستعقبكم فاعتبر به ثم زلزلت بالناس على عهد عمر بن الخطاب فقال يا أيها الناس ما كانت هذه الزلزلة الا عن شيء أحدثته والذي نفسي بيده لان عادت لأسأكنكم فيها ابداً وفي مناقب عمر لابن أبي الدنيا إن الارض زلزلت على عهد عمر فضرب يده (٣) عليها وقال مالك مالك أمانها لو كانت القيامة حدثت أخبارها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اذا كان يوم القيامة فليس فيها ذراع ولا شبر الا وهو ينطق وذكرا الامام احمد عن صفية قالت زلزلت (٤) المدينة على عهد عمر فقال يا أيها الناس ما هذا ما أسرع ما أحدثتم لان عادت لا تجدوني فيها وقال كعب انما زلزلت الارض اذا عمل فيها بالمعاصي فترعد (٥) فرقا من الرب عز وجل أن يطلع عليها وكتب عمر بن عبد العزيز الى الامصار أما بعد فان هذا الرجف شيء يباب (٦) الله عز وجل به العباد وقد كتبت إلى سائر الامصار يخبر جوا في يوم كذا وكذا في شهر كذا وكذا فمن كان عنده شيء فليصدق به فان الله عز وجل قال قد افلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى وقولوا كما قال آدم ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين وقولوا كما قال نوح وإلاتغفر لي وترحمي أكن من الخاسرين وقولوا كما قال يونس لا إله إلا انت سبحانك إني كنت من الظالمين وقال الامام احمد حدثنا اسود بن عامر ثنا ابو بكر عن الاعمش عن عطاء بن أبي رباح عن ابن عمر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اذا ضن الناس بالدينار والدرهم وتبايعوا بالعينه (٧) واتبعوا اذئاب البقر وتركوا الجهاد في سبيل الله أنزل الله بهم بلاء فلا يرفعه عنهم حتى يراجعوا دينهم ورواه أبو داود باسناد حسن وذكر ابن أبي الدنيا من حديث ابن عمر قال لقد رأيتنا وما أحد أحق بديناره ودرهمه من أخيه المسلم واقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اذا ضن الناس بالدينار والدرهم وتبايعوا بالعينه وتركوا الجهاد في سبيل الله وأخذوا اذئاب البقر أنزل الله عليهم من السماء بلاء فلا يرفعه عنهم حتى يراجعوا دينهم وقال الحسن أن العينه والله ما هي الا عقوبة من الله عز وجل على الناس ونظر بعض أنبياء بني إسرائيل الى ما يصنع بهم يختصر فقال بما كسبت أيدينا سلطت علينا من لا يعرفك ولا يرحمنا وقال بخت نصر لدانيال ما الذي سلطاني على قومك قال عظم خطيئتك وظلم قومي أنفسهم وذكر ابن أبي الدنيا من حديث عمار بن ياسر وحذيفة عن النبي صلى الله عليه وسلم إن الله عز وجل إذا أراد بالعباد نقمة أمات الاطفال

(١) نسخته فقال (٢) الصحابة (٣) بيده (٤) زلزلت (٥) فزعة (٦) يعاقب
(٧) العينه هو أن يبيع من رجل سلعة بثمن معلوم الى أجل مسمى ثم يشتريها بأقل من الثمن الاول

وأعقم أرحام النساء فتزل النعمة وليس فيهم مرحوم وذ كر عن مالك بن دينار قال قرأت (١) في الحكمة يقول الله عز وجل أنا الله مالك الملوك قلوب الملوك بيدي فمن أطاعني جعلتهم عليه رحمة ومن عصاني جعلتهم عليه نقمة فلا تشغلوا أنفسكم بسب الملوك ولكن توبوا إلي أعطفهم عليكم وفي مراسيل الحسن إذا أراد الله بقوم خيراً جعل أمرهم إلى حلمائهم وفيهم عند سمحائهم وإذا أراد بقوم شراً جعل أمرهم إلى سفائهم وفيهم عند بخلائهم وذكر الامام أحمد وغيره عن قتادة قال يونس يارب أنت في السماء ونحن في الأرض فاعلامه غضبك من رضاك قال إذا استعملت عليكم خياركم فهو من علامة رضائي عليكم وإذا استعملت عليكم شراركم فهو من علامة بسخطي عليكم وذكر ابن أبي الدنيا عن الفضيل بن عياض قال أوحى الله إلى بعض الأنبياء إذا عصاني من يعرفني سلطت عليه من لا يعرفني وذكر أيضاً من حديث ابن عمر رفعه والذي نفسي بيده لا تقوم الساعة حتى يبعث الله أمراء كذبة ووزراء فجرة وأعوانا خونة وعرفاء ظلمة وقراء فسقة سيماهم سما الرهبان وقلوبهم أذن من الحبيب أهواؤهم مختلفة فيتيح الله لهم فتنة غرباء مظلمة نيتهاو كن (٢) فيها والذي نفس محمد بيده لينقضن الاسلام عروة عروة حتى لا يقال الله الله لتأمرن بالمعروف وتنهون عن المنكر أو لا يسلطن الله عليكم أشراركم فيسومونكم سوء العذاب ثم يدعو خيركم فلا يسحب لهم لتأمرن بالمعروف وتنهون عن المنكر أو ليعيثن الله عليكم من لا يرحم صغيركم ولا يوقر كبيركم وفي معجم الطبراني وغيره من حديث سعيد بن جبير عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما طفف قوم كيلاً ولا بنحو ما ميزانا إلا نعيمهم الله عز وجل باقطر وما ظهر في قوم الزناء إلا ظهر فيهم الموت وما ظهر في قوم الربا إلا سلط الله عليهم الجنون ولا ظهر في قوم القتل يقتل بعضهم بعضاً إلا سلط الله عليهم عدوهم ولا ظهر في قوم عمل (٣) قوم لوط إلا ظهر فيهم الحسف وماترك قوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا لم ترفع أعمالهم ولم يسمع دعاؤهم ورواه ابن أبي الدنيا من حديث إبراهيم بن الأشعث عن عبد الرحمن بن زيد عن أبيه عن سعيد به وفي المسند وغيره من حديث عروة عن عائشة قالت دخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد حفزه النفس فعرفت في وجهه أن قد حفزه شيء فأتاكم حتى توضعاً وخرج ناصقت بالحجرة (٤) فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال يا أيها الناس اتقوا ربكم إن الله عز وجل يقول لكم مروا بالمعروف وانهاوا عن المنكر قبل أن تدعوني فلا أجيبكم وتستنصروني فلا أنصركم وتسالوني فلا أعطيكم وقال العمري الزاهد أن من غفلت عن نفسك وإعراضك عن الله أن تري ما يسخط الله فتجاوزته ولا تأمر فيه

(١) نسخه رأيت (٢) أي يقعون فيها من غير مبالاة (٣) فعل (٤) في الحجرة

ولأنهسى عنه خوفاً من لا يملك لنفسه ضرراً ولا نفعاً وقال من ترك الأمر بالمعروف والنهي
عن المنكر مخافة من المخلوقين نزعته منه الطاعة ولو أمر ولد أو بعض مواله لاستخف بحقه
وذكر الإمام أحمد في مسنده من حديث قيس بن أبي حازم قال قال أبو بكر الصديق
يا أيها الناس أنكم تتلون هذه الآية وأنكم تضعونها على غير مواضعها يا أيها الذين آمنوا عليكم
أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول
إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه وفي لفظ إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك
أن يعمهم الله بعقاب من عنده وذكر الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن
أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أخفيت الخطيئة فلا تضر إلا صاحبها
وإذا ظهرت فلم تضر غير العامة وذكر الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب يوشك القرى
أن تخرب وهي عامرة قيل وكيف تخرب وهي عامرة قال إذا علا تجارها على أبرارها
وساد القبيلة منافقها وذكر الأوزاعي عن حسان بن أبي عطية أن النبي صلى الله عليه وسلم
قال ستظهر شرار أمتي على خيارها حتى يستخفي المؤمن فيهم كما يستخفي المنافق فينا اليوم وذكر
ابن أبي الدنيا من حديث ابن عباس يرفعه قال يأتي زمان يدوب فيه قاب المؤمن كما يدوب الملح
في الماء قيل بما ذلك يا رسول الله قال بما يري من المنكر لا يستطيع تغييره وذكر الإمام
أحمد من حديث جرير أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي هم أعز
وأكثر ممن يعملهم لا يغيروه إلا عمهم الله بعقاب وفي صحيح البخاري عن أسامة بن زيد
قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار
فتندلق أقبابه في النار فيدور كما يدور الحمار برحاه فيجتمع عليه أهل النار فيقولون أي
فلان ما شأنك أأنت كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر قال كنت أمركم بالمعروف
ولا آتية وأنهم لم يسمعون من المنكر وآتية وذكر الإمام أحمد عن مالك بن دينار قال كان حبر
من أحبار بني إسرائيل يغشي منزله الرجال والنساء فيمظهم ويذكرهم باليوم الذي يرى الله فرأى بعض
بنيه يوماً يغمر النساء فقال مهلاً يا بني مهلاً يا بني فسقط من سريره فانقطع نخاعه وأسقطت
امراته وقتل بنوه فلوحي الله إلى نبيهم أن أخبر فلاناً الخبر أن لا يخرج من صلبك صديقاً
أبداً ما كان غضبك لي إلا أن قلت مهلاً يا بني مهلاً يا بني وذكر الإمام أحمد من حديث
عبد الله بن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إياكم ومحقرات الذنوب فانهن
يجمعن على الرجل حتى يهلكنه وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرب لهن مثل كمثل
القوم نزلوا أرض فلاة فحضر صنيع القوم فجعل الرجل ينطاق فيجيء بالعود والرجل يحيى
بالعود حتى جمعوا سواداً وأججوا ناراً وانضجوا ما قدفوا فيها وفي صحيح البخاري عن

عن أنس بن مالك قال إنكم تعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشعر وإن كنا لنعدّها على زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم من الموبقات وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال عذبت امرأة في هرة سجنتها حتى ماتت فدخلت النار لأهي أظعمها ولا سقها ولا تركتها تأكل من خشاش الأرض وفي الحاية لأبي نعيم عن حذيفة أنه قيل له في يوم واحد تركت بنو إسرائيل دينهم قال لا وليكم كانوا إذا أمروا بشيء تركوه وإذا نهوا عن شيء فعلوه حتى انسلخوا من دينهم كما ينسلخ الرجل من قميصه ومن هنا قال بعض السلف المعاصي يريد الكفر كما أن القبلية يريد الجماع والغناء يريد الزنا والنظر يريد العشق والمرض يريد الموت وفي الحاية أيضاً عن ابن عباس أنه قال يا صاحب الذنب لا تأمن فتنة الذنب وسوء عقبة الذنب ولما تتبع الذنب أعظم من الذنب إذا عملته فله حبا بك ممن على اليمين وعلى الشمال وأنت على الذنب أعظم من الذنب وضحكك وأنت لم تدرك ما لله صانع بك أعظم من الذنب وفرحك بالذنب إذا ظفرت به أعظم من الذنب وحزنك على الذنب إذا فاك أعظم من الذنب وخوفك من الرجح إذا حركت ستر بابك وأنت على الذنب ولا يضطرب فؤادك من نظر الله إليك أعظم من الذنب ويحك هل تدري ما كان ذنب أيوب عليه السلام قابلاً بالبلاء في جسده وذهاب ماله استغاث به مسكين على ظام يدرء عنه فلم يغثه ولم يئنه الظالم عن ظامه قابلاً لله وقال الإمام أحمد حدثنا الوليد قال سمعت الأوزاعي يقول سمعت هلال بن سعد يقول لا تنظر إلى صغر الخطيئة ولكن أنظر إلى من عصيت وقال الفضيل بن عياض بقدر ما يصغر الذنب عندك يعظم عند الله ويقدر ما يعظم عندك يصغر عند الله وقيل أوحى الله تعالى إلى موسى يا موسى إن أول من مات من خاقي إبليس وذلك لأنه أول من عصاني وإنما أعد من عصاني من الأموات وفي المسند وجامع الترمذي من حديث أبي صالح عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن المؤمن إذا أذنب ذنباً نكت في قلبه نكتة سوداء فإذا تاب وتزع واستغفر صقل قلبه وإن زاد زادت حتى تملأ قلبه فذلك الران الذي ذكره الله عز وجل كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون قال الترمذي هذا حديث صحيح وقال حذيفة إذا أذنب ذنباً العبد نكت في قلبه نكتة سوداء حتى يصير قلبه كالشاة الرمضاء وقال الإمام أحمد ثنا يعقوب ثنا أبي عن صالح عن ابن شهاب حدثني عبد الله بن عبيد الله بن عتبة عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أما بعد يا معشر قريش فإنكم أهل لهذا الأمر ما لم تعصوا الله فإذا عصيتموه بعث عليكم من يأحلكم كما يأحي هذا الفظيظ للفضيب في يده ثم لحى قضيبه فإذا هو أبيض يعلمه وذكر الإمام أحمد

عن وهب قال أن الرب عز وجل قال في بعض ما يقول لبي إسرائيل اني إذا أطعت رضيت وإذا رضيت باركت وليس لبركتي نهاية وإذا عصيت غضبت وإذا غضبت لعنت ولعنتي تبلغ السابغ من الولد وذكر أيضاً عن وكيع ثنا زكريا عن عامر قال كتبت عثقة إلى معاوية أما بعد فإن العبد إذا عمل بمعصية الله عاد حامده من الناس ذاماً ذكر أبو نعيم عن سالم بن أبي الجعد عن أبي الدرداء قال لا يجذر إمرأ أن تلغنه قلوب المؤمنين من حيث لا يشعر ثم قال أتدري ثم هذا قلت لا قال إن العبد يخلو بمعاصي الله فيلقى الله بغضه في قلوب المؤمنين من حيث لا يشعر وذكر عبد الله بن أحمد في كتاب الزهد لآبيه عن محمد بن سيرين أنه لما ركبته الدين اغتم لذلك فقال إني لأعرف هذا الغم بذنب أصبته منذ أربعين سنة وهاهنا نكته دقيقة يغلط فيها الناس في أمر الذنب وهي إنهم لا يرون تأثيره في الحال وقد يتأخر تأثيره فينسى ويظن العبد إنه لا يغير بعد ذلك وإن الأمر كما قال القائل إذا لم يغير حائط في وقوعه * فليس له بعد الوقوع غبار

وسبحان الله ماذا أهلكت هذه النكته من الخلق وكم أزلت من نعمة وكم جلبت من نقمة وما أكثر المغترين بها من العلماء والفضلاء فضلاً عن الجهال ولم يعلم المغتر أن الذنب ينقض ولو بعد حين كما ينقض السهم وكما ينقض الجرح المندمل على الغش والدغل وقد ذكر الامام أحمد عن أبي الدرداء أعبدوا الله كأنكم ترونه وعدوا أنفسكم في الموتى واعلموا أن قليل يكفيكم خير من كثير يلهيكم واعلموا أن البر لا يبلى وإن الآثم لا ينسى ونظر بعض العباد إلى صبي فتأمل محاسنه فأتى في منامه وقيل له اتجدن غيباً بعد أربعين سنة هذا مع أن للذنب نقداً معجل لا يتأخر عنه قال ساجان التميمي أن الرجل ليصيب الذنب في السر فيصبح وعاليه مذنبه وقال يحيى بن معاذ الرازي عجبت من ذي عقل يقول في دعائه اللهم لا تشمت بي الأعداء ثم هو يشمت بنفسه كل عدو له قيل وكيف ذلك قال يعصي الله فيشمت به في القيامة قال ذي النون من خان الله في السر هتك ستره في العلانية

— فصل —

وللمعاصي من الآثار القبيحة المذمومة المضرة بالقلب والبدن في الدنيا والآخرة ما لا يعلمه إلا الله فمنها حرمان العلم فإن العلم نور يقذفه الله في القلب والمعصية تطفيء ذلك النور ولما جالس الامام الشافعي بين يدي مالك وقرأ عليه أعجبه ما رأى من وفور فطنته وتوقد ذكائه وكال فهمه فقال إني أرى الله قد أتى على قلبك نوراً فلا تطفئه بظلمة المعصية وقال الشافعي

شكوت الى وكيع سوء حفظي * فارشني الى ترك المعاصي

وقال اعلم بان العلم فضل * وفضل الله لا يؤتا عاصي

ومنها حرمان الرزق وفي المسند ان العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه وقد تقدم وكما ان تقوى الله مجلبة للرزق فترك التقوى مجلبة لنفقر فما استجاب رزق الله بثل ترك المعاصي ومثها وحشة يجدها المعاصي في قلبه بينه وبين الله لا يوازنها ولا يقارنها لذا صلاوا اجتماع له لذات الدنيا بأسرها لم تف بتلك الوحشة وهذا أمر لا يحس به الامن في قلبه حياة وما لجرح ببيت ايلام فلو لم ترك الذنوب الاحذراً من وقوع تلك الوحشة لكان العاقل حرياً بتركها وشكى رجل الى بعض العارفين وحشة يجدها في نفسه فقال له اذا كنت قد أوحشتك الذنوب فدعها اذا شئت واستأنس وليس على القلب أمر من وحشة الذنب على الذنب فالله المستعان ومنها الوحشة التي تحصل له بينه وبين الناس ولا سيما أهل الخير منهم فانه يجد وحشة بينه وبينهم وكما قويت تلك الوحشة بعد منهم ومن مجالسهم وحرمة البركة الانتفاع بهم وقرب من حزب الشيطان بقدر ما بعد من حزب الرحمن وتقوى هذه الوحشة حتى تستحكم فتقع بينه وبين امرأته وولده وأقاربه وبينه وبين نفسه فتراد مستوحشاً من نفسه وقال بعض السلف إني لأعصي الله فأرى ذلك في خلق دابقي وإمرأتي ومنها تعسير اموره عليه فلا يتوجه لامر الا يجده مغلفاً بدونه أو متعسراً عليه وهذا كما ان من اتقى الله جعل له من أمره يسراً فمن عطل التقوى جعل الله له من أمره عسراً وبالله العجب كيف يجد العبد أبواب الخير والمصالح مسدودة عنه متعسرة عليه وهو لا يعلم من أين أتى ومنها ظلمته يجدها في قلبه حقيقة يحس بها كما يحس بظلمة الليل البهيم إذا ادلمهم فتصير ظلمة المعصية لقلبه كالظلمة الحسية لبصره فان الطاعة نور والمعصية ظلمة وكما قويت الظلمة ازدادت حيرته حتى يقع في البدع والضلالات والامور المهلكة وهو لا يشعر كاعشى أخرج في ظلمة الليل يمشي وحده وتقوى هذه الظلمة حتى تظهر في العين ثم تقوى حتى تعلو الوجه وتصير سواداً في الوجه حتى يراه كل أحد قال عبد الله بن عباس ان للحسنة ضياء في الوجه ونوراً في القلب وسعة في الرزق وقوة في البدن ومحبة في قلوب الخلق وإن للسيئة سواداً في الوجه وظلمة في القبر والقلب ووهناً في البدن ونقصاً في الرزق وبغضة في قلوب الخلق ومنها ان المعاصي توهن القلب والبدن أما وهنها للقلب فامر ظاهر بل لا يزال توهنه حتى تزيل حياته بالكلية وأما وهنها للبدن فان المؤمن قوته من قلبه وكما قوى قلبه قوى بدنه وأما الفاجر فانه وإن كان قوى البدن فهو أضعف شئ عند الحاجة فتحزنه قوته عند أحوج ما يكون إلى نفسه فتأمل قوة

أبدان فارس والروم كيف حالهم عند خروج ما كانوا إليها وقهرهم أهل الإيمان بقوا بدينهم وقلوبهم ومنها حرمان الطاعة فلو لم يكن لآداب عقوبة إلا إنه يصد عن طاعة تكون بدله ويقطع طريق طاعة أخرى فينقطع على طريق ثلاثة أشهر أربعة وهم جبراً فينقطع عايد بالذنب طاعات كثيرة كل واحدة منها خير له من الدنيا وما عليها وهذا كرجل أكل أكله أوجبت له مرضة طويلة منته من عدة كالات أطيب به الله المستعان به أن المعاصي تنقص العمر وتحق بركته ولا بد فإن الله كازيد في العمر فالعمر ينقص وقد اختلف الناس في هذا الموضع فقالت طائفة نقصان عمر المعاصي هو ذهاب بركة عمره ومخلفها عليه وهذا حق وهو بعض تأثير المعاصي وقالت طائفة بل تزداد حقيقة كما ينقص الرزق فجعل الله سبحانه البركة في الرزق أسبابا كثيرة تكثره وتزيد وللبركة في العمر أسبابا تكثره وتزيد قالوا ولا تمنع زيادة العمر بأسباب كما ينقص بأسباب فالرزاق والاحال والسعادة والشقاوة والصحة والمرض والغنى والفقر وإن كانت بقضاء الله عز وجل فهو يقضي ما يشاء بأسباب جعلها موجهة لمسبباتها مقتضية لها وقالت طائفة أخرى تأثير المعاصي في حق العمر إنما هو بأن تقوته حقيقة الحياة وهي حياة القلب ولهذا جعل الله سبحانه الكافر ميتاً غير حي كما قال تعالى أموات غير أحياء فالحيوة في الحقيقة حيوة القلب وعمر الإنسان مدة حياته فليس عمره إلا أوقات حياته بالله فتلك ساعات عمره فالبر والتقوى والطاعة تزيد في هذه الاوقات التي هي حقيقة عمره ولا عمر له سواها وبالجملة فالعبد إذا أقرض من الله واشتغل بالمعاصي ضاعت عليه أيام حياته الحقيقية التي يجد غيب إضاعتها يوم يقول يا ليتني قدمت لحياتي فلا يخلوا إيماناً يكون له مع ذلك تطلع الى مصالحه الدنيوية والأخروية أو لا فإن لم يكن له تطلع الى ذلك فقد ضاع عليه عمره كله وذهبت حياته باطلاً وإن كان له تطلع الى ذلك طالت عليه الطريق بسبب العوائق وتعمرت عليه أسباب الخير بحسب اشتغاله بأضدادها وذلك نقصان حقيقي من عمره وسر المسألة أن عمر الإنسان مدة حياته ولا حيوة له إلا بقوله على ربه والتنعيم بحبه وذكره وإيثار مرضاته

فصل في

ومنها أن المعاصي تزرع أمثالها وتولد بعضها بعضاً حتى يعجز على العبد مفارقتها والخروج منها كما قال بعض السلف أن من عقوبة السيئة السيئة بعدها وأن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها فالعبد إذا عمل حسنة قالت أخرى الى جنبها أعساني أيضاً فإذا عملها قالت الثانية كذلك وهم جراً فيتضاعف الرنج وتزايدت الحسنات وكذلك كانت السيئات أيضاً حتى تصير الطاعات والمعاصي هيئات راسخة وصفات لازمة وملكات ثابتة فلو عطل المحسن الطاعة

لضاق عليه نفسه وضاق عليه الأرض بما رحبت وأحس من نفسه بأنه كاخوت إذا فارق الماء حتى يعاودها فتسكن نفسه وتقر عينه ولو عطل الجرم المعصية وأقبل على الطاعة لضاق عليه نفسه وضاق صدره وأعت عليه مذاهبه حتى يعاودها حتى أن كثيراً من الفساق ليواقع المعصية من غير نية يجدها ولا داعية اليها إلا لما يجد من الالم بمفارقة كما صرح بذلك شيخ القوم الحسن بن مهدي حيث يقول

وكأن شربت على لذة * وأخرى تدلوت منها بها

وقال الآخر

وكانت دوائى وهي دائي بعينه * كيتداوى شارب الخمر بالخمير
ولا يزال العبد يعاني الطاعة ويألفها ويحبها ويؤثرها حتى يرسل الله سبحانه برحمته عليه الملائكة تآزره اليها أزا وتخرضه عليها وترعجه عن فراشه ومجلسه اليها ولا يزال يألف المعاصي ويحبها ويؤثرها حتى يرسل الله اليه الشياطين فتآزره اليها أزا فالاول قوي جند الطاعة بالمدد فكانوا أكثر من أعوانه وهذا قوي جند المعصية بالمدد فكانوا أعوانا عليه

﴿ فصل ﴾

ومنها وهو من أخوفها على العبد أنها تضعف القلب عن إرادته فتقوى إرادة المعصية وتضعف إرادة التوبة شيئاً فشيئاً إلى أن تسلب من قلبه إرادة التوبة بالكلية فلو مات نصفه لما تاب إلى الله فيأتي بالاستغفار وتوبة الكذابين باللسان شيء كثير وقلبه معقود بالمعصية مصر عليها عازم على موافقتها متى أمكنه وهذا من أعظم الأمراض وأقربها إلى الهلاك

﴿ فصل ﴾

ومنها أنه ينسأخ من القلب إستقباحها فتصير له عادة فلا يستقبح من نفسه رؤية الناس له ولا كلامهم فيه وهو عند أرباب الفسوق هو غاية التفكك وتنام المذلة حتى يفتخر أحدهم بالمعصية ويحدث بها من لم يعلم أنه عمالها فيقول يا فلان عمات كذا وكذا وهذا الضرب من الناس لا يعافون وتسدد عليهم طريق التوبة وتغلق عنهم أبوابها في الغالب كما قال النبي صلى الله عليه وسلم كل أمي معاف إلا المخاهرين وإن من الأجهار أن يستر الله على العبد ثم يصبح يفضح نفسه ويقول يا فلان عمات يوم كذا وكذا كذا وكذا فتهتك نفسه وقد بات يستره ربه ومنها أن كل معصية من المعاصي فهي ميراث عن أمة من الأمم التي أهلكتها الله عز وجل فاللوطية ميراث عن قوم لوط وأخذ الحق بالزائد ودفعه بالناقص ميراث عن قوم شعيب والعلو في الأرض والفساد ميراث عن فرعون وقوم فرعون والتكبر والتجبر ميراث

عن قوم هود فالعاصي لأبس ثياب بعض هذه الامم وهم أعداء الله وقد روى عبد الله بن أحمد في كتاب الزهد لآبيه عن مالك بن دينار قال أوحى الله الى نبي من أنبياء بني إسرائيل أن قل لقومك لا تدخلوا مداخل أعدائي ولا تلبسوا ملابس أعدائي ولا تركبوا مراكب أعدائي ولا تطعموا مطاعم أعدائي فتكونوا أعدائي كما هم أعدائي وفي مسند أحمد من حديث عبد الله بن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قل بعثت بالسيوف بين يدي الساعة حتى يعبد الله وحده لا شريك له وجعل رزقي تحت ظل رمحي وجعل الذلة والصغار على من خالف أمري ومن تشبه بقوم فهو منهم

❦❦❦ فصل ❦❦❦

ومنها أن المعصية سبب لهوان العبد على ربه وسقوطه من عينه قال الحسن البصري هانوا عليه فعصوه ولو عزوا عليه أمصهم وإذا هان العبد على الله لم يكرمه أحد كما قال الله تعالى ومن يهن الله فإنه من مكرم وإن عظمهم الناس في الظاهر لحاجتهم اليهم أو خوفا من شرهم فهم في قلوبهم أحقر شيء وأهونه ومنها أن العبد لا يزال يرتكب الذنوب حتى يهون عليه ويصغر في قلبه وذلك علامة الهلاك فإن الذنب كلما صغر في عين العبد عظم عند الله وقد ذكر البخاري في صحيحه عن ابن مسعود قال إن المؤمن يرى ذنوبه كأنها في أصل جبل يخاف أن يقع عليه وأن الفاجر يرى ذنوبه كذباب وقع على أنفه فقال به هكذا فطار

❦❦❦ فصل ❦❦❦

ومنها أن غيره من الناس والدواب يعود عليه شؤم ذنبه فيحترق هو وغيره بشؤم الذنوب والظلم قال أبو هريرة إن الحباري لتموت في وكرها من ظلم الظالم وقال مجاهد إن الهائم تلعن عصاة بني آدم إذا أشتدت السنة وأمسك المطر وتقول هذا بشؤم معصية ابن آدم وقال عكرمة دواب الأرض وهوامها حتى الخنافس والمقارب يقولون منعنا القطر بذنوب بني آدم فلا يكفيه عقاب ذنبه حتى يبوء يلغنه من لاذن له

❦❦❦ فصل ❦❦❦

ومنها أن المعصية تورث الذل ولا بد فإن العز كل العز في طاعة الله تعالى قال تعالى من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً أي فليطأها بطاعة الله فإنه لا يجدها إلا في طاعته وكان من دعاء بعض السلف اللهم أعزني بطاعتك ولا تذلني بمعصيتك قال الحسن البصري أنهم وإن ضففت بهم البغال وهملجت بهم البراذين إن ذل المعصية لا تفارق قلوبهم أبى الله

الآن أيدل من عصاه وقال عبد الله بن المبارك

رأيت الذنوب تيمت القلوب * بوقد يورث الذل إمام
وترك الذنوب حياة القلوب * بوخير لنفسك عصيانها
وهل أفسد الدين إلا الملو * لكواخبار سوء ورهبانها

❦ فصل ❦

ومنها إن المعاصي تفسد العقل فإن لمقل نوراً والمعصية تظفي نور العقل ولا بدوا إذا
ظفي نوره ضعف ونقص وقال بعض السلف ما عصي الله أحد حتى يغيب عقله وهذا ظاهر
فانه لو حضره عقله لحجزه عن المعصية وهو في قبضة الرب تدلى أو تحت قهره وهو مطلع
عليه وفي داره على بساطه وملائكته شهود عليه ناظرون اليه وواعظ القرآن ينهاه وواعظ
الايان ينهاه وواعظ الموت ينهاه وواعظ النار ينهاه والذي يفوته بالمعصية من خير الدنيا
والآخرة أضعاف أضعاف ما يحصل له من السرور واللذة بها فهل يقدم على الاستهانة بذلك
كله والاستخفاف به ذو عقل سليم

❦ فصل ❦

ومنها أن الذنوب إذا تكاثرت طبع على قلب صاحبها فكان من الغافلين كما قال بعض
السلف في قوله تعالى كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون قال هو الذنب بعد الذنب
وقال الحسن هو الذنب على الذنب حتى يعمي القلب وقال غيره لما كثرت ذنوبهم
ومعاصيهم أحاطت بقلوبهم وأصل هذا أن القلب يصدي من المعصية فإذا زادت غلب
الصدي حتى يصير راناً ثم يغلب حتى يصير طبعاً أو قفلاً وخمياً فيصير القلب في غشاوة وغلاف
فإذا حصل له ذلك بعد الهدى والبصيرة انعكس فصار أعلاه أسفله فحينئذ يتولاه عدوه
ويسوقه حيث أراد

❦ فصل ❦

ومنها أن الذنوب تدخل البعد تحت لعنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فانه لعن على
معاصي والتي غيرها أكبر منها فهي أولى بدخول فاعلمها تحت اللعنة فاعلم الواشمة والمستوشمة
والواصلة والموصولة والنامصة والمنمصة والوائنة والمستوشرة ولعن آكل الربا ومؤكله
وكاتبه وشاهده ولعن المحال والمحال له ولعن السارق ولعن شارب الخمر وساقها وعاصرها
ومعتصرها وبائعها ومشتريها وآكل ثمنها وحاملها والحمولة اليه ولعن من غير منار الأرض

وهي إعلالها وحدودها ولعن من لعن والديه ولعن من اتخذ شيئاً فيه الروح غرضاً يرميه بهم ولعن الخنثيين من الرجال والمترجلات من النساء ولعن من ذبح يغير الله ولعن من أحدث حدثاً أو آوى محدثاً ولعن المصورين ولعن من عمل عمل قوم لوط ولعن من سب أباه وأمه ولعن من كره أعمى عن الطريق ولعن من أتى بهيمة ولعن من رسم دابة في وجهها ولعن من ضار مسلم أو كرهه ولعن زوارات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج ولعن من أفسد امرأة على زوجها أو مملوكاً على سيده ولعن من أتى امرأة في دبرها وأخبر أن من باتت مهاجرة لفراس زوجها لعنتها الملائكة حتى تصبح ولعن من انتسب إلى غير أبيه وأخبر أن من أشار إلى أخيه بحديدة فإن الملائكة تلعنه ولعن من سب الصحابة وقد لعن الله من أفسد في الأرض وقطع رحمه وأذاد أذى رسوله ولعن من كتم ما أزل الله سبحانه من اليناث والهدى ولعن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات بالفاحشة ولعن من جعل سبيل الكافر أهدي من سبيل المسلم ولعن رسول الله صلى الله عليه وسلم الرجل يلبس البسة المرأة والمرأة تلبس البسة الرجل ولعن الراشي والمراتشي وهو الواسطة في الرشوة ولعن على أشياء أخر غير هذه فلم لم يكن في فعل ذلك إلا رضاء فاعله بأن يكون ممن يلغنه الله ورسوله وملائكته لكان في ذلك ما يدعو إلى تركه

﴿ فصل ﴾

ومنها حرمان دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعوة الملائكة فإن الله سبحانه أمر نبيه أن يستغفر للمؤمنين والمؤمنات وقال تعالى الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً فأغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صالح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم وقهم السيئات فهذا دعاء الملائكة للمؤمنين التائبين لكتبته وسنة رسوله الذين لا سبيل لهم غيرهما فلا يظلم غير هؤلاء بإجابة هذه الدعوة إذا لم يتصف بصفات المدعولة بها

﴿ فصل ﴾

ومن عقوبات المعاصي ما رواه البخاري في صحيحه من حديث سمرة بن جندب قال كان النبي صلى الله عليه وسلم مما يكثر أن يقول لأصحابه هل رأي أحد منكم البارحة رؤياً فيقص عليه ما شاء الله أن يقص وأنه قال لتأذات غداة أنه أتاني الليلة آتيان وأنهما أتبعنا في

وأنهما قالوا لي إنطلق وإني إنطلقت معهما وإنا أتينا على رجل مضطجع وإذا آخر قائم عليه بصخرة وإذا هو يهوي بالصخرة لرأسه فيثلع رأسه فيتدهده الحجر هاهنا فيتبع الحجر فيأخذه فلا يرجع إليه حتى يصح رأسه كما كان ثم يعود عليه فيفعل به مثل ما فعل في المرة الأولى قال قلت لهما سبحان الله ما هذان قالوا لي إنطلق إنطلق فانطلقنا فأتينا على رجل مستلق لقفاه وإذا آخر قائم عليه بكلوب من حديد وإذا هو يأتي أحد شقي وجهه فيشرش رشفه إلى قفاه ومنخره إلى قفاه وعينه إلى قفاه ثم يحول إلى الجانب الآخر فيفعل به مثل ما فعل بالجانب الأول فما يفرغ من ذلك الجانب حتى يصح ذلك الجانب كما كان ثم يعود عليه فيفعل مثل ما فعل في المرة الأولى قال قلت سبحان الله ما هذان فقالا لي إنطلق إنطلق فانطلقنا فأتينا على مثل التنور وإذا فيه لقط وأصوات قال فاطلنا فيه فإذا فيه رجال ونساء عراة وإذا هم يأتهم لهب من أسفل منهم فإذا أنا هم ذلك اللهب وضوضوا فقال قلت من هؤلاء قال فقالا لي إنطلق إنطلق فانطلقنا فأتينا على نهر أحمر مثل الدم فإذا في النهر رجل سابح يسبح وإذا على شط النهر رجل قد جمع عنده حجارة كثيرة وإذا ذلك السابح يسبح ما يسبح ثم يأتي ذلك الذي قد جمع عنده الحجارة فيفغر له فاه فيلقمه حجراً فينطلق فيسبح ثم يرجع إليه كما يرجع إليه فيفغر له فاه فالقمة حجراً قالت لهما ما هذان قالوا لي إنطلق إنطلق فانطلقنا فأتينا على رجل كره المرأى كما كره مائت رأى رجلاً مرأاً وإذا هو عنده نار يحثها ويسمى حولها قال قلت لهما ما هذا قال قالوا لي إنطلق إنطلق فانطلقنا على روضة مغيمة فيها من كل نور الربيع وإذا بين ظهرائي الروضة رجل طويل لأ أكاد أرى رأسه طويلاً في السماء وإذا حول الرجل من أكثر ولدان رأيتهم قط قال قلت ما هذا وما هؤلاء قال قالوا لي إنطلق إنطلق فانطلقنا فأتينا إلى دوحة عظيمة لم أرى دوحة قط أعظم منها ولا أحسن قال قالوا لي أرق فيها فارتقينا فيها إلى مدينة مبنية بلبن ذهب وابن فضة قال فأتينا باب المدينة فاستفتحنا ففتح لنا فدخلناهما فلقانا رجلاً شطر من خلقهم كالحسن مائت رأي وشطر منهم كاقبح مائت رأي قال قالوا لهم اذهبوا فقعوا في ذلك النهر قال وإذا نهر معترض يجري كان ماءه المحض في البياض فذهبوا فوقعوا فيه ثم رجعوا إلينا وقد ذهب ذلك السوء عنهم قال قالوا لي هذه جنة عدن وهذا منزل قال فسمي بصري صعدا فإذا قصر مثل الربابة البيضاء قال قالوا لي هذا منزل قال قلت لهما بارك الله فيكما فذراني فادخله قالوا أما الآن فلا وأنت داخله قال قلت لهما فاني رأيت منذ الليلة عجباً فما هذا الذي رأيت قال قالوا لي أما أنا سنخبرك أما الرجل الأول الذي أتيت عليه يشلع رأسه بالحجر فانه الرجل يأخذ القرآن فيرفضه وينام عن الصلوة المكتوبة وأما الرجل الذي

أتيت عليه يشرشر شذقه الى قفاه ومنخره الى قفاه وعينه الى قفاه فانه الرجل يغدو من بيته فيكذب الكذبة تبلغ الآفاق وأما الرجال والنساء العبرة الذين هم في مثل بناء انتور فانهم الزناة والزواني وأما الرجل الذي أتيت عليه يسبح في النهر ويلقم الحجارة فانه آكل الربا وأما الرجل الكريه المنظر الذي عند النار يحثها ويسعى حولها فانه مالك خزن جهنم وأما الرجل الطويل الذي في الروضة فانه ابراهيم وأما الولدان الذين حوله فكل مولود مات على الفطرة وفي رواية البرقاني ولد على الفطرة فقال بعض المسلمين يارسول الله وأولاد المشركين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وأولاد المشركين وأما القوم الذين كانوا يشطرونهم حسن وشر منهم قبيح فانهم قوم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً تجاوز الله عنهم

❦❦❦ فصل ❦❦❦

ومن آثار الذنوب والمعاصي إنها تحدث في الارض أنواعاً من الفساد في المياه والهوى والزرع والثمار والمساكن قال تعالى ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون قال مجاهد اذا ولي الظالم سعي بالظلم والفساد فيحبس بذلك القطر فيهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد ثم قرأ ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون ثم قال أما والله ما هو بحرمكم هذا ولكن كل قرية على ماء جار فهو بحر وقال عكرمة ظهر الفساد في البر والبحر أما إني لأقول لكم بحرمكم هذا ولكن كل قرية على ماء وقال قتادة أما البر فاهل الدمود وأما البحر فاهل القرى والريف قلت وقد سمي الله تعالى الماء المذب ببحراً فقال هو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج وليس في العالم بحر حلو واقفاً وإنما هي الانهار الجارية والبحر المالح هو الساكن فتسمى القرى التي على المياه الجارية باسم تلك المياه وقال ابن زيد ظهر الفساد في البر والبحر قال الذنوب قلت أراد أن الذنب سبب الفساد الذي ظهر وإن أراد أن الفساد الذي ظهر هو الذنوب نفسها فيكون قوله ليذيقهم بعض الذي عملوا لام العاقبة والتعليل وعلى الاول فالمراد بالفساد والنقص والشر والآلام التي يحدثها الله في الارض بمعاصي العباد فكل ما أحدثوا ذنباً أحدث لهم عقوبة كما قال بعض الساف كل ما أحدثتم ذنباً أحدث الله لكم من سلطانه عقوبة والظاهر والله أعلم إن الفساد المراد به الذنوب وموجباتها ويدل عليه قوله تعالى ليذيقهم بعض الذي عملوا فهذا حائنا وإنما إذاقنا الشيء اليسير من أعمالنا فلو أذاقنا كل أعمالنا

لما ترك على ظهرها من دابة ومن تأثير معاصي الله في الارض ما يحل بها من الخسف والزلازل ويعجق بركتها وقد مر رسول الله صلى الله عليه وسلم على ديار تمود فنتهم من دخول ديارهم الا وهم باكون ومن شرب مياههم ومن الاستسقاء من ابيارهم حتى أمر أن لا يعلف العجين الذي عجن بمياههم لتواضح الابل لتأثير شؤم المعصية في الماء وكذلك شؤم تأثير الذنوب في نقص الثمار وما ترى به من الآفات وقد ذكر الامام أحمد في مسنده في ضمن حديث قال وجدت في خزائن بعض بني أمية حنطة الحبة بقدر نواة التمرة وهي في صرة مكتوب عليها كان هذا يثبت في زمن العدل وكثير من هذه الآفات أحدثها الله سبحانه وتعالى بما أحدث العباد من الذنوب وأخبرني جماعة من شيوخ الصحراء أنهم كانوا يهدون الثمار أكبر مما هي الآن وكثير من هذه الآفات التي تصيبها لم يكونوا يعرفونها وإنما حدثت من قرب وأما تأثير الذنوب في الصور والخلق فقد روى الترمذي في جامعه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال خلق الله آدم وطوله في السماء ستون ذراعاً ولم يزل الخلق ينقص حتى الآن فإذا أراد الله أن يظهر الارض من الظلمة والخنوة والفجرة ويخرج عبداً من عباده من أهل بيت نبيه صلى الله عليه وسلم فيملاً الارض قسطاً كما ملئت جوراً ويقتل المسيح اليهود وانصارى ويقيم الدين الذي بعث الله به رسوله ويخرج الارض بركتها وتعود كما كانت حتى ان العصابة من الناس لا يكون الرمانة ويستظلون بقحفها ويكون العنقود من العنب وقر بعير وابن اللقحة الواحدة يكفي الفئام من الناس وهذا لان الارض لما ظهرت من المعاصي ظهرت فيها آثار البركة من الله تعالى التي محقتها الذنوب والكفر ولا ريب ان العقوبات التي أنزلها الله في الارض بقية آثارها سارية في الارض تطلب ما يشاء كلها من الذنوب التي هي آثار تلك الجرائم التي عذبت بها الامم فهذه الآثار في الارض من آثار العقوبات كما ان هذه المعاصي من آثار الجرائم فتناسبت كلمة الله وحكمة الكوني أولاً وآخراً وكان العظيم من العقوبة للعظيم من الجنابة والأخف للأخف وهذا يحكم سبحانه بين خلقه في دار البرزخ ودار الجزاء وتأمل مقارنة الشيطان ومحل وداره فانه لما قارن العبد واستولى عليه نزعت البركة من عمره وعمله وقوله ورزقه ولما أثرت طاعته في الارض ما أثرت نزعت البركة من كل محل ظهرت فيه طاعته وكذلك مسكنه لما كان الجحيم لم يكن هناك شيء من الروح والرحمة والبركة

— ❦ فصل ❦ —

ومن عقوباتها انها تغطي من القلب نار الغيرة التي هي حياته وصلاجه كالطرازة الغريزية

حياة جميع البدن فان الغيرة حرارته وناره التي تخرج مافيه من الخبث والصفات المذمومة كما يخرج الكبر خبث الذهب والفضة والحديد وأشرف الناس وأعلامهم قدراً وهمة أشدهم غيرة على نفسه وخاصته وعموم الناس ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم أغير الخلق على الامة والله سبحانه أشد غيرة منه كما ثبت في الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم انه قال أتعجبون من غيرة سعد لأننا أغير منه والله أغير مني وفي الصحيح أيضاً عنه انه قال صلى الله عليه وسلم في خطبة الكسوف يأمة محمد ما أحد أغير من الله إن يزني عبده أو تزني أمته وفي الصحيح أيضاً عنه انه قال لأحد أغير من الله من أجل ذلك حرم الفواحش ماظهر منها وما بطن ولا أحد أحب اليه العذر من الله من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين ولا أحد أحب اليه المدح من الله من أجل ذلك أثنى على نفسه فجمع في هذا الحديث بين الغيرة التي أصابها كراهة القباح وبغضها وبين محبة العذر الذي يوجب كمال العدل والرحمة والاحسان والله سبحانه مع شدة غيرته يحب إن يعتذر اليه عبده ويقبل عذر من اعتذر اليه وانه لا يؤاخذ عبده بارتكاب ما يغار من ارتكابه حتى يعتذر اليهم ولأجل ذلك أرسل رساله وأنزل كتبه إعذاراً وإنذاراً وهذا غاية المجد والاحسان ونهاية الكمال فان كثيراً ممن تشدد غيرته من المخلوقين تحمله شدة الغيرة على سرعة الايقاع والعقوبة من غير إعذار منه ومن غير قبول العذر ممن يعتذر اليه بل قد يكون له في نفس الامر عذر ولا تدعه شدة الغيرة ان يقبل عذره وكثير ممن تقبل المعاذير يحمله على قبولها قلة الغيرة حتى يتوسع في طرق المعاذير ويرى عذراً ما ليس بعذر حتى يعتذر كثير منهم بالعذر وكل منهما غير ممدوح على الاطلاق وقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ان من الغيرة ما يحبها الله ومنها ما يبغضها الله فالتى يبغضها الله الغيرة من غير ريبة وذكر الحديث وانما الممدوح اقتران الغيرة بالعذر فإغاري في محل الغيرة ويعتذر في موضع العذر ومن كان هكذا فهو الممدوح حقاً ولما جمع سبحانه صفات الكمال كلها كان أحق بالمدح من كل أحد ولا يبلغ أحد إن يمدحه كما ينبغي له بل هو كما مدح نفسه وأثنى على نفسه فالغيور قد وافق ربه سبحانه في صفة من صفاته ومن وافق الله في صفة من صفاته قاده تلك الصفة اليه بزماله وأدخلته على ربه وأدنته منه وقربته من رحمته وصيرته محبوباً له فانه سبحانه رحيم يحب الرحماء كريم يحب الكرماء عليم يحب العلماء قوى يحب المؤمن القوي وهو أحب اليه من المؤمن الضعيف حتى يحب أهل الحياء جميل يحب أهل الجمال وتر يحب أهل الوتر ولو لم يكن في الذنوب والمعاصي الا انها توجب لصاحبها ضد هذه الصفات وتمنعه من الانصاف بها لكفي بها عقوبة فان الخطرة تغلب وسوسة

والوسوسة تصير إرادة والارادة تقوي فتصير عزيزة ثم تصير فعلا ثم تصير صفة لازمة وهيئة ثابتة راسخة وحينئذ يتعذر الخروج منهما كما يتعذر عليه الخروج من صفاته القائمة به والمقصود انه كلما اشتدت ملابسته للذنوب أخرجت من قلبه الغيرة على نفسه وأهله وعموم الناس وقد تضعف في القلب جداً لا يستقبح بعد ذلك القبيح لامن نفسه ولا من غيره وإذا وصل الى هذا الحد فقد دخل في باب الهلاك وكثير من هؤلاء لا يقتصر على عدم الاستقباح بل يحسن الفواحش والظلم لغيره ويزينه له ويدعوه اليه ويحثه عليه ويسمي له في تحصيله ولهذا كان الديوث أحب خلق الله والجنة عليه حرام وكذلك محلل الظلم والبني لغيره ومزينه لغيره فانظر ما الذي حملت عليه قلة الغيرة وهذا يدل على ان أصل الدين الغيرة ومن لا غيرة له لا دين له فالغيرة تحمي القلب فتحمي له الجوارح فتدفع السوء والفواحش وعدم الغيرة تميم القلب فتموت الجوارح فلا يبقى عندها دفع البتة ومثل الغيرة في القلب مثل القوة التي تدفع المرض وتقاومه فإذا ذهبت القوة وجد الداء المحل قابلاً ولم يجد دافعاً فتمكن فكان الهلاك ومثلها مثل صياصي الجاموس التي تدفع بها عن نفسه وعن ولده فإذا تكسرت طمع فيها عدوه

❦ فصل ❦

ومن عقوباتها ذهاب الحياء الذي هو مادة الحياة للقلب وهو أصل كل خير وذهابه ذهاب كل خير بأجمعه وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم انه قال الحياء خير كله وقال انما أدرك الناس من كلام النبوة الاولى اذا لم تستح فاصنع ما شئت وفيه تفسير ان أحدها انه على التهديد والوعيد والمعني من لم يستح فانه يصنع ما شاء من القبائح اذا الحامل على تركها الحياء فاذا لم يكن هناك حياء نزعته عن القبائح فانه يواقمها وهذا تفسير أبي عبيدة والثاني ان الفعل اذا لم تستح فيه من الله فافعله وانما الذي ينبغي تركه ما يستحي فيه من الله وهذا تفسير الامام أحمد في رواية ابن هاني فعلى الاول يكون تهديداً كقوله إعملوا ما شئتم وعلى الثاني يكون إذناً وإباحة فان قيل فهل من سبيل الى حماه على المعنيين قلت لا ولا على قول من يحمل المشترك على جميع معانيه لما بين الاباحة والتهديد من المنافات ولكن اعتبار أحد المعنيين يوجب إعتبار الآخر والمقصود ان الذنوب تضعف الحياء من العبد حتى ربما انسلخ منه بالكلية حتى ربما انه لا يتأثر بعلم الناس بسوء حاله ولا باطلاعهم عليه بل كثير منهم يخبر عن حاله وقبح ما يفعله والحامل على ذلك انسلخه من الحياء وإذا وصل العبد الى هذه الحالة لم يبق في صلاحه مطمع وإذا رأى ابليس طلعة وجهه

حياة وقال فديت من لايفاج والحياة مشتق من الحياة والغيث يسمى حيا بالقصر لان به حياة الارض والنبات والدواب وكذلك سميت بالحياة حياة الدنيا والآخرة فمن لاحياء فيه ميت في الدنيا شقى في الآخرة وبين الذنوب وبين قلة الحياء وعدم الغيرة فلازم من الطرفين وكل منهما يستدعي الآخر ويطلبه حيثان ومن استحيى من الله عند معصيته استحيى الله من عقوبته يوم يلقاه ومن لم يستح من الله تعالى من معصيته لم يستح الله من عقوبته

❦❦❦ فصل ❦❦❦

ومن عقوباتها أنها تضعف في القاب تعظيم الرب جل جلاله وتضعف وقاره في قاب العبد ولا بد شاء أم أبي ولو تمكن وقار الله وعظمته في قاب العبد لما تجرأ على معاصيه وربما اغتر المغتر وقال إنما يحملني على المعاصي حسن الرجاء وطمعي في عفو لا تضعف عظمته في قلبي وهذا من مغالطة النفس فان عظمة الله تعالى وجلاله في قاب العبد وتعظيم حرمانه يحول بينه وبين الذنوب والمتجرئون على معاصيه ماقدروه حق قدره وكيف يقدره حق قدره أو يعظمه أو يكبره أو يرجو وقاره ويحمله من يهون عليه أمره ونهيه هذا من أمحل المحال وأبين الباطل وكفى بالمعاصي عقوبة أن يضمحل من قابيه تعظيم الله جل جلاله وتعظيم حرمانه ويهون عليه حقه ومن بعض عقوبة هذا أن يرفع الله عز وجل مهابته من قلوب الخلق ويهون عليهم ويستخفون به كما هان عليه أمره واستخف به فعلى قدر محبة العبد لله يحبه الناس وعلى قدر خوفه من الله يخافه الناس وعلى قدر تعظيمه الله وحرمانه يعظم الناس حرمانه وكيف ينتهك عبد حرمان الله ويطمع أن لا ينتهك الناس حرمانه أم كيف يهون عليه حق الله ولا يهونه الله على الناس أم كيف يستخف بمعاصي الله ولا يستخف به الخلق وقد أشار سبحانه إلى هذا في كتابه عند ذكر عقوبات الذنوب وأنه أركس أربابها بما كسبوا وغطى على قلوبهم وطبع عليها بذنوبهم وأنه نسيتهم كأنسوتهم وأهانهم كما أهانوا دينه وضيعهم كما ضيعوا أمره ولهذا قال تعالى في آية سجود المخلوقات له ومن يهن الله فما له من مكرم فأنهم المهان عليهم السجود له واستخفوا به ولم يفعلوه أماتهم فلم يكن لهم من مكرم بعد إن أماتهم ومن ذا يكرم من أهانه الله أو يهن من أكرم

❦❦❦ فصل ❦❦❦

ومن عقوباتها أنها تستدعي نسيان الله لعبده وتركه وتخليته بينه وبين نفسه وشيطانه وهناك الهلاك الذي لا يرجي معه نجاة قال الله يأيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس

ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون فامر بتقواه ونهي أن يشبه عباده المؤمنون بمن نسيه بترك تقواه واخبر أنه عاقب من ترك التقوي بأن أنساه نفسه أي أنساه مصالحها وما يجيها من عذابه وما يوجب له الحياة الأبدية وكل لذتها وسرورها ونعيمها فأنساه الله ذلك كله جزاء لما نسيه من عظمته وخوفه والقيام بأمره فترك المعاصي مهما لمصالح نفسه مضياً لها قد أغفل الله قلبه عن ذكره واتبع هواه وكان أمره فرطاً قد افترطت عليه مصالح دنياء وآخرته وقد فرط في سعادته الأبدية واستبدل بها أدنى ما يكون من لذة إتمامه سبحانه صيف أو خيال طيف أحلام نوم أو كظلم زائل * إن التلييب بمثال لا ينجح

وأعظم العقوبات نسيان العبد لنفسه وإهماله لها وإضاعته حظها ونصيبها من الله وبمعها ذلك بالغين والهوان وأنجس الثمن فضيع من لاغني له عنه ولا عوض له منه واستبدل به من عنه كل الغني أو منه كل العوض

من كل شيء إذا ضيعته عوض * وليس في الله أن ضيعت من عوض فالله سبحانه يعوض عن كل شيء ما سواه ولا يعوض منه شيء ويغني عن كل شيء ولا يغني عنه شيء ويمنع من كل شيء ولا يمنع منه شيء ويحير من كل شيء ولا يحير منه شيء كيف يستغني العبد عن طاعة من هذا شأنه طرفه عين وكيف يندى ذكره ويضيع أمره حتى ينسيه نفسه فيخسرها ويظلمها أعظم الظلم فما ظلم العبد ربه ولكن ظلم نفسه وما ظلمه ربه ولكن هو الذي ظلم نفسه

— فصل —

ومن عقوباتها أنها تخرج العبد من دائرة الاحسان وتمنعه من ثواب المحسنين فإن الاحسان إذا باشر القلب منعه عن المعاصي فإن من عبد الله كأنه يراه لم يكن كذلك الاستيلاء ذكره ومحبه وخوفه ورجائه على قلبه بحيث يصير كأنه يشاهده وذلك سيحول بينه وبين إرادة المعاصي فضلاً عن موافقتها فإذا خرج من دائرة الاحسان فإنه صحبة رفقة الخاصة وعيشهم الهنيء ونعيمهم التام فإن أراد الله به خيراً أقبره في دائرة عموم المؤمنين فإن عصاه بالمعاصي التي تخرجه من دائرة الايمان كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربه وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا يتهب نهبه ذات شرف يرفع اليه الناس فيها أبصارهم حين يذهبها وهو مؤمن بأيامكم أي أيامكم والتوبة معروضة بعد

❦ فصل ❦

ومن فاته رفقة المؤمنين وخرج عن دائرة الايمان فاته حسن دفاع الله عن المؤمنين فان الله يدافع عن الذين آمنوا وفاته كل خير رتبته الله في كتابه على الايمان وهو نحو مائة خصلة كل خصلة منها خير من الدنيا وما فيها فمنها الاجر العظيم وسوف يؤتي الله المؤمنين أجراً عظيماً ومنها الدفع عنهم شرور الدنيا والآخرة إن الله يدافع عن الذين آمنوا ومنها استغفار حملة العرش لهم الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ومنها موالات الله لهم ولا يذل من والاه الله قال الله تعالى الله ولي الذين آمنوا ومنها أمره ملائكته بتبئيتهم إذ يوحي ربك الى الملائكة إني معكم فثبتوا الذين آمنوا ومنها إن لهم الدرجات عند ربهم والمغفرة والرزق الكريم ومنها العزة والله العزة والرسولة وللمؤمنين ومنها معية الله لأهل الايمان وإن الله مع المؤمنين ومنها الرفعة في الدنيا والآخرة يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ومنها أعطاهم كفلين من رحمته وأعطاهم نوراً يمشون به ومغفرة ذنوبهم ومنها اللود الذي يجعله سبحانه لهم وهو انه يحبهم ويحبهم الى ملائكته وأنبيائه وعباده الصالحين ومنها أمانهم من الخوف يوم يشتد الخوف فمن آمن وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ومنها انهم المنعم عليهم الذين أمرنا ان نسأله ان يهدينا الى صراطهم في كل يوم وليلة سبع عشرة مرة ومنها ان القرآن انما هو هدى لهم وشفاء قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد والمقصود ان الايمان سبب جالب لكل خير وكل خير في الدنيا والآخرة فسيبه الايمان فكيف يهون على العبد ان يرتكب شيئاً يخرج به من دائرة الايمان ويحول بينه وبينه ولكن لا يخرج من دائرة عموم المسلمين فان استمر على الذنوب وأصر عليها خيف عليه ان يرين على قلبه فيخرجه عن الاسلام بالكلية ومن هنا أشد خوف السلف كما قال بعضهم أتم تخافوز الذنوب وأنا أخاف الكفر

❦ فصل ❦

ومن عقوبتها انها تضعف سير القلب الى الله والدار الآخرة أو تعوقه وتوقفه وتعطفه عن السير فلا تدعه يخطوا الى الله خطوة هذا إن لم ترده عن وجهته الى ورائه فالذنوب يحجب الواصل ويقطع السائر وينكس الطالب والقلب انما يسير الى الله بقوته فاذا مرض بالذنوب ضعفت تلك القوة التي تسيره فان زالت بالكلية انقطع عن الله إنقطاعاً يبعد تداركها

والله المستعان فالذنوب أما يمت القلب أو يمرضه مرضاً مخوفاً أو يضعف قوته ولا بد حتى يتسهي ضمه الى الاشياء الثمانية التي إستعاذ منها النبي صلى الله عليه وسلم وهي الهم والحزن والكسل والعجز والحين والبخل وضلع الدين وغلبة الرجال وكل اثنين منها قرينان فالهم والحزن قرينان فان المكروه والوارد على القلب إن كان من أمر مستقبل يتوقعه احدث الهم وإن كان من أمر ماض قد وقع احدث الحزن والعجز والكسل قرينان فان تخلف العبد عن أسباب الخير والفلاح ان كان لعدم قدرته فهو العجز وإن كان لعدم إرادته فهو الكسل والحين والبخل قرينان فان عدم النفع منه إن كان ببدنه فهو الحين وإن كان بماله فهو البخل وضلع الدين وقهر الرجال قرينان فان إستيلاء الغير عليه إن كان بحق فهو من ضلع الدين وإن كان بباطل فهو من قهر الرجال والمقصود إن الذنوب من أقوى الاسباب الجالبة لهذه الثمانية كما إنها من أقوى الاسباب الجالبة لجهنم البلاء ودرك الشقاء وسوء القضاء وشهادة الاعداء ومن أقوى الاسباب الجالبة لزوال نعم الله تعالى وتقدس ونحول عافيته وفساد نعمته وجميع سخطه

فصل ❦

ومن عقوبات الذنوب إنها تزيل النعم وتحل النقم فما زالت عن العبد نعمة إلا لسبب ذنب ولا حلت به نعمة إلا بذنب كما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه ما نزل بلاء إلا بذنب ولا رفع بلاء إلا بتوبة وقد قال تعالى وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفوا عن كثير وقال تعالى ذلك بأن الله لم يك غيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم فأخبر الله تعالى إنه لا يغير نعمته التي أنعم بها على أحد حتى يكون هو الذي يغير ما بنفسه فيغير طاعة الله بجمعيته وشكره بكفره وأسباب رضاه بأسباب سخطه فاذا غير غير عليه جزاء وفاقاً وما ربك بظلام للعبيد فان غير المعصية بالطاعة غير الله عليه العقوبة بالعافية والذل بالعرض قال تعالى إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوء فلا مرد له وما لهم من دونه من وال وفي بعض الآثار الأهمية عن الرب تبارك وتعالى إنه قال وعزتي وجلالي لا يكون عبد من عبيدي على ما أحب ثم ينتقل عنه إلى ما أكره إلا إنتقلت له مما يحب عبيدي إلى ما يكره ولا يكون عبد من عبيدي على ما أكره فينتقل عنه إلى ما أحب إلا إنتقلت له مما يكره إلى ما يحب وقد أحسن القائل

إذا كنت في نعمة فارعها * فان الذنوب تزيل النعم
وخطها بطاعة رب العباد * فرب العباد سريع النقم

وياك والظلم مهما استطعت * فظلم العباد شديد للوخم
وسافر بقابلك بين الورى * لتبصر آثار من قد ظلم
قلبك مساكنهم بعددهم * شهود عليهم ولا تنهم
وما كان شئ عليهم اضر * من الظلم وهو الذي قد تصم
فكم تركوا من جنان ومن * قصور وأخرى عليهم اطم
صلوا بالجحيم وفات النعم * وكان الذي نالهم كالحلم

— فصل —

ومن عقوباتها ما يلقيه الله سبحانه من الرعب والخوف في قلب العاصي فلا تراه الا خائفاً
مرعوباً فان الطاعة حصن الله الاعظم الذي من دخله كان من الآمنين من عقوبات الدنيا والآخرة
ومن خرج عنه أحاطت به المخاوف من كل جانب فمن أطاع الله إنقلبت المخاوف في حقه أماناً ومن
عصاه إنقلب أمانه مخاوف فلا تجد العاصي إلا وقلبه كأنه بين جناحي طائران حركت الريح
الباب قال جاء الطلب وان سمع وقع قدم خاف أن يكون نذيراً بالعطب بحسب كل صيحة
عليه وكل مكروه قاصد اليه فمن خاف الله آمنه من كل شئ ومن لم يخف الله أخافه من كل شئ
بدا قضاء الله بين الخلق مذ خلقوا * إن المخاوف والاجرام في قرن

ومن عقوباتها انها توقع الوحشة العظيمة في القلب فيجد المذنب نفسه مستوحشاً قد وقعت
الوحشة بينه وبين ربه وبينه وبين الخلق وبينه وبين نفسه وكلما كثرت الذنوب اشتدت
الوحشة وأمر العيش عيش المستوحشين الخائفين وأطيب العيش عيش المستأنسين فلو
نظر العاقل ووازن بين لذة المعصية وما تولد فيه من الخوف والوحشة لعلم سوء حاله
وعظيم غيبه اذ باع أنس الطاعة وأمنها وحلاوتها بوحشة المعصية وما توجبه من الخوف
إذا كنت قد أوحشتك الذنوب * فدعها اذا شئت واستأنس

وسر المسألة أن الطاعة توجب القرب من الرب سبحانه وكلما اشتد القرب قوى الانس
والمعصية توجب البعد من الرب وكلما زاد البعد قوى الوحشة ولهذا يجد العبد وحشة بينه
وبين عدوه للبعد الذي بينهما وإن كان ملاسماً له قريباً منه ويجد أنساً قوياً بينه وبين من
يحب وإن كان بعيداً عنه والوحشة سببها الحجاب وكلما غاظ الحجاب زادت الوحشة فالغضلة
توجب الوحشة واشد منها وحشة المعصية واشد منها وحشة الشرك الكفر ولا تجد أحداً
يلابس شيئاً من ذلك إلا ويعلوه من الوحشة بحسب ملابسه منه فتعلو الوحشة وجهه
وقلبه فيستوحش ويستوحش منه

فصل ❦

ومن عقوباتها انها تصرف القلب عن صحته واستقامته الى مرضه وانحرافه فلا يزال مريضاً معلولاً لا ينتفع بالاغذية التي بها حياته وصلاحه فان تأثير الذنوب في القلوب كتنثير الامراض في الابدان بل الذنوب امراض القلوب ودائها ولادواءها الا تركها وقد أجمع الساترون الى الله أن القلوب لا تعطي منها حتى تصل الى مولاه ولا تصل الى مولاه حتى تكون صحيحة سليمة ولا تكون صحيحة سليمة حتى ينقلب دأؤها فتصير نفس دوائها ولا يصح لها ذلك الا بمخالفة هواها وهواها مرضها وشفاؤها مخالفتها فان استحكمت المرض قتل أو كاد وكما أن من نهى نفسه عن الهوى كانت الجنة مأواه كذلك يكون قلبه في هذه الدار في جنة عاجلة لا يشبه نعيم أهلها نعيم البتة بل التفاوت الذي بين التيمين كالتفاوت الذي بين نعيم الدنيا والآخرة وهذا أمر لا يصدق به الا من باشر قلبه هذا وهذا ولا تحسب ان قوله تعالى إن الابرار لفي نعيم وإن الفجار لفي جحيم مقصور على نعيم الآخرة وجحيمها فقط بل في دورهم الثلاثة كذلك أعني دار الدنيا ودار البرزخ ودار القرار فهؤلاء في نعيم وهؤلاء في جحيم وهل النعيم إلا نعيم القلب وهل العذاب إلا عذاب القلب وأي عذاب أشد من الخوف والهجم والحزن وضيق الصدر وإعراضه عن الله والدار الآخرة وتعلقه بغير الله وانقطاعه عن الله بكل واد منه شعبة وكل شيء تعلق به وأحبه من دون الله فانه يسومه سوء العذاب فكل من أحب شيئاً غير الله عذب به ثلاث مرات في هذه الدار فهو يعذب به قبل حصوله حتى يحصل فاذا حصل عذب به حال حصوله بالخوف من سلبه وفواته والتنجيس والتكيد عايه وأنواع المعارضات فاذا سلبه اشتد عذابه عايه فهذه ثلاثة أنواع من العذاب في هذه الدار وأما في البرزخ فعذاب يقارنه ألم الفراق الذي لا يرجي عوده وألم فوات ما فاته من النعيم العظيم باشتغاله بضده وألم الحجاب عن الله وألم الحسرة التي تقطع الاكباد فالهجم والغم والحسرة والحزن تعمل في نفوسهم نظير ما تعمل الهوام والديدان في أبدانهم بل عمائمها في النفوس دائم مستمر حتى يردها الله الى أجسادها حينئذ ينتقل العذاب الى نوع هو أدهى وأمر فأين هذا من نعيم من يرقص قلبه طرباً وفرحاً وأنساً بربه واشتياقاً اليه وارتياحاً بحبه وطمأنينة بذكره حتى يقول بعضهم في حال نزعه واطرباه ويقول الآخر ان كان أهل الجنة في مثل هذا الحال انهم اني عيش طيب ويقول الآخر مساكين أهل الدنيا خرجوا منها وما ذاقوا لذيق العيش فيها وما ذاقوا أطيب ما فيها ويقول الآخر لو علم الملوك أبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا

عليه بالسيوف ويقول الآخر ان في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة
فيا من باع حظه العالي بأبخس الثمن وغبن كل الغبن في هذا العقد وهو يرى انه قد غبن
اذ لم يكن لك خبرة بقيمة الساعة فاسئل المقومين فياعجبوا من بضاعة مملكت الله ومشتريها وتمنوا
جنة المأوي والسفير الذي جرى على يده عقد التبايع وضمن الثمن عن المشتري هو
الرسول صلى الله عليه وسلم وقد بعثها بغاية الإهوان

اذا كان هذا فعل عبد بنفسه * فمن ذالاه من بعد ذلك يكرم
ومن بين الله فإله من مكرم إن الله يفعل ما يشاء

﴿ فصل ﴾

ومن عقوباتها انها تعمي بصر القلب وتطمس نوره وتسد طرق العلم ومحجب مواد الهداية
وقد قال مالك للشافعي رحمهما الله تعالى لما اجتمع به ورأى تلك الخبايا اني أرى الله
تعالى قد أتى على قلبك نوراً فلا تطفئه بظلمة المعصية ولا يزال هذا النور يضيء ويضمحل
وظلام المعصية يقوى حتى يصير القلب في مثل الليل البهيم فكم من مهلك يسقط فيه وهو
لا يبصر كأعمى خرج بالليل في طريق ذات مهالك ومعاطب فياعززة السلامة وبأسرة المطب
ثم تقوى تلك الظلمات وتفيض من القلب الى الجوارح فيغشى الوجه منها سواد بحسب
قوتها وتزايدها فاذا كانت عند الموت ظهرت في البرزخ فامتلاً القبر ظلمة كما قال النبي صلى
الله عليه وسلم ان هذه القبور ممتلئة على أهلها ظلمة وإن الله ينورها بصلاتي عليهم فاذا كان
يوم المعاد وحشر العباد وعلت الظلمة الوجوه علواً ظاهراً يراه كل أحد حتى يصير الوجه
أسود مثل الحمرة فيالها من عقوبة لا توازن لذات الدنيا بأجمعها من أولها الى آخرها فكيف
يقسط العبد المنفص المتكبد المتعب في زمن انما هو ساعة من حلم والله المستعان

﴿ فصل ﴾

ومن عقوباتها انها تصغر النفس وتقمعها وتدسيها وتحقرها حتى تصير أصغر كل شيء
وأحققره كما ان الطاعة تتمها وتزكها وتكبرها قال تعالى قد أفحج من زكاه وقد خاب من
دساها والمعنى قد أفحج من كبرها وأعلاها بطاعة الله وأظهرها وقد خسر من أخفاها وحقرها
وصغرها بمعصية الله وأصل التدسية الاخفاء ومنه قوله تعالى يدسه في التراب فالعاصي يدس
نفسه في المعصية ويخفي مكانها ويتوارى من الخلق من سوء ما يأتي به قد انقمع عند نفسه
وانقمع عند الله وانقمع عند الخلق فالطاعة والبر تكبر النفس وتعزها وتعليها حتى تصير
أشرف شيء وأكبره وأزكاه وأعلاه ومع ذلك فهي أدل شيء وأحققره وأصغر لله تعالى

وهذا الذل حصل لها هذا العز والتعريف والنحو فاصغر النفس مثل معصية الله وما كبرها وشرفها
بغير فعلها مثل طاعة الله

❦ فصل ❦

ومن عقوباتها أن العاصي دائماً في أسر شيطانه وسجن شهوانه وقيوده هواده وأسير
مسجون مقيد ولا أسير أسوء حال من أسير أسره أعدى عدوله ولا سجن أضيق من
سجن الهوى ولا قيد أصعب من قيد الشهوة فكيف يسير الى الله والدار الآخرة قلب
ماسور مسجون مقيد وكيف يخطو خطوة واحدة وإذا تقيد القاب طرقته الآفات من كل
جانب بحسب قيوده ومثل القلب مثل الطائر كلما علا بعد عن الآفات وكلما نزل استوحشه
الآفات وفي الحديث الشيطان ذئب الانسان وكما أن الشاة التي لا حافظ لها وهي بين الذئاب
سريمة العطب فكذا العبد إذا لم يكن عليه حافظ من الله فذئبه مفترسه ولا يد وإلما يكون
عليه حافظ من الله بالتقوى فهي وقاية وجنة حصينة بينه وبين ذئبه كما هي وقاية بينه وبين
عقوبات الدنيا والآخرة وكلما كانت الشاة أقرب من الراعي كانت أسلم من الذئب وكلما بعدت
عن الراعي كانت أقرب الى الهلاك فاحي ماتكون الشاة إذا قربت من الراعي وإلما يأخذ
الذئب القاصي من الغنم وهي أبعد من الراعي وأصل هذا كله إن القلب كلما كان أبعد
من الله كانت الآفات اليه أسرع وكلما كان أقرب من الله بعدت عنه الآفات والبعد من الله
ممراتب بعضها أشد من بعض فالغفلة تبعد العبد عن الله وبعد المعصية أعظم من بعد الغفلة
وبعد البدعة أعظم من بعد المعصية وبعد التفارق والشرك أعظم من ذلك كله

❦ فصل ❦

ومن عقوباتها سقوط الجاه والنزلة والكرامة عند الله وعند خلقه فإن أكرم الخلق
عند الله أتقاهم وأقربهم منه منزلة أطوعهم له وعلى قدر طاعة العبد تكون له منزلة عنده
فاذا عصاه وحالف أمره سقط من عينه فاقطعه من قلوب عباده وإذا لم يبق له جاء عند
الخلق وهان عليهم عاملوه على حسب ذلك فعاش بينهم أسوء عيش خال الذكر ساقط
القدر. زرى الحال لاحرمة له فلا فرح له ولا سرور فإن خول الذكر وسقوط القدر
والجاه معه كل غم وهم وحزن ولا سرور معه ولا فرح وأين هذا الالم من لذة المعصية
لولا سكر الشهوة ومن أعظم نعم الله على العبد أن يرفع له بين العالمين ذكره ويعلى قدره
ولهذا خص أنبياء ورسله من ذلك بما ليس بغيرهم كما قال تعالى وأذكر عبادنا ابراهيم
واسحاق ويعقوب أولى الأيدي والابصار أنا أخضعناهم بخالص ذكر الدار أي خصصناهم

بخصيصة وهو الذكر الجليل الذي يذكرون به في هذه الدار وهو لسان الصدق الذي سأله ابراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام حيث قال واجعل لي لسان صدق في الآخرين وقال سبحانه وتعالى عنه وعن نبيه ووهبنا لهم من رحمتنا لهم لسان صدق علياً وقال لنبيه صلى الله عليه وسلم ورفقنا لك ذكرك فاتباع الرسل لهم نصيب من ذلك بحسب مراتبهم من طاعتهم ومتابعتهم وكل من خالفهم فانه من ذلك بحسب مخالفتهم ومعصيتهم

❦ فصل ❦

ومن عقوباتها انها تسلب صاحبها أسماء المدح والشرف وتكسوه أسماء الذم والصغار فتسلبه اسم المؤمن والبر والمحسن والمتقي والمطيع والنتيب والولي والورع والمصلح والعايد والخائف والابواب والطيب والرضى ومحوها وتكسوه اسم الفاجر والعاصي والمخائف والمديء والمفسد والحديث والمسخوط والزاني والسارق والقاتل والكاذب والخائن واللوطي والغادر وقاطع الرحم وأمثالها فهذه أسماء الفسوق وبئس الاسم الفسوق بعد الايمان التي توجب غضب الديان ودخول النيران وعيش الحزى والهوان وتلك أسماء توجب رضا الرحمان ودخول الجنان وتوجب شرف المسمي بها على سائر أنواع الانسان ولو لم يكن في عقوبة المصيبة الا إستحقاق تلك الاسماء وموجباتها لكان في العقل ناه عنها ولو لم يكن في ثواب الطاعة الا الفوز بتلك الاسماء وموجباتها لكان في العقل أمر بها ولكن لا مانع لما أعطى الله ولا منعه ولا مقرب لمن باعد ولا مبعد لمن قرب ومن ين الله فماله من مكرم إن الله يفعل ما يشاء

❦ فصل ❦

ومن عقوباتها انها تؤثر بالخاصة في نقصان العقل فلا تجد عاقلين أحدهما مطيع لله والآخر عاصي الا وعقل المطيع منهما أوفر وأكمل وفكره أصح ورأيه أسد والصواب قرينه وهذا تجد خطاب القرآن إنما هو مع أولي الأبواب والعقول كقوله فاتقوا الله يا أولي الأبواب وقوله فاتقوا الله يا أولي الأبواب وقوله وما يذكر الا أولوا الأبواب وانظار ذلك كثيرة وكيف يكون عاقلاً وافر العقل من يصي من هو في قبضته وفي داره وهو يعلم إنه يراه ويشاهده فيعصيه وهو بعينه غير متوار عنه ويستعين بنعمه على مساخطه ويستدعي كل وقت غضبه عليه ولعنته له وإبعاده من قربيه وطرده عن بابه وإعراضه عنه وخذلانه له والتخليه بينه وبين نفسه وعدوه وسقوطه من عينه وحرمانه وروح رضاه وحيه وقررة العين بقربه والفوز بجواره والنظر الى وجهه في زمرة أوليائه الى أضعاف أضعاف ذلك

من كرامة أهل الطاعة وأضعاف أضعاف ذلك من عقوبة أهل المعصية فاي عقل لمن آثر
لذة ساعة أو يوم أو دهر ثم تنقضي كأنها حلم لم يكن على هذا النعيم المقيم والنور العظيم
بل هو سعادة الدنيا والآخرة ولولا العقل الذي تقوم عليه به الحجة لكان بمنزلة المجانين بل قد
يكون المجانين أحسن حالا منه وأسلم عاقبة فهذا من هذا الوجه وأما تأثيرها في نقصان العقل
العاشي فلولا الاشتراك في هذا النقصان لظهر لمطينا نقصان عقل عاصينا ولكن الجائحة عامة
والجنون فتون وباعجبال وصحت العقول لعلمت أن الطريق الذي يحصل به اللذة والفرحة
والسرور وطيب العيش إنما هو في رضا من النعم كله في رضا والالم والعذاب كله في سخطه
وغضبه ففي رضا قرنة العيون وسرور النفوس وحياة القلوب ولذة الأرواح وطيب الحياة
ولذة العيش وأطيب النعيم مما لو وزن منه متقال ذرة بنعيم الدنيا لم تف به بل إذا حصل للقلب
من ذلك أيسر نصيب لم يرض بالدنيا وما فيها عوضاً عنه ومع هذا فهو يتنعم بنصيبه من الدنيا
أعظم من تنعم المترفين فيها ولا يشوب تنعمه بذلك الحظ اليسير ما يشوب تنعم المترفين من
الهموم والغموم والاحزان والمعارضات بل قد حصل له على النعيمين وهو ينتظر نعيمين آخرين
أعظم منهما وما يحصل له في خلال ذلك من الآلام فلا مراك قال سبحانه إن تكونوا تألمون
فأنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون فلا إله إلا الله ما أنقص عقل من باع الدر
بالعبر والمسك بالرجيع ومرافقة الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء
الصالحين بمرافقة الذين غضب الله عليهم ولعنهم وأعداهم جهنم وساءت مصيراً

❦ فصل ❦

ومن أعظم عقوباتها أنها توجب القطيعة بين العبد وبين ربه تبارك وتعالى وإذا وقعت
القطيعة انقطعت عنه أسباب الخير واتصلت به أسباب الشرفاي فلاح وأي رجاء وأي عيش
لمن انقطعت عنه أسباب الخير وقطع ما بينه وبين وليه ومولاه الذي لا غنى له عنه طرفه عين
ولا بدل له منه ولا عوض له عنه واتصلت به أسباب الشر ووصل ما بينه وبين أعداء عدوله
فتولاه عدوه ونحلي عنه واية فلا تعلم نفس ما في هذا الانقطاع والاتصال من أنواع الآلام
 وأنواع المذاب قال بعض السلف رأيت العبد مائق بين الله سبحانه وبين الشيطان فإن
أعرض الله عنه تولاه الشيطان وإن تولاه الله لم يقدر عليه الشيطان وقد قال تعالى وإذ قلنا
للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه
وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا يقول سبحانه لعبادنا أكرم
آبائكم ورفعت قدره وفضلته على غيره فأمرت ملائكتي كلهم أن يسجدوا له تكريماً وتشريفاً

فاطاعوني وابي عدوي وعدوه فعصى أمري وخرج عن طاعتي فكيف يحسن بكم بعد هذا أن تحذونه وذريته أولياء من دوني فتطيعونه في معصيتي وتوالونه في خلاف مرضاتي وهم أعداء عدولكم فواليتم عدوي وقد أمرتكم بمعاداته ومن وإلى أعداء الملك كان هو وأعداؤه عنده سواء فإن المحبة والطلاعة لا تتم إلا بمعادات أعداء المطاع وموالات أوليائه وأما أن توالى أعداء الملك ثم تدعي أنك موال له فهذا محال هذا لو لم يكن عدو الملك عدوا لكم فكيف إذا كان عدوكم على الحقيقة والعداوة التي بينكم وبينه أعظم من العداوة التي بين الشاة وبين الذئب فكيف يليق بالعاقل أن يوالى عدوه وعدو واهيه ومولاه الذي لا مولى له سواء ونبيه سبحانه على قبح هذه الموالات بقوله وهم لكم عدو وكأنه على قبحها بقوله تعالى ففسق عن أمر ربه فتبين أن عداوته لربه وعداوته لنا كل منهما سبب يدعو إلى معاداته فما هذه الموالات وما هذا الاستبدال بئس للظالمين بدلاً ويشبه أن يكون تحت هذا الخطاب نوع من العقاب لطيفاً عجيباً وهو أني عادت إبليس إذ لم يسجد لآبائكم آدم مع ملائكتي فكانت معاداته لأجلكم ثم كان عاقبة هذه المعادات أن عقدتم بينكم وبينه عقد المصالحة

﴿ فصل ﴾

ومن عقوباتها أنها تمنح بركة العمر وبركة الرزق وبركة العلم وبركة العمل وبركة الطاعة وبالجملة أنها تمنح بركة الدين والدنيا فلا تجد أقل بركة في عمره ودينه ودنياه ممن عصي الله وماحت البركة من الأرض إلا بما صي الخلق قال الله تعالى ولو أن أهل القري آمنوا واتفقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض وقال تعالى وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقاً لنفثهم فيه وأن العبد لا يحرم الرزق بالذنب يصيبه وفي الحديث أن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله واجملوا في الطاب فإنه لا ينال ما عند الله إلا بطاعته وإن الله جعل الروح والفرح في الرضاء واليقين وجعل الهم والحزن في الشك والسخط وقد تقدم الأثر الذي ذكره أحد في كتاب الزهد أنا الله إذا رضيت باركت وليس أبركتي منهى وإذا غضبت لعنت واعنتي تدرك السابغ من الولد وليست سعة الرزق والعمل بكثرة ولا طول العمر بكثرة الشهور والاعوام ولكن سعة الرزق والعمر بالبركة فيه وقد تقدم أن عمر العبد هو مدة حياته ولأحياء لمن أعرض عن الله واشتغل بغيره بل حياة البهائم خير من حياته فإن حياة الإنسان بحياة قلبه وروحه ولأحياء ألقبه إلا بمعرفة فطره ومحبه وعبادته وحمد أو الإجابة إليه والطمأنينة بذكره والانس بقربه ومن فقد هذه الحياة فقد الحير كاله ولو تعوض عنها بما تعوض به في الدنيا بل ليست

الدنيا بأجمعها عوضاً عن هذه الحياة فمن كل شيء يفوت العبد عوض وإذا فاتته الله لم يعوض عنه شيء البتة وكيف يعوض الفقير بالذات عن الغنى بالذات والعاجز بالذات عن القادر بالذات والميت عن الحي الذي لا يموت والمخلوق عن الخالق ومن لا وجود له فلا شيء له من ذاته البتة عمن غناه وحياته وكأله ووجوده ورحمته من لوازم ذاته وكيف يعوض من لا يملك مثقال ذرة سمن له ملك السموات والأرض وإنما كانت معصية الله شياً لحق بركة الرزق والاحل لان الشيطان موكل بها وأصحابها فسلطانه عليهم وحوالته على هذا الديوان وأهله وأصحابه وكل شيء يتصل به الشيطان ويقارنه فبركته محذوقة ولهذا شرع ذكر إسم الله تعالى عند الأكل والشرب واللبس والركوب والجماع لما في مقارنة إسم الله من البركة وذكر إسمه يطرد الشيطان فتحصل البركة ولا معارض لها وكل شيء لا يكون لله فبركته منزوعة فان الرب هو الذي يبارك وحده والبركة كلها منه وكلما نسب إليه مبارك فكلما به مبارك ورسوله مبارك وعبداه المؤمن النافع لخلقهم مبارك وبيته الحرام مبارك وكنائسه من أرضه وهي الشام أرض البركة وصفها بالبركة في ست آيات من كتابه فلا مبارك الا هو وحده ولا مبارك الا مانسب إليه أعنى إلى محبته وألوهيته ورضاه وإلا فالكون كله منسوب إلى ربوبيته وخلقهم وكلما باعده من نفسه من الاعيان والأقوال والأعمال فلا بركة فيه ولا خير فيه وكلما كان منه قريباً من ذلك ففيه من البركة على قدر قربته منه وضد البركة اللعنة فأرض لعن الله أو شخص لعن الله أو عمل لعن الله أبعد شيء من الخير والبركة وكلما اتصل بذلك وارتبط به وكان منه بسبيل فلا بركة فيه البتة وقد لعن عدوه إبليس وجنوده أبعد خلقه منه فكل ما كان من جهته فله من لعنة الله بقدر قربته منه وإتصاله فمن ههنا كان للمعاصي أعظم تأثير في محقق بركة العمر والرزق والعلم والعمل فكل وقت عصيت الله فيه أو مال عصي الله به أو بدن أو جاه أو علم أو عمل فهو على صاحبه ليس له فليس له من عمره وماله وقوته وجاهه وعلمه وعمله الا ما أطاع الله به ولهذا من الناس من يعيش في هذه الدار مائة سنة أو نحوها ويكون عمره لا يبالغ عشرين سنة أو نحوها كما أن منهم من يملك القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ويكون ماله في الحقيقة لا يبلغ ألف درهم أو نحوها وهكذا الجاه والعلم وفي الترمذي عنه صلى الله عليه وسلم الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله عز وجل وما والاه أو عالم أو متعلم وفي أثر آخر ملعونة ملعون ما فيها الا ما كان لله هذا هو الذي فيه البركة خاصة والله المستعان

فصل

وَمَنْ عَقَّبَتْهَا أَنَّهُ تَجْعَلُ صَاحِبَهَا مِنَ السُّفْلَةِ بَعْدَ أَنْ كَانَ مُهَيِّئًا لِأَنْ يَكُونَ مِنَ الْعَالِيَةِ فَإِنَّ اللَّهَ خَلَقَهُ قَسَمَيْنِ عَالِيَةٍ وَسُفْلَةٍ وَجَعَلَ عَلَيْنِ مُسْتَقَرِّ الْعَالِيَةِ وَأَسْفَلَ سَافِلِينَ مُسْتَقَرِّ السُّفْلَةِ وَجَعَلَ أَهْلَ طَاعَتِهِ الْإِعْلِيِّينَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَهْلَ مَعْصِيَتِهِ الْإِسْفَلِينَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ كَمَا جَعَلَ أَهْلَ طَاعَتِهِ أَكْرَمَ خَلْقِهِ عَلَيْهِ وَأَهْلَ مَعْصِيَتِهِ أَهْوَنَ خَلْقِهِ عَلَيْهِ وَجَعَلَ الْعِزَّةَ لَهُؤُلَاءِ وَالذُّلَّةَ وَالصَّغَارَ لَهُؤُلَاءِ كَمَا فِي مُسْنَدِ أَحْمَدَ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ جَعَلَتِ الذُّلَّةَ وَالصَّغَارَ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي وَكَلَّمَ عَمَلَ الْعَبْدِ مَعْصِيَةَ نَزَلَ إِلَى أَسْفَلَ دَرَجَةٍ وَلَا يَزَالُ فِي نَزُولٍ حَتَّى يَكُونَ مِنَ الْإِسْفَلِينَ وَكَلَّمَ عَمَلَ طَاعَةِ ارْتَفَعَ بِهَا دَرَجَةٍ وَلَا يَزَالُ فِي ارْتِفَاعٍ حَتَّى يَكُونَ مِنَ الْإِعْلِيِّينَ وَقَدْ يَجْتَمِعُ لِلْعَبْدِ فِي أَيَّامِ حَيَاتِهِ الصُّعُودُ مِنْ وَجْهِ وَالنُّزُولُ مِنْ وَجْهِ وَأَيُّهُمَا كَانَ أَغْلَبَ عَلَيْهِ كَانَ مِنْ أَهْلِهِ فَلَيْسَ مِنْ صَعِدَ مِائَةَ دَرَجَةٍ وَنَزَلَ دَرَجَةً وَاحِدَةً كَمَنْ كَانَ بِالْعَكْسِ وَلَكِنْ يَعْزُضُ هَهُنَا لِلنَّفُوسِ غَلْطُ عَظِيمٍ وَهُوَ أَنَّ الْعَبْدَ قَدْ يَنْزِلُ نَزُولًا بَعِيدًا أَبْعَدَ مِمَّا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَحَابِّينَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَا يَنْفِي بِصُعُودِهِ أَلْفَ دَرَجَةٍ بِهَذَا النُّزُولِ الْوَاحِدِ كَمَا فِي الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ إِنْ الْعَبْدَ لِيَتَكَلَّمَ بِالْكَلِمَةِ الْوَاحِدَةِ وَلَا يَلْقَى لَهَا بِالْأَلْفِ يَهْوَى بِهَا فِي النَّارِ أَبْعَدَ مِمَّا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ فَأَيُّ صُعُودٍ يَوَازِنُ هَذِهِ النُّزْلَةَ وَالنُّزُولَ أَمْرٌ لَازِمٌ لِلْإِنْسَانِ وَلَكِنْ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَكُونُ نَزُولُهُ إِلَى غَفْلَةٍ فَبِهَذَا مَتَى اسْتَدْقَظَ مِنْ غَفْلَتِهِ عَادَ إِلَى دَرَجَتِهِ أَوْ إِلَى أَرْفَعُ مِنْهَا بِحَسَبِ يَقْظَتِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ نَزُولُهُ إِلَى مَبَاحٍ لَا يَنْوِي بِهِ الْإِسْتِعَانَةَ عَلَى الطَّلَعَةِ- فَبِهَذَا إِذَا رَجَعَ إِلَى الطَّلَعَةِ قَدْ يَعُودُ إِلَى دَرَجَتِهِ وَقَدْ لَا يَصِلُ إِلَيْهَا وَقَدْ يَرْتَفِعُ عَنْهَا فَانْهَ قَدْ يَعُودُ أَعْلَى هِمَّةٍ مِمَّا كَانَ وَقَدْ يَكُونُ أَضْعَفُ هِمَّةٍ وَقَدْ تَعُودُ هِمَّتُهُ كَمَا كَانَتْ وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ نَزُولُهُ إِلَى مَعْصِيَةٍ إِمَّا صَغِيرَةٍ أَوْ كَبِيرَةٍ فَبِهَذَا يَحْتَاجُ فِي عَوْدِهِ إِلَى دَرَجَتِهِ إِلَى تَوْبَةٍ نَصُوحٍ وَإِنَابَةٍ صَادِقَةٍ وَاحْتِنَافٍ النَّاسِ هَلْ يَعُودُ بَعْدَ التَّوْبَةِ إِلَى دَرَجَتِهِ الَّتِي كَانَ فِيهَا بِنَاءً عَلَى أَنَّ التَّوْبَةَ تَمْحُو أَثَرَ الذَّنْبِ وَتَجْعَلُ وَجُودَهُ كَمَدَمِهِ فَكَانَهُ لَمْ يَكُنْ أَوَّلًا يَعُودُ بِنَاءً عَلَى أَنَّ التَّوْبَةَ تَأْثِيرُهَا فِي إِسْقَاطِ الْعُقُوبَةِ وَأَمَّا الدَّرَجَةُ الَّتِي فَاتَتْهُ فَانْه لَا يَصِلُ إِلَيْهَا قَالُوا وَتَقْرُرُ ذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ مُسْتَعِدًّا بِاشْتِغَالِهِ بِالطَّلَعَةِ فِي الزَّمَنِ الَّذِي عَصَى فِيهِ لَصُعُودٍ آخَرَ وَارْتِفَاعِهِ بِجَمَاعَةِ أَعْمَالِهِ السَّابِقَةِ بِنَزْلَةِ كَسْبِ الرَّجُلِ كُلِّ يَوْمٍ بِجَمَاعَةِ مَالِهِ الَّذِي يَمْلِكُهُ وَكَلَّمَ أَضْعَافَ الْمَالِ أَضْعَافَ الرِّبْحِ فَقَدْ رَاحَ عَلَيْهِ فِي زَمَنِ الْمَعْصِيَةِ ارْتِفَاعٌ وَرَبْحٌ بِجَمَاعَةِ أَعْمَالِهِ فَإِذَا اسْتَأْنَفَ الْعَمَلَ اسْتَأْنَفَ صُعُودًا مِنْ نَزُولٍ وَكَانَ قَبْلَ ذَلِكَ صَاعِدًا مِنْ أَسْفَلَ إِلَى أَعْلَى وَبَيْنَهُمَا بُونَ عَظِيمٌ قَالُوا وَمِثْلُ ذَلِكَ

و جلا من تقيان في سامعين لانهاية لهما وهما سواء فنزل أحدهما الى أسفل ولودرجة واحدة ثم استأنف الصعود فان الذي لم ينزل يملو عليه ولا بد وحكم شيخ الاسلام ابن تيمية بين الطائفتين حكماً مقبولا فقال التحقيق ان من التائبين من يعود الى ارفع من درجته ومنهم من يعود الى من مثل درجته ومنهم من لا يصل الى درجته ومنهم من يعود الى درجته قلت وهذا بحسب قدر التوبة وكما لها وما أحدثت المعصية للعبد من الذل والخضوع والابانة والحذر والخوف من الله واليبكاء من خشية الله وقد تقرى على هذه الامور حتى يعود التائب الى ارفع من درجته ويصير بعد التوبة خيراً منه قبل الخطيئة فهذا قد تكون الخطيئة في حقه رحمة فانها تفت عنه داء العجب وخلصته من ثقته بنفسه وأعماله ووضعت خد ضراغته وذله وإنكساره على عتبة باب سيده ومولاه وعرفته قدره واشهدته فقره وضرورته الى حفظ سيده له ومولاه الى عفوه عنه ومغفرته له وأخرجت من قلبه صولة الطاعة وكسرت أنفه من أن يشمخ بها أو يتكبر بها أو يري نفسه بها خيراً من غيره وأوقفته بين يدي ربه موقف الخطائين المذنبين ناكس الرأس بين يدي ربه مستحيّاً خائفاً منه وجلا محتقراً لعلاعته مستظماً لمصيته عرف نفسه بالثقص والذم وربّه متفرد بالسكّال والحمد والوفى كما قيل استأثر الله بالوفى وبالحم * د وولى الملامة الرجال

❖ فصل ❖

فأي نعمة وصلت من الله إليه استكثرها على نفسه ورأى نفسه دونها ولم يرها أهلاً لها
وأي نعمة أولية وصلت إليه رأى نفسه أهلاً لما هو أكبر منها ورأى مولاه قد أحسن إليه
إذ لم يعاقبه على قدر جرمه ولا شطره ولا أدنى جزء منه فإن ما يستحقه من العقوبة لا يحمله
الخيال الراسيات فضلاً عن هذا العبد الضعيف العاجز فإن الذنب وإن صغر فإن مقابله
العظيم الذي لا شيء أعظم منه الكبير الذي لا شيء أكبر منه الجليل الذي لا أجل منه
ولا أجل المزم بجميع أنواع النعم دقيقتها وجليلها من أقبح الأمور وأفظعها واشنعها فإن
مقابلة العظماء والأجلاء وسادات الناس بمثل ذلك يستقبحه كل أحد مؤمن وكافر وأرذل
الناس واسع طهم مروءة من قاباهم بالذائل فكيف بعظيم السموات والأرض وملك السموات
والأرض وإله أهل السموات والأرض ولولا أن رحمته سبقت غضبه ومغفرته سبقت
عقوبته والآنزلت الأرض بمن قابله بما لا تليق بمقابله به ولولا حلمه ومغفرته لزال
السموات والأرض من معاصي العباد قال تعالى إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا
فإن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليماً غفوراً فتأمل ختم هذه الآية

بأنهم من أسماؤه وهما الحليم والغفور كيف تجدد تحت ذلك أنه لو لا حلمه عن الجناة ومغفرته للعصاة لما استقرت السموات والأرض وقد أخبر سبحانه عن كفر بعض عباده أنه تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً وقد أخرج الله سبحانه الأيون من الجنة بذنب واحد ارتكبه وخالف فيه نبيه وابن إبليس وطرده وأخرجه من ملكوت السموات بذنب واحد ارتكبه وخالف فيه أمره ونحن معاشر الحقاء كقيل فصل الذنوب إلى الذنوب ونزجي * درج الجنان لذي النعم الخالد

ولقد علمنا أخرج الأيون من * ملكوتها الأعلى بذنب واحد والمقصود أن العبد قد يكون بعد التوبة خيراً مما كان قبل الخطيئة وأرفع درجة وقد تضمنت الخطيئة همته وتوهن عزيمته وتعرض قلبه فلا يقوى ذو التوبة على إعادته إلى الصحة الأولى فلا يعود إلى درجته وقد يزول المرض بحيث تعود الصحة كما كانت ويعود إلى مثل عمله فيعود إلى درجته هذا كله إذا كان نزوله إلى معصيته فإن كان نزوله إلى أمر يقدح في أصل إيمانه مثل الشكوك والرهب والتناق فذاك نزول لا يرجي لصاحبه صعوداً لا تجديد إسلامه من رأسه

فصل

ومن عقوباتها أنها تجتري على العبد ما لم يكن يجتري عليه من أضاف المخلوقات فتجترى عليه الشياطين بالأذى والاعواء والوسوسة والتخويف والترير وإنسانه ما صلاحته في ذكره ومضرته في نسيانه فتجترى عليه الشياطين حتى تؤذيه إلى معصية الله أراً وتجترى عليه شياطين الأنس بما تقدر عليه من الأذى في غيبته وحضوره وتجترى عليه أهله وخدمه وأولاده وجيرانه حتى الحيوان البهيم قال بعض الساف أني لأعصي الله فأعرف ذلك في خاق أمرائي ودائي وكذلك تجتري عليه أولياء الأمر بالعقوبة التي إن عدلوا فيها أقاموا عليه الحدود وتجترى عليه نفسه فتأسد عليه وتصعب عليه فلو أرادها لخير لم تطاوعه ولم تنقد له وتسوقه إلى ما فيه هلاكه شاء أم أبى وذلك لأن الطاعة حصن الرب تبارك وتعالى الذي من دخله كان من الآمنين فإذا فارق الحصن اجتري عليه قطاع الطريق وغيرهم وعلى حسب اجترائه على معاصي الله يكون اجتراء هذه الآفات والنفوس عليه وإيس شيء يرد عنه فإن ذكر الله وطاعته والصدقة وإرشاد الجاهل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وقاية ترد عن العبد بمنزلة القوة التي ترد المرض وتقاومه فإذا سقطت القوة غلب وارد المرض وكان الهلاك ولا بد للعبد من شيء يرد عنه فإن موجب السيئات والحسنات يتدافع ويكون الحكم للغالب كما تقدم وكما قوى جانب الحسنات كان الرد أقوى كما تقدم

فإن الله يدافع عن الذين آمنوا والذين آمنوا قول وعمل فيحسب قوة الإيمان تكون قوة الدفع والله المستعان

﴿ فصل ﴾

ومن عقوباتها أنها تحون العبد أحوج ما يكون إلى نفسه فإن كل أحد محتاج إلى معرفة ما ينفعه وما يضره في معاشه ومعاده وأعلم الناس أعرفهم بذلك على التفصيل وأفواهم وأكسبهم من قوى على نفسه وإرادته فاستعمامها فيما ينفعه وكفها عما يضره وفي ذلك تفاوت معارف الناس وهمهم ومنازلهم فأعرفهم من كان عارفاً بأسباب السعادة والشقاوة وأرشدتهم من أثر هذه على هذه كما أن أسفهم من عكس الأمر والمعاصي تحون العبد أحوج ما كان إلى نفسه في تحصيل هذا العلم وإبناظر الحظ الأشرف العالي الدائم على الحظ الخسيس الأدنى المنقطع فتجلبه الذنوب عن كمال هذا العلم وعن الاشتغال بما هو أولى به وأنفع له في الدارين فإذا وقع في مكروه واحتاج إلى التخلص منه خاض قلبه ونفسه وجوارحه وكان بمنزلة رجل معه سيف قد غشيه الحرب ولزم قرابه بحيث لا يجذب مع صاحبه إذا جذبته فعرض له عدو يريد قتله فوضع يده على قائم سيفه واجتهد ليخرجه فلم يخرج معه فذهمه العدو وظفر به كذلك القلب يصدي بالذنوب ويصير مشحناً بالمرض فإذا احتاج إلى محاربة العدو لم يجد معه شيئاً والعبد إنما يحارب ويصاول ويقدم بقلبه والجوارح تتبع للقلب فإذا لم يكن عند ملكها قوة يدفع بها الظن بها عند عدم ملكها وكذلك النفس فاتها تحب بالشهوات والمعاصي وتضعف أعني النفس المطمئنة وإن كانت الأمانة تقوى وتتأسد وكما قويت هذه ضعفت هذه فبقي الحكم والتصرف للأمانة وربما ماتت نفس المطمئنة موتاً لا يرجي معه حياة فهذا ميت في الدنيا ميت في البرزخ غير حي في الآخرة حياة ينفع بها بل حياته حياة يدرك بها الألم فقط والمقصود أن العبد إذا وقع في شدة أو كربة أو بلية خاض قلبه ولسانه وجوارحه عما هو أنفع شيء له فلا يجذب قلبه للتوكل على الله تعالى والآنابة إليه والجمعية عليه والتضرع والتذلل والانكسار بين يديه ولا يطاوعه لسانه لذكركه وإن ذكره بلسانه لم يجمع بين قلبه ولسانه فلا يجذب القلب على اللسان بحيث يؤثر فيه الذكر ولا يجذب اللسان والقلب على المذكور بل إن ذكر أو دعا ذكر بقلب غافل لاه ساه ولو أراد من جوارحه أن تعينه بطاعة تدفع عنه لم تنقد له ولم تطاوعه وهذا كله أثر الذنوب والمعاصي كمن له جند يدفع عنه الأعداء فاهمل جنده وضيعهم وأضعفهم وقطع أخبارهم ثم أراد منهم عند هجوم العدو عليه أن يستفرغوا وسعهم في الدفع عنه بغير قوة هذا وثم أمر أخوف من

ذلك وأدهي وأمر وهو أن يخونه قلبه ولسانه عند الاحتضار والانتقال الى الله تعالى
فربما تعذر عليه انطق بالشهادة كما شاهد الناس كثيراً من المحتضرين أصابهم ذلك حتى
قيل لبعضهم قل لا إله إلا الله فقال آه آه لا أستطيع أن أقولها وقيل لا آخر قل لا إله
إلا الله فقال شاه رخ غلبك ثم قضى وقيل لا آخر قل لا إله إلا الله فقال

يارب قائلة يوماً وقد تعبت * أين الطريق الى حمام منجباب

ثم قضى وقيل لا آخر قل لا إله إلا الله فجعل يهذي بالغناء ويقول تانا نستنتا
فقال وما ينفعني ما تقول ولم أدع معصية إلا ركبها ثم قضى ولم يقلها وقيل لا آخر ذلك
فقال وما ينبغي عني وما أعلم أنني صليت لله تعالى صلاة ثم قضى ولم يقلها وقيل لا آخر
ذلك فقال هو كافر بما تقول وقضى وقيل لا آخر ذلك فقال كلما أردت أن أقولها
فلساني يمسك عنها وأخبرني من حضر بعض الشحاذين عند موته فجعل يقول لله فليس
لله فليس حتى قضى وأخبرني بعض التجار عن قرابة له أنه احتضر وهو عنده فجعلوا
ياقنونه لا إله إلا الله وهو يقول هذه القطعة رخيصة هذا مشتري جيد هذه كذا
حتى قضى و سبحان الله كم شاهد الناس من هذا عبداً والذي يخفي عليهم من أحوال
المحتضرين أعظم وأعظم وإذا كان العبد في حال حضور ذهنه وقوته وكمال
إدراكه قد تمكن منه الشيطان واستعمله بما يريد من المعاصي وقد أغفل قلبه عن
ذكر الله تعالى وعطل لسانه من ذكره وجوارحه عن طاعته فكيف الظن به عند سقوط
قواه واشتغال قلبه ونفسه بما هو فيه من ألم النزع وجمع الشيطان له كل قوته وهيمته وحشد
عليه بجميع ما يقدر عليه لينال منه فرضته فإن ذلك آخر العمل فاقوي ما يكون عليه
شيطانه ذلك الوقت وأضعف ما يكون هو في تلك الحالة فمن تري يسلم على ذلك فهناك
يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل
الله ما يشاء فكيف يوفق لحسن الخاتمة من أغفل الله سبحانه قلبه عن ذكره واتباع هواه
وكان أمره فرطاً فبعيد من قلب بعيد من الله تعالى غافل عنه متعبداً لهواه مصير لشهواته
ولسانه يابس من ذكره وجوارحه معطلة من طاعته مشغولة بمعصية الله أن يوفق لحسن
الخاتمة ولقد قطع خوف الخاتمة ظهور المتقين وكأن المسيئين الظالمين قد أخذوا توقيعاً بالآيمان
أم لكم آيمان علينا بالغة الى يوم القيامة ان لكم لما تحكمون سلمهم أيهم بذلك زعيم

ياأمانا من قبيح الفعل يصنعه * هل أباك توقيع أم أنت تملكه

جمعت شئين أماناً واتباع هوى * هذا وإحداها في المرء تهلكه

والمحسنون على درب المخاوف قد * ساروا وذلك درب لست تسلكه

فرطت في الزرع وقت البذر من سفه * فكيف عند حصاد الناس تدركه
هذا وأعجب شئ منك زهدك في * دار البقاء بعيش سوف تتركه
من السفه اذاً بالله أنت أم السمعون في البيع غبنا سوف تدركه

فصل في

ومن عقوباتها أنها تعمي القلب فان لم تعمه أضعفت بصيرته ولا بد وقد تقدم بيان أنها
تضعفه ولا بد فاذا عمي القلب وضعف فاته من معرفة الهدى وقوته على تنفيذها في نفسه وفي
غيره بحيث تضعف بصيرته وقوته فان كمال الانسان مداره في أصلين معرفة الحق من
الباطل وإيثاره عليه وما تفاوتت منازل الخلق عند الله تعالى في الدنيا والآخرة لا بقدر
تفاوت منازلهم في هذين الأمرين وهما اللذان أني الله بهما سبحانه على أنبيائه عليهم الصلاة
والسلام في قوله تعالى واذكر عبادنا ابراهيم واسحق ويعقوب أولى الأيدي والأبصار
فالأيدي القوة في تنفيذ الحق والأبصار البصائر في الدين فوصفهم بكمال إدراك الحق
وكمال تنفيذهم وانقسم الناس في هذا المقام أربعة أقسام فهؤلاء أشرف الأقسام من الخلق
وأكرمهم على الله تعالى القسم الثاني عكس هؤلاء من لا بصيرة له في الدين ولا قوة على
تنفيذ الحق وهم أكثر هذا الخلق الذين رؤيتهم قذري للعيون وحي الأرواح وسقم القلوب
يضيقون الديار ويفلون الأسعار ولا يستفاد من صحبتهم الا العار والشار القسم الثالث من
له بصيرة في الهدى ومعرفة به لكنه ضعيف لا قوة له على تنفيذها ولا الدعوة اليه وهذا حال
المؤمن الضعيف والمؤمن القوي خير واحب الى الله منه القسم الرابع من له قوة وهممة
وعزيمة لكنه ضعيف البصيرة في الدين لا يكاد يميز بين أولياء الرحمن من أولياء الشيطان
بل يحسب كل سوداء ثمرة وكل بيضاء شحمة بحسب الورم شحماً والدواء النافع سماً وليس
في هؤلاء من يصلح للامامة في الدين ولا هو موضعاً لها سوى القسم الأول قال الله تعالى
وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون فاخبر سبحانه ان بالصبر واليقين
نالوا الامامة في الدين وهؤلاء هم الذين استثناهم الله سبحانه من جملة الخاسرين وأقسم
بالعصر الذي هو زمن سعى الخاسرين والرائحين على ان من عداهم فهو من الخاسرين فقال
تعالى والعصر إن الانسان لاني خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا
بالصبر فلم يكتف منهم بمعرفة الحق والصبر عليه حتى يوصى بعضهم بعضاً ويرشده اليه ويحثه عليه
فاذا كان من عدا هؤلاء فهو من الخاسرين معلوم ان المعاصي والذنوب تعمي بصيرة القلب فلا يدرك
الحق كما ينبغي وتضعف قوته وعزمته فلا يصبر عليه بل قد تتوارد على القلب حتى ينعكس

إدراكه كما ينعكس سيره فيدرك الباطل حقاً والحق باطلاً والمعروف منكراً والمتكرم معروفاً فينتكس في سيره ويرجع عن سفره الى الله والدار الآخرة الى سفره الى مستقر النفوس المبطلات التي رذيت بالحياة الدنيا واطمأنت بها وغفلت عن الله وآياته وتركت الاستعداد للقاءه ولو لم يكن في عقوبة الذنوب الا هذه وحدها لكانت كافية داعية الى تركها والبعد منها والله المستعان وهذا كما ان الطاعة تنور القلب وتجملوه واتصقله وتقويه وتثبتته حتى يصير كالمرآة المجلوة في جلالها وصفائها فيتملي نوراً فاذا دنى الشيطان منه أصابه من نوره ما يصيب مسترق السمع من الشهب الثواقب فالشيطان يفرق من هذا القلب أشد من فرق الذئب من الاسد حتى ان صاحبه ليصرع الشيطان فيختر صريعاً فيجتمع عليه الشياطين فيقول بعضهم لبعض ما شأنه فيقال أصابه أنسي وبه نظرة من الانس

فيا نظرة من قلب حرم نور * يكادها الشيطان بالنور يحرق

أفيستوي هذا القلب وتلب مظالم أرجاؤه محتافة أهواؤه قد أخذها الشيطان وطنه وأعدده مسكنه اذا تصبح بطلته حياه وقال فديت من لا يفلح في دنياه ولا في اخراه

انا قرينك في الدنيا وفي الحشر بعدها * فانت قرين لي بكل مكان

فان كنت في دار الشقاء فاني * وانت جيمي في شقا وهوان

قال الله تعالى ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين وأنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون حتى إذا جاءنا قال ياليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون فاعبر سبحانه ان من عني عن ذكره وهو كتابه الذي أنزل على رسوله صلى الله عليه وسلم وبارك فيه فأعرض عنه وعمي عنه وغشت بصيرته عن فمه وتدبره ومعرفة مراد الله منه قيص الله له شيطاناً عقوبة له في إعراضه عن كتابه فهو قرينه الذي لا يفارقه لافي الإقامة ولا في المسير ومولاه وعشيرته الذي هو بئس المولى وبئس العشير

رضيحي لبان ندي أم تقاسما * بأسحهم واجعوض لايتفرق

ثم أخبر سبحانه ان الشيطان ليصد قرينه ووليه عن سبيله الموصل اليه والى جنته ويحسب هذا الضال المضل الصدود أنه على طريق هدي حتى إذا جاء القرينان يوم القيامة يقول أحدهما للآخر ياليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين كنت لي في الدنيا أضللتني عن الهدى بعد إذ جاءني وصددتني عن الحق واغويتني حتى هلكت وبئس القرين أنت لي اليوم ولما كان المصائب إذا شاركه غيره في مصيبة حصل بالتأسي نوع تخفيف وتسالية أخبر الله سبحانه أن هذا غير موجود وغير حاصل في حق المشتركين في العذاب وأن

القرين لا يجد راحة ولا أدنى فرح بعذاب قرينه معه وإن كانت المصائب في الدنيا إذا عمت
صارت مسالة كما قالت الخنساء في أخيها صخر

ولولا كثرة الباكين حولي * على إخوانهم لقتلت نفسي
وما سيكون مثل أخي ولكن * أعري النفس عنه بالناسي
الأي صخر لأنك حتى * أفارق عيشتي وورود رمسي

فنع الله سبحانه هذا القدر من الراحة على أهل النار فقال ولن ينفعكم اليوم إذ
ظلمتم أنفسكم في العذاب مشتركون

❦ فصل ❦

ومن عقوباتها إنها مدد من الإنسان بمدد به عدوه عليه وحيش يقويه به على حربه
وذلك أن الله سبحانه ابتلى هذا الإنسان بعدو لا يفارقه طرفه عين صاحبه ينام ولا ينم
عنه ويغفل ولا يغفل عنه يراه هو وقييله من حيث لا يراه يبذل جهده في مآذاته بكل
حال ولا يدع أمراً يكيد به يقدر على إيصاله إليه إلا أوصله ويستعين عليه ببني جنسه من
شياطين الأنس وغيرهم من شياطين الجن وقد نصب له الجبائل وبني له القوائيل ومد
حوله الأشراك ونصب له الفخاخ والشباك وقال لاعدوانه دونكم عدوكم وعدو أبيكم
لا يفوتكم ولا يكون حظهم الجنة وحظكم النار ونصيبه الرحمة ونصيبكم اللعنة وقد علمتم
إن ما جرى علي وعليكم من الحزى والألمن والابعاد من رحمة الله بسببه ومن أجله فابذلوا
جهدكم أن تكونوا شركاءنا في هذه البلية إذ قد فلتا شركة صالحهم في الجنة ولما علم سبحانه
أن آدم وبنيه قد بلوا بهذا العدو وسلطوا عليهم أمدهم بمساكر وجند يلقون بها وأمد
عدوهم أيضاً بمجند وعساكر يلقاهم به وأقام سوق الجهاد في هذه الدار في مدة العمر التي
هي بالاضافة الى الآخرة كنفس واحد من أنفسها واشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم
بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وأخبر أن ذلك وعد مؤكد عليه
في أشرف كتبه وهي التوراة والإنجيل والقرآن ثم أخبر أنه لا أوفى بعهده منه سبحانه
ثم أمرهم أن يستبشروا بهذه الصفة التي من أراد أن يعرف قدرها فلينظر الى المشتري
من هو وإلى الثمن المبذول في هذه السلامة وإلى من جرى على يديه هذا العقد فاي فوز
أعظم من هذا وأي تجارة أربح منه ثم أكد سبحانه معهم هذا الأمر بقوله يا أيها الذين آمنوا
هنا أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب اليم تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل
الله فاموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات

تجري من تحتها الانهار ومسكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم وأخرى تحبون
نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين ولم يسلب سبحانه هذا المدو على عبده المؤمن
الذي هو أحب المخلوقات إليه إلا لأن الجهاد أحب شيء إليه وأهله أرفع الخلق عنده درجته
وأفهم اليدوسيلة نعم سبحانه لواء هذا الحرب خلاصة مخلوقاته وهو القاب الذي محل معرفته
ومحبته وعبوديته والاخلاص له والتوكل عليه والابانة إليه فولاد أمر هذا الحرب وأيده بمجنه
من الملائكة لا يفارقونه له معتبات من بين يده ومن خلفه يحفظونه من أمر الله يعقب بعضهم
بعضاً كلما جاء جند وذهب جاء بدله آخر يشبثونه ويأمرونه بالخير ويحضونه عليه ويعدون به بكرامه
الله ويصبرونه ويقولون إننا هو صبر ساعة وقد استرحت راحة الأبد ثم أيدته سبحانه بجند آخر
من وحيه وكلامه فارسل إليه رسوله صلى الله عليه وسلم وأنزل إليه كتابه فازداد قوة إلى قوته
ومددا إلى مدده وعدة إلى عدته وأمدته مع ذلك بالعقل وزيراً له ومديراً وبالمعرفة مشيرة
عليه ناصحة له وبالإيمان مثبتة له ومؤيدة وناصراً وباليقين كاشفاً له عن حقيقة الامر حتى كأنه
يعاين ما وعد الله تعالى أوليائه وحزبه على جهاد أعدائه فالعقل يدبر أمر جيشه والمعرفة
تصنع له أمور الحرب وأسبابها ومواضعها اللائمة بها والإيمان يشتهه ويقويه ويصبره واليقين
يقدم به ويحمل به الحملات الصادقة ثم مد سبحانه القائم بهذا الحرب بالقوى الظاهرة
والباطنة فجعل العين طليعة والأذن صاحب خبرة واللسان ترجمانه واليد والرجلين
أعوانه وأقام ملائكته وحماة عرشه يستغفرون له ويسألون له أن يقيه السيئات ويدخله
الجنات وتولى سبحانه الدفع والدفاع عنه بنفسه وقال هؤلاء حزب الله وحزب الله هم
المفاجحون وهؤلاء جنده وإن جندنا لهم الغالبون وعلم عباده كيفية هذا الحرب والجهاد
فجمعها لهم في أربع كلمات فقل يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله
لعلكم تفلحون ولا يثم أمر هذا الجهاد إلا بهذه الأمور الأربعة فلا يثم الصبر إلا بالصبر
المدو وهو مقاومته ومنازاته فإذا صابر عدوه احتاج إلى أمر آخر وهي المراقبة وهي لزوم
نظر القلب وحراسته لئلا يدخل منه العدو ولزوم نفع العين والأذن واللسان والبطن واليد
والرجل فهذه الثغور يدخل منه العدو فيجوس خلال الديار ويفسد ما قدر عليه فالمرابطة
لزوم هذه الثغور ولا يخلى مكانها فيصادف العدو والثغر خالياً فيدخل منها فهؤلاء أصحاب
رسول الله صلى الله عليه وسلم خير الخلق بعد النبيين والمرسلين صلى الله عليهم وسلم أجمعين
وأعظم حماية وحراسة من الشيطان الرجيم وقد خلوا المكان الذي أمروا بلرومه يوم
أحد فدخل منه العدو فكان ما كان وإجماع هذه الثلاثة وعمودها الذي تقوم به هو تقوى
الله فلا ينفع الصبر ولا المصابرة ولا المراقبة إلا بالتقوى ولا تقوم التقوى إلا على ساق الصبر

انظر الآن فيك الى النقاء الحديدين واصطدام العسكرين وكيف تداله مرة ويدال عليك
 اخري اقبل ملك كسفرة بجنوده وعساكره فوجد القلب في حصنه جالساً على كرسى مملكته
 امره نافذ في أعوانه وجنده قد حصنوا به يقاتلون عنه ويدافعون عن حوزته فلم يتمكنهم
 الهجوم عليه الا بمخامرة بعض أمرائه وجنده عليه فسأل عن أخص الجند به وأقربهم منه
 بركة فقبل له هي النفس فقال لأعوانه أدخلوا عليها من مرادها وانظروا مواقع محبتها
 ما هو محبوبها فعدوها به وموئها ايديوا نقشوا صورة المحبوب فيها في يقظتها ومناها فاذا طمأننت
 اليه وسكنت غدره فاطرحوا عايتها كلاليب الشهوة وخطايفها ثم جروها بها اليكم فاذا
 خامرة على القلب وصاروا معكم عليه ممالككم ثمر العين والاذن واللسان واليد والرجل
 لربطوا على هذا الثغور كل المراقبة فتم دخولهم منها الى القلب فهو قليل أو سير أو خرج
 من الجراحات ولا تخلوا هذه الثغور ولا تمكنوا سرية تدخل منها الى القلب فتخرجكم
 منها وان غلبتم فاجتهدوا في إضعاف السرية ووهنها حتى لا تصل الى القلب فان وصلت اليه
 وصلت ضعيفة لا تنفي عنه شيئاً فاذا استوليت على هذه الثغور فامنعوا ثمر العين أن يكون
 نظره إعتباراً بل أجعلوا نظره تفرحاً واستحساناً وتامها فان استرق نظره عبرة فافسدوها
 عليه بنظر الغفلة والاستحسان والشهوة فانه أقرب اليه وأعلق بنفسه وأخف عليه ودونكم
 ثمر العين فان منه تسالون بغيثكم فاني ما أفست بني آدم بشيء مثل النظر فاني أبذر به في
 القلب بذر الشهوة ثم أسقيه بماء الأمانة ثم لأزال أعده وامنيه حتى أقوى عزيمته وأقوده
 بزمام الشهوة إلى الخلاع من العصاة فلا تهملوا أمر هذا الثغر وأفسدوه بحسب استطاعتكم
 وهو نوا عليه أمره وقولوا له مقدار نظرة تدعوك الى تسييح الخالق والرازق البديع
 والتأمل والتجمل صفته وحسن هذه الصورة التي إنما خلقت ليستدل بها الناظر عليه وما خلق الله لك
 العيتين سدي وما خلق الله هذه الصورة ليحجبها عن النظر وإن ظفر تم به قليل العلم فاسد
 العقل فقولوا له هذه الصورة مظهر من مظاهر الحق ومحلي من محاليه فادعوه الى القول بالاتحاد
 فان لم يقبل فالقول بالحلل العام والخاص ولا تقنعوا منه بدون ذلك فانه يصير به من
 لإخوان النصارى فروه حينئذ بالعفة والصيانة والعبادة والزهد في الدنيا واصطادوا عليه
 الجهال فهذا من أقرب خلفائي وأكبر جندي بل أنا من جنده وأعوانه

❦ فصل ❦

ثم أمنعوا ثمر الإذن أن يدخل عليه ما يفسد عليكم الأمر فاجتهدوا أن لا تدخلوا
 منه الا الباطل فانه خفيف على النفس تستجابه وتستماحه وتحيروا له أعذب الالفاظ

وأسحرها للالباب أمزجوه بما تهوي النفس مزجاً وألقوا الكلمة فان رأيتم منه إصفا
 إليها فزيدوه باخوانها فكلاماً صادقاً منه استحسان شيء فاهجوا له بذكره وإياكم أن يدخل
 من هذا الثغر شيء من كلام الله أو كلام رسوله صلى الله عليه وسلم أو كلام النصحاء فان
 غلبتم على ذلك ودخل شيء من ذلك فحولوا بينه وبين فهمه وتدبره والتفكر فيه والعظا
 به إما بإدخال ضده عليه وإما بتحويل ذلك وتعظيمه وإن هذا أمر قد حيل بين النفوس
 وبينه فلا سبيل لها إليه وهو حمل ثقل عليها لا تستقل به ونحو ذلك وإما بإرخاصه على
 النفوس وأن الاشتغال ينبغي أن يكون بما هو أعلى عند الناس وأعز عليهم وأغرب عندهم
 وزبونه أكثر وأما الحق فهو مهجور والقائل به معرض نفسه للعدوان ولا ينبغي والرب
 بين الناس أولى بالايثار ونحو ذلك فيدخلون الباطل عليه في كل قالب يقبله ويخف عليه
 ويخرجون له الحق في كل قالب يكرهه ويشغل عليه وإذا شئت أن تعرف ذلك فانظر الى
 إخوانهم من شياطين الانس كيف يخرجون الامر بالمعروف والنهي عن المنكر في قالب
 كثرة الفضول وتبعية عزرات الناس والتعرض من البلاء ما لا يطيق وإلقاء الفتن بين الناس
 ونحو ذلك ويخرجون إتباع السنة ووصف الرب تعالى بما وصف به نفسه ووصفه با
 رسوله صلى الله عليه وسلم في قالب التشبيه والتجسيم والتكليف ويسمون علو الله على
 خالق خلقه واستوائه على عرشه ومباينته لمخلوقاته تحيزاً ويسمون نزوله الى سماء الدنيا
 وقوله من يسألني فأعطيه تحركاً وانتقالاً ويسمون ما وصف به نفسه من اليد والوجا
 أضاء وجوارح ويسمون ما يقوم به من أفعاله حوادث وما يقوم من صفاته أعراضاً
 ثم يتوصلون الى نفي ما وصف به نفسه بهذه الامور ويوهمون الاغمار وضعفاء البصائر
 أن إثبات الصفات التي نطق بها كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم تستلزم هذه
 الامور ويخرجون هذا التعطيل في قالب التنزيه والتعظيم وأكثر الناس ضعفاء العقول
 يقبلون الشيء بلفظ ويردونه بعينه بلفظ آخر قال الله تعالى وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً
 شياطين الانس والجن يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غروراً فسواء زخرفاً وهو
 القول الباطل لأن صاحبه زخرفة ويزينه ما استطاع ويأقيه الى سمع المغرور فيغتر به
 والمقصود أن الشيطان قد لزم ثغر الاذن أن يدخل فيها ما يضر العبد ويمنع أن يدخل اليها
 ما ينفعه وإن دخله بغير اختياره أفسد عليه

فصل في

ثم يقول قوموا على ثغر اللسان فإنه الثغر الأعظم وهو قبالة الملك فاجبروا عليه من الكلام ما يضره ولا ينفعه وانعموه أن يجري عليه شيء مما ينفعه من ذكر الله واستغفاره وتلاوة كتابه وأصيحته عباده أو التكلم بالعالم النافع ويكون لكم في هذا الثغر أثران عظيمان لا تبالون بهما ظفرتما أحدهما التكلم بالباطل فأنما المتكلم بالباطل أخ من إخوانكم ومن أكبر جندكم وأعوانكم الثاني السكوت عن الحق فإن الساكت عن الحق أخ لكم أخسر كما أن الأول أخ لكم ناطق وربما كان الأخ الثاني أنفع إخوانكم لكم أما سمعتم قول الناصح المتكلم بالباطل شيطان ناطق والساكت عن الحق شيطان أخسر فالرباط الرباط على هذا الثغر أن يتكلم بحق أو يمك عن باطل وزينوا له التكلم بالباطل بكل طريق وخوفوه من التكلم بالحق بكل طريق واعلموا يا بني أن ثغر اللسان هو الذي أهلك منه بنو آدم وأكبرهم منه على مناخرهم في النار فكم لي من قتل وأسير وجريح أخذته من هذا الثغر وأوصيكم بوصية فاحفظوا لينطق أحدكم على لسان أخيه من الانس بالكلمة ويكون الآخر على لسان السامع فينطق باستحسانها وتعظيمها والتعجب منها ويطلب من أخيه إعادتها وكونوا أعوانا على الانس بكل طريق وأدخلوا عليهم من كل باب واقعدوا لهم كل مرصد أما سمعتم قسيمي الذي أقسمت به لربهم حيث قلت فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائهم ولا تجد أكثرهم شاكرين أماتروني قد قعدت لابن آدم بطرقه كلها فلا يفوتني من طريق إلا قعدت له من طريق غيره حتى أصبت منه حاجتي أو بعضها وقد حذرهم ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال لهم إن الشيطان قد قعد لابن آدم بطرقه كلها قعد له بطريق الإسلام فقال له أسلم وتذر دينك ودين آبائك فخالفه وأسلم فقعد له بطريق الهجرة فقال أهاجر وتذر أرضك وسماؤك فخالفه وهاجر ثم قعد له بطريق الجهاد فقال أتجاهد فتقتل ويقسم المال وتسكح الزوجة فخالفه وجاهد فمكذبا فاقعدوا لهم بكل طريق الخير فإذا أراد أحدكم أن يتصدق فاقعدوا له على طريق الصدقة فقولوا له في نفسه أخرج المال وتبقى مثل هذا السائل وتصور بمنزلة أنت وهو نسوء أو ما سمعتم ما لقيته على لسان رجل سأله آخر أن يتصدق عليه قال أموالنا إذا أعطيناكموها صرنا مثلكم واقعدوا له بطريق الحج فقولوا له طريقه مخوفة مشقة يتعرض سالكها لتلف النفس والمال وهكذا فاقعدوا له على سائر طرق الخير بالتفكير منها وذكر صعوبتها وآفاتنا ثم أقعدوا على المعاصي فحسنوها في عين بني آدم وزينوها في قلوبهم

واجعلوا أكبر أعوانكم على ذلك النساء في أنوارهن فادخلوا عليهم ففتح العيون هن لكم
ثم الزموا نفر اليمين والرجلين فامنعوها أن تبتاش بما يضركم أو تمشي فيه واعلموا إن أكبر
أعوانكم على لزوم هذه الثغور صاحبة النفس الامارة فأعينوها واستعينوا بها وأمدوها
واستمدوا منها وكونوا معها على حرب النفس المطيشة فاجتهدوا في كسرها وإبطال قواها
ولا سبيل إلى ذلك إلا بقطع موادها عنها فلا إنقطع موادها وقويت مواد النفس الامارة
وطاعت لكم أعوانها فاستغلوا القلب من حصنه وأعزلوه عن مملكته وولوا مكانه النفس
فاتها لا تأمر إلا بما تهوونه وتحبونه ولا تحبكم بما تكرهونه البتة مع إنها لا تحالكم في شيء
تشيرون به عليها بل إذا أشرتم عليها بشيء بادرت إلى فعله فإن أحسستم من القلب منازعة
إلى مملكته وأردتم الأمن من ذلك فأعقدوا بينه وبين النفس عقد الشكاح فزينوها وجعلوها
وأروها إياه في أحسن صورة عروس توجد وقولوا له ذق حلاوة طعم هذا الوصال والتجمع
بهذه العروس كما ذقت طعم الحرب وبأشرت مرارة الطعن والضرب ثم وازن بين لذة
هذه المسألة ومرارة تلك المحاربة فدع الحرب تضع أوزارها فليست بيوم وينقضي وإنما
هو حرب متصل بالمت وقلوبك يضاعف عن الحرب دائم واستعينوا يا بني بجند عظيمين
لن تغلبوا معهما أحدهما جند الغفلة فاغفلوا قلوب بني آدم عن الله تعالى والدار الآخرة
بكل طريق فليس لكم شيء أبلغ من تحصيل غرضكم من ذلك فإن القلب إذا غفل عن
الله تعالى تمكنتم منه ومن أعوانه الثاني جند الشهوة فزينوها في قلوبهم وحسنوها في
أعينهم وصولوا عليهم بهذين السكرين فليس لكم في بني آدم أبلغ منهما واستعينوا على
الغفلة بالشهوات وعلى الشهوات بالغفلة وأقروا بين الغافلين ثم استعينوا بهما على الذاك
ولا يغلب واحد خمسة فإن مع الغافلين شيطانين صاروا أربعة وشيطان الذاك معهم
وإذا رأيتم جماعة مجتمعين على ما يضركم من ذكر الله ومذاكرة أمره ونهيه ودينه ولم
تقدروا على تفريقهم فاستعينوا عليهم ببني جنسهم من الانس الباطلين فقبوهم منهم وشوشوا
عليهم بهم وبالجملة فاعدوا الامور أقرانها وادخلوا على كل واحد من بني آدم من باب
إرادته وشهوته فساعده عليها وكونوا له أعوانا على تحصيلها وإذا كان الله قد أمرهم
بالصبر أن يصبروا لكم ويصبرونكم ويرابطوا عليكم الثغور فاصبروا أتم وصابروا وربطوا
عليهم بالثغور وانتهزوا فرصكم فيهم عند الشهوة والغضب فلا تصطادوا بني آدم في أعظم
من هذين الموطئين واعلموا أن منهم من يكون سلطان الشهوة عليه أغلب وسلطان غضبه
ضعيف مقهور نخذوا عليه طريق الشهوة ودعوا طريق الغضب ومنهم من يكون سلطان
الغضب عليه أغلب فلا نخلوا طريق الشهوة عليه ولا تعطلوا ثغرها فإن من لم يملك نفسه

عند الغضب فانه بالحري ان لا يملك عند الشهوة فزوجوا بين غضبه وشهوته وأمرجوا أحدهم بالآخر وأدعوه إلى الشهوة من باب الغضب وإلى الغضب من طريق الشهوة واعلموا أنه ليس لكم في بني آدم سلاح أبغ من هذين السلاحين وإنما أخرجت ابويهم من الجنة بالشهوة وإنما أنقبت العداوة بين أولادهم بالغضب فبه قطعت أرحامهم وسفكت دماؤهم وبه قتل أحد بني آدم أخاه واعلموا إن الغضب حجرة في قلب ابن آدم والشهوة نار تشور من قلبه وإنما تظفي النار بالماء والصلاة والذكر والتكبير وإياكم أن تتمكنوا ابن آدم عند غضبه وشهوته من قربان الوضوء والصلاة فان ذلك يظفي عنهم نار الغضب والشهوة وقد أمرهم نبيهم بذلك وقال إن الغضب حجرة في قلب ابن آدم أما رأيتم من إحمرار عينيه وانتفاخ أوداجه فمن أحس بذلك فليتوضأ وقال لهم إنما تظفي النار بالماء وقد أوصاهم الله أن يستعينوا عليكم بالصبر والصلاة فحولوا بينهم وبين ذلك وأنسوهم إياه واستعينوا عليهم بالشهوة والغضب وأبلغ أسلحتكم فيهم وأنكأها الغفلة واتباع الهوى وأعظم أسلحتهم فيكم وأمنهم حصونهم ذكر الله ومخالفة الهوى فإذا رأيتم الرجل مخالفاً لهواه فاهربوا من ظلمه ولا تدنوا منه والمقصود ان الذنوب والمعاصي سلاح ومدد يمد بها العبد أعداء ويعينهم بها على نفسه فيقاتلون به سلاحه والجاهل يكون معهم على نفسه وهذا غاية الجهل قل ما يبلغ الأعداء من جاهل ما يبلغ الجاهل من نفسه ومن العجائب أن العبد يسمي بنفسه في هوان نفسه وهو يزعم أنه لها مكرم ويجتهد في حرمانها من حظوظها وإشرافها وهو يزعم أنه يسمي في حظها ويبذل جهده في تحجيرها وتصفيرها وتدنيها وهو يزعم أنه يسمي في صلاحها ويعليها ويرفعها ويكبرها وكان بعض السلف يقول في خطبته أأرب مهين لنفسه وهو يزعم أنه لها مكرم ومذل لنفسه وهو يزعم أنه لها معز ومصغر لنفسه وهو يزعم أنه لها مكبر ومضييع لنفسه وهو يزعم أنه مراعى لمقامها وكفي بالمرء جهلاً أن يكون مع عدوه على نفسه يبلغ منها بفعاله ما لا يبلغه عدوه والله المستعان

— فصل —

ومن عقوباتها أنها تنسى العبد نفسه فإذا نسي نفسه أهماتها وأفسدها وأهلكها فان قيل كيف ينسى العبد نفسه وإذا نسي نفسه فأي شيء يذكره وما مني لسيانته نفسه قيل نعم ينسى نفسه أعظم نسيان قال تعالى ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون فلما نسوا ربهم سبحانه نسيتهم وأنساهم أنفسهم كما قال الله تعالى نسوا الله فأنساهم أنفسهم فعاقب

سبحانه من نسيه عقوبتين أحدهما أنه سبحانه نسيه والثانية أنه أنساه نفسه ونسيانه سبحانه للعبد إهماله وتركه وتخليه عنه وإضاعته ونسيانه فإلهاك أدنى إليه من اليد للفم وأما إنساؤه نفسه فهو إنساؤه لحظوظها العالية وأسباب سعادتها وفلاحها وإصلاحها وما يكملها بذنيه ذلك كله جميعه فلا يخطر بباله ولا يجده على ذكره ولا يصرف إليه همته فيرغب فيه فانه لا يمر بباله حتى يقصده ويؤثره وأيضاً فينسيه عيوب نفسه ونقصها وآفات فلا يخطر بباله إزالتها وإصلاحها وأيضاً فينسيه أمراض نفسه وقلبه وآلامها فلا يخطر بقلبه مداواتها ولا السعي في إزالة عللها وأمراضها التي تزول بها إلى الفساد والهلاك فهو مريض مشغن بالمرض ومرضى مترام به إلى التاف ولا يشعر بمرضه ولا يخطر بباله مداواته وهذا من أعظم العقوبة للعامة والخاصة فاي عقوبة أعظم من عقوبة من أهمل نفسه وضيعها ونسي مصالحها وداءها ودواءها وأسباب سعادتها وصلاحها وفلاحها وحياتها الأبدية في النعيم المقيم ومن تأمل هذا الموضع تبين له أن أكثر هذا الخلق قد نسوا أنفسهم حقيقة وضيعوها وأضاعوا حظها من الله وباعوها رخيصة بئس يبيع الغبن وإنما يظهر لهم هذا عند الموت ويظهر هذا كل الظهور يوم التغابن يوم يظهر للعبد أنه غبن في العقد الذي عقده لنفسه في هذه الدار والتجارة التي أبحر فيها لمعاده فان كل أحد يجبر في هذه الدنيا لآخرته فالحاسرون الذين يعتقدون أنهم أهل الربح والكسب اشتروا الحياة الدنيا وحظهم فيها فأذهبوا طبيباتهم ولذاتهم بالآخرة وحظهم فيها في حياتهم الدنيا وحظهم فيها ولذاتهم بالآخرة واستمتعوا بها ورضوا بها واطمأنوا اليها وكان سعيهم لتحصيلها فباعوا واشتروا واهجروا وباعوا آجالاً بما جل ونسيته بنقد وغائباً بما جز وقالوا هذا هو الزهرة ويقول أحدهم خذ ما تراه ودع شيئاً سمعت به فكيف أبيع حاضر آ نقداً شأ هذا في هذه الدار بغائب نسيته في دار أخرى غير هذه وينضم إلى ذلك ضعف الايمان وقوة داعي الشهوة ومحبة العاجلة والتشبه ببني الجنس فأكثر الخلق في هذه التجارة الحاسرة التي قال الله في أهلها أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون وقال فيهم فاربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين فاذا كان يوم التغابن ظهر لهم الغبن في هذه التجارة فتقطع عليهم النفوس حسرات وأما الرابحون فانهم باعوا قايماً بابق وخسيساً بنفيس وحقيقاً بهظيم وقالوا ما مقدار هذه الدنيا من أولها إلى آخرها حتى نبيع حظنا من الله تعالى والدار الآخرة بها فكيف بما ينال العبد منها في هذا الزمن القصير الذي هو في الحقيقة كخفوة حلم لانسبة له إلى دار القرار البتة قال تعالى ويوم نحشرهم كأن لم يلبسوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم وقال تعالى يسألونك عن الساعة

إيان مرساها فيم أنت من ذكرها الى ربك منتهاها إنما أنت منذر من يخشاها كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها وقال تعالى كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ وقال تعالى كم لبثتم في الأرض عدد سنين قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فاسأل العادين قال إن لبثتم إلا قليلا لو أنكم كنتم تعلمون وقال تعالى ويوم ينفخ في الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقا يخافتون بينهم ان لبثتم إلا عشرا نحن أعلم بما يقول أمثالهم طريقة إن لبثتم الا يوما فهذه حقيقة هذه الدنيا عند موافاة يوم القيامة فلما علموا قلة لبثهم فيها وإن لهم دار غير هذه الدار دار الحيوان ودار البقاء رأوا من أعظم الغبن بيع دار البقاء بدار الفناء فأنجروا وتجارة الا كياس ولم يغتروا وتجارة السفهاء من الناس فظهر لهم لتغابن ربح تجارتهم ومقدار ما شترود وكل أحد في هذه الدنيا بائع مشتر متجروا وكل الناس يقد فبايع نفسه فعتقها أو موبقها إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والانجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي يبيعكم به وذلك هو الفوز العظيم فهذا أول نقد من ثمن هذا التجارة فأنجروا أيها المفلسون ويامن لا يقدر على هذا الثمن ههنا ثمن آخر فان كنت من أهل هذه التجارة فأعط هذا الثمن الثابون العابدون الحامدون السائحون الراكون الساجدون الآمرون بالمعروف واثناهم عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين يأبها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تخيكم من عذاب أليم تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون والمقصود أن الذنوب تنسى العبد حظه من هذه التجارة الراجعة وتشغله بالتجارة الخاسرة وكفى بذلك عقوبة والله المستعان

— فصل —

ومن عقوباتها انها تزيل الثم الحاضرة وتقطع النعم الواصلة فتزيل الحاصل وتمنع الواصل فان نعم الله ما حفظ موجودها بمثل طاعته ولا استجلب مفقودها بمثل طاعته فان ما عند الله لا ينال الا بطاعته وقد جعل الله سبحانه لكل شئ سبيبا وآفة سبيبا يجلبه وآفة تبطله فجعل أسباب نعمه الجالبة لها طاعته وآفات الممانعة منها معصيته فاذا أراد حفظ نعمته على عبده أهله رعايتها بطاعته فيها وإذا أراد زوالها عنه خذله حتى عصاه بها ومن العجب علم العبد بذلك مشاهدة في نفسه وغيره وسما لما غاب عنه من أخبار من أزيلت نعم الله عنهم بمعاصيه وهو مقيم على معصية الله كأنه مستثنى من هذه الجملة أو مخصوص من هذا العموم وكان هذا

أمر جار على الناس لأعياه وواصل الى الخلق لآليه فأى جهل أبلغ من هذا وأى ظلم للنفس فوق هذا فالحكم لله العلى الكبير

— فصل —

ومن عقوباتها أنها تباعد عن العبد وليه وأنصح الخلق له وأنفهم له ومن سعاده في قربه منه وهو الملك الموكل به وتدنى منه عدوه وأغش الخلق له وأعظمهم ضرراً له وهو الشيطان فان العبد إذا عصى الله تباعد منه الملك بقدر تلك المعصية حتى انه يتباعد منه بالكذبة الواحدة مسافة بعيدة وفي بعض الآثار إذا كذب العبد تباعد منه الملك ميلاً من ثن ريمه فإذا كان هذا تباعد الملك منه من كذبة واحدة فماذا يكون قبح تباعده منه مما هو أكبر من ذلك وأخش منه وقال بعض السلف إذا ركب الذكر عجت الارض إلى الله وهربت الملائكة إلى ربها وشكت إليه عظم مارأت وقال بعض السلف إذا أصبح ابن آدم ابتدره الملك والشيطان فان ذكر الله وكبره وحمده وهله طرد الملك الشيطان وتولاه وإن افتتح بغير ذلك ذهب الملك عنه وتولاه الشيطان ولا يزال الملك يقرب من العبد حتى يصير الحكم والطاعة والغلبة له فتتولاه الملائكة في حياته وعند موته وعند مبعثه قال الله تعالى إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة وإذا تولاه الملك تولاه أنصح الخلق له وأنفهم وأبرهم له فبته وعلمه وقوي جنانته وأيده قال تعالى اذ يوحى ربك إلى الملائكة إني معكم فثبتوا الذين آمنوا ويقول الملك عند الموت لا تحزن ولا تحزن وأبشروا بالذي يسركم ويثبتته بالقول الثابت أحوج ما يكون إليه في الحياة الدنيا وعند الموت وفي القبر عند المسألة فليس أحد أضع للعبد من صحبة الملك له وهو وليه في يقظته ومنامه وحياته وعند موته وفي قبره ومؤنسه في وحشته وصاحبه في خلوته ومحدثه في سره ومحارب عنه عدوه ويدافع عنه ويمينه عليه ويعده بالخير ويبشره به ويحثه على التصديق بالحق كما جاء في الاثر الذي يروى مرفوعاً عن الملك بقاب ابن آدم لمة وللشيطان لمة فامة الملك أيعاد بالخير وتصديق بالوعده وللة الشيطان أيعاد بالشر وتكذيب بالحق وإذا اشتد قرب الملك من العبد تكلم على لسانه وألقى على لسانه القول السديد وإذا أبعد منه وقرب الشيطان من العبد تكلم على لسانه قول الزور والفحش حتى يرى الرجل يتكلم على لسان الملك والرجل يتكلم على لسان الشيطان وفي الحديث ان السكينة تنطق على لسان عمر رضي الله عنه وكان أحدهم يسمع الكلمة الصالحة من الرجل الصالح فيقول

ما تلقاها على لسانك الا الملك ويسمع ضدها فيقول ما تلقاها على لسانك الا الشيطان فالملك يلتقي في القلب الحق وياقيه على اللسان والشيطان يأتي الباطل في القلب ويحجبه على اللسان فمن عقوبة المعاصي أنها تبعث من العبد واه الذي سعادته في قربه ومجاورته وموالاته وتدني منه عدوه الذي شقاءه وهلاكه وفساده في قربه وموالاته حتى ان الملك لينافح عن العبد ويرد عنه اذا سفه عليه السفه وسبه كما اختصم بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم رجلان فجعل أحدهما يسب الآخر وهو ساكت فتكلم بكلمة يرد بها على صاحبه فقام النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله لما رددت عليه بعض قوله قت فقال كان الملك ينافح عنك فلما رددت عليه جاء الشيطان فلم أكن لاجلس واذا دعى العبد المسلم في ظهر الغيب لآخيه أمن الملك على دعائه فقال ولك بمثل ذلك واذا فرغ من قراءة الفاتحة أمن على دعائه فاذا أذنب العبد الموحد المتبع بسبيله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم استغفر له حنة العرش ومن حوله واذا نام العبد المؤمن بات في شعاره ملك فملك المؤمن يرد عليه ويحارب ويدافع عنه ويعلمه ويثبت به ويشجعه فلا يلبق به أن ينسى جواره وببالغ في أذاه وطرده عنه وإيماده فانه ضيفه وجاره واذا كان إكرام الضيف من الادميين والاحسان إلى الجار من لزوم الايمان ووجباته فما الظن باكرام أكرم الاضياف وخير الحيران وأبرهم واذا أذى العبد الملك بأنواع المعاصي والظلم والفواحش دعا عليه ربه وقال لاجزأك الله خيراً كما يدعوا له إذا أكرمه بالطاعة والاحسان قال بعض الصحابة رضي الله عنهم إن معكم من لا يفارقكم فاستحيوا منهم وأكرمواهم والأثم ممن لا يستحي من الكريم العظيم القادر ولا يكرمه ولا يوقره وقد نبه سبحانه على هذا المعنى بقوله وإن عليكم لحافظين كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون أي استحيوا من هؤلاء الحفاظ الكرام وأكرمواهم وأجلوهم أن يروا منكم ما تستحيون أن يريكم عليه من هو منكم والملائكة تتأذى مما تأذى منه بنوا آدم واذا كان ابن آدم يتأذى ممن يفجر ويعصي بين يديه وان كان قد يعمل مثل عمله فما الظن بأذى الملائكة الكرام الكاتبين والله المستعان

❦ فصل ❦

ومن عقوباتها أنها تستجلب مراد هلاك العبد في دنياه وآخرته فان الذنوب هي أمراض القلوب متى استحكمت قتلت ولا بد وكما أن البدن لا يكون صحيحاً الا بغذاء يحفظ قوته واستفراغ يستفرغ المواد الفاسدة والاخلط الرديئة التي متى غلبت عليه أفسدته جميعه رحمة يمتنع بها من تناول ما يؤذيه ويخشى ضرره فكذلك القلب لا يتم حياته الا بغذاء من

الایمان والاعمال الصالحة تحفظ قوته واستفراغ بالتوبة النصوح يستفرغ المواد الفاسدة والاخلاط الردية منه وحیة توجب له حفظ صحته ويحجب ما یضادها وهي عبارة عن ترك استعمال ما یضاد الصحة والتقوی اسم یتناول هذه الامور الثلاثة فمافات منها فات من التقوی بقدره واذا تبین هذا فالذنوب مضادة لهذه الامور الثلاثة فانها یستجلب المواد المؤذية وتستوجب التخلیط المضاد لاجمیع وتمنع الاستفراغ بالتوبة النصوح فانظر الى بدن علیل قد تراکمت علیه الاخلاط ومواد المرض وهو لا یستفرغها ولا یحتمی اهلها کیف تكون صحته وبقاؤه ولقد أحسن القائل

جسمك بالحمية أحصته * مخافة من ألم طاري

وكان أولى بك أن تحتمى * من الدماصي خشية الباري

فمن حفظ القوة بامتثال الأوامر واستعمل الحمية باجتناب النواهي واستفرغ التخلیط بالتوبة النصوح لم يدع للخیر مطالباً ولا من الشر مهرباً وبالله المستعان

فصل

فان لم ترعك هذه العقوبات ولم تجد لها تأثيراً في قلبك فاحضره العقوبات الشرعية التي شرعها الله ورسوله على الجرائم كما قطع السارق في ثلاثة دراهم وقطع اليد والرجل على قطع الطريق على معصوم المال والنفس وشق الجلد بالسوط على كلمة قذف بها المحصن أو قطرة خمر يدخلها جوفه وقتل بالحجارة أشنع قتلة في إيلاج الحشفة في فرج حرام وخفف هذه العقوبة عن من تم عليه نعمة الاحصان بمانه جلدة وينبغي سنة عن وطنه وبلده الى بلد الغربة وفرق بين رأس العبد وبدنه اذا وقع على ذات محرم أو ترك الصلاة المفروضة أو تكلم بكلمة كفر وأمر بقتل من وطئ ذكراً مثله وقتل المفعول به وأمر بقتل من أتى بهيمة وقتل البهيمة معه وغرم على تحريق بيوت المتخلفين عن الصلاة في الجماعة وغير ذلك من العقوبات التي رتبها الله على الجرائم وجعلها بحكمته على حسب الدواعي الى تلك الجرائم وحسب الوازع عنها فما كان الوازع عنها طبعياً وما ليس في الطباع داعياً اليه إكفاءاً بالتحريم مع التعزير ولم يرتب عليه حداً ككل الرجيع وشرب الدم وأكل الميتة وما كان في الطباع داعياً اليه ترتب عليه من العقوبة بقدر مفسدته وبقدر داع الطبع اليه ولهذا لما كان داع الطباع الى الزناء من أقوى الدواعي كانت من عقوبته العظمى من أشنع القتلات وأعظمها وعقوبته السهلة على أنواع الجلد مع زيادة التعذيب ولما كان الاواطاة فيها الامران كان حده القتل بكل حال ولما كان داعي السرقة قوياً ومفسدتها كذلك قطع فيها اليد وتأمل حكمته

في إفساد العضو الذي باشر به الجناية كما أفسد على قاطع الطريق يده ورجله اللتين هما آلة قطعه ولم يفسد على القاذف لسانه الذي جناية إذا مفسدة قطعه تزيد على مفسدة الجناية ولا يبلغها فاكتمى من ذلك بإيلاام جميع بدنه بالجلد فان قيل فهلا أفسد على الزاني فرجه الذي باشر به المعصية قيل بوجوه أحدها أن مفسدة ذلك تزيد على مفسدة الجناية إذ فيه قطع النسل وتمرضه للهلاك الثاني أن الفرج عضو مستور لا يحصل بقطعه مقصود الحد من الردع والزجر لأمثاله من الجناية بخلاف قطع اليد الثالث أنه إذا قطع يده أبقى له يد أخرى تعوض عنها بخلاف الفرج الرابع أن لذة الزنا عمت جميع البدن فكان الأحسن أن تعم العقوبة جميع البدن وذلك أولى من تخصيصها ببضعة منه فعقوبات الشارع جاءت على أتم الوجوه وأوفقها للعقل وأقومها بالمصلحة والمقصود أن الذنوب إنما ترتب عليها العقوبات الشرعية والقدرية أو يحجمها الله العبد وقد يرفها عن تاب وأحسن

فصل ١

وعقوبات الذنوب نوعان شرعية وقدرية فإذا أقيمت الشرعية رفعت العقوبات القدرية أو خففتها ولا يكاد الرب تعالى يجمع على عبده بين العقوبتين إلا إذا لم ينف أحدهما يرفع موجب الذنب ولم يمكن في زوال دائه وإذا عطلت العقوبات الشرعية استحالت قدرية وربما كانت أشد من الشرعية وربما كانت دونها ولكنها تعم والشرعية تخص فان الرب تبارك وتعالى لا يعاقب شرعا إلا من باشر الجناية أو تسبب اليها وأما العقوبة القدرية فانها تقع عامة وخاصة فان المعصية إذا خفيت لم تضر إلا صاحبها وإذا أعلنت ضرت الخاصة والعامة وإذا رأي الناس المنكر فاشتركوا في ترك إنكاره أو شك أن يعصم الله تعالى بعقابه وقد تقدم أن العقوبة الشرعية شرعها الله سبحانه على قدر مفسدة الذنب وتقاضي الطبع لها وجعلها سبحانه ثلاثة أنواع القتل والقطع والجلد وجعل القتل بازاء الكفر وما يليه ويقربه وهو الزناء واللواط فان هذا يفسد الأديان وهذا يفسد الإنسان قال الامام أحمد رحمه الله لا أعلم بعد القتل ذنبا أعظم من الزناء واحتج بحديث عبد الله بن مسعود أنه قال يا رسول الله أي الذنب أعظم قال أن تجعل لله ندا وهو خلقك قال قلت ثم أي قال أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك قال قلت ثم أي قال أن تزني بحليلة جارك فانزل تصديقها في كتابه والذين لا يدعون مع الله ألها آخروا لا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون الآية والنبي صلى الله عليه وآله وسلم ذكر كل نوع أغلاه ليطلق جوابه سؤال السائل فانه سئل عن أعظم الذنب فأجابه بما تضمن ذكر أعظم أنواعها وما هو أعظم كل نوع

فأعظم أنواع الشرك أن يجعل العبد لله نداً وأعظم أنواع القتل أن يقتل ولده خشية أن يشاركه في طعامه وشرابه وأعظم أنواع الزنا أن يزني بمحيلة جاره فإن مفسدة الزنا تتضاعف بتضاعف مآلتهك من الحق فالزنا بالمرأة التي لها زوج أعظم إثماً وعقوبة من التي لا زوج لها إذ فيه انتهاك حرمة الزوج وإفساد فراشه وتعليق نسب عايه لم يكن منه وغير ذلك من أنواع أذاه فهو أعظم إثماً وجراً من الزنا بغير ذات البعل فإن كان زوجها جراً له انضاف الى ذلك سوء الجوار وإذا أجاره بأعلى أنواع الاذى وذلك من أعظم البوائق وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه ولا بأثقه أعظم من الزنا بامرأته فالزنا بامرأة لا زوج لها أيسر عند الله من الزنا بامرأة الجار فإن كان الجار أخاً له أو قريباً من أقاربه انضم الى ذلك قطيعة الرحم فيتضاعف الاثم فإن كان الجار غائباً في طاعة الله كالصلاة وطلب العلم والجهاد وتضاعف الاثم حتى ان الزاني بامرأة الغاري في سبيل الله يوقف له يوم القيامة ويقال خذ من حسناته ما شئت قال النبي صلى الله عليه وسلم فما ظنكم أي ما ظنكم أنه يترك له من حسنات قد حكم في أن يأخذ منها ما شاء على شدة الحاجة الى حسنة واحدة حيث لا يترك الأب لابنه ولا الصديق لصديقه حقاً يجب عليه فإن اتفق أن تكون المرأة رحماً منه انضاف الى ذلك قطيعة رحمها فإن اتفق أن يكون الزاني محصناً كان الاثم أعظم فإن كان شيخاً كان أعظم إثماً وهو أحد الثلاثة الذين لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكهم ولهم عذاب أليم فإن اقترن بذلك أن يكون في شهر حرام أو بلد حرام أو وقت مظم عند الله كالوقت الصلاة وأوقات الاجابة تضاعف الاثم وعلى هذا فاعتبر مفسد الذنوب وتضاعف درجاتها في الاثم والعقوبة والله المستعان

❦ فصل ❦

وجعل سبحانه القطع باذاء افساد الاموال الذي لا يمكن الاحتراز منه فإن السارق لا يمكن الاحتراز منه لانه يأخذ الاموال في الاختفاء ويتنقب الدور ويتسور من غير الابواب فهو كالستور والحية التي تدخل عليك من حيث لا تعلم فلم ترفع مفسدة سرقة الى القتل ولا تندفع بالجلد فاحسن ما دفعت به مفسدته أبانة البضو الذي تسلط به على الجناية وجعل الجلد باذاء افساد العقول وتمزيق الاعراض بالقذف فدارت عقوباته سبحانه الشرعية على هذه الانواع الثلاثة كما دارت الكفارات على ثلاثة أنواع العتق وهو أعلاها والاطعام والصيام ثم جعل سبحانه الذنوب ثلاثة أقسام فما فيه الحد فهذا لم يشرع فيه كفارة

اكتفاء بالحد وقسما لم يترتب عليه حد فشرع فيه الكفارة كالوطء في نهار رمضان والوطء في الاحرام والظهار وقتل الخطأ والحنث في اليمين وغير ذلك وقسما لم يترتب عليه حد ولا كفارة وهو نوعان أحدهما ما كان الوازع عنه طبيعياً كأكل العذرة وشرب البول والدم والثاني ما كانت مفسدته أدنى من مفسدة ما رتب عليه الحد كالنظرة والقبلة واللمس والمحاذنة وسرقة فلس ونحو ذلك وشرع الكفارات في ثلاثة أنواع أحدها ما كان مباح الاصل ثم عرض تحريمه فباشره في الحالة التي عرض فيها التحريم كالوطء في الاحرام والايام وطرده الوطء في الحيض والثفاس بخلاف الوطء في الدبر ولهذا كان الحاق بعض الفقهاء له بالوطء في الحيض لا يصح فانه لا يباح في وقت دون وقت فهو بمنزلة التلوط وشرب المسكر النوع الثاني ما عقده الله من نذر أو ماله من يمين أو حرمه الله ثم أراد حله فشرع الله سبحانه حله بالكفارة وسماها تحلة وليست هذه الكفارة ماحية لهتك حرمة الاسم بالحنث كما ظنه بعض الفقهاء فان لحنث قديكون واجباً وقد يكون مستحباً وقد يكون مباحاً وانما الكفارة حل لما عقده النوع الثالث ما تكون فيه جارة لافلت ككفارة قتل الخطأ وان لم يكن هناك اثم وكفارة قتل الصيد الخطأ وان لم يكن هناك اثم فان ذلك من باب الجوارب والنوع الاول من باب الزواجر والنوع الوسط من باب التحلة لما منعه العقد ولا يجتمع الحد والتعزير في معصية بل ان كان فيها حد اكتفى به والا اكتفى بالتعزير ولا يجتمع الحد والكفارة في معصية بل كل معصية فيها حد فلا كفارة فيها وما فيه كفارة فلا حد فيه وهل يجتمع التعزير والكفارة في المعصية التي لا حد فيها فيه وجهان وهذا كالوطء في الاحرام والصيام ووطء الحائض اذا أوجبتا فيه الكفارة فقليل يجب فيه التعزير لما انتهك من الحرمة بركوب الجنابة وقيل لا تعزير في ذلك اكتفاء بالكفارة لانها جارة وماحية

فصل ❦

وأما العقوبات القدريّة فهي نوعان نوع على القلوب والنفوس ونوع على الابدان والاموال والتي على القلوب نوعان أحدهما آلام وجودية يضرب بها القلب والثاني قطع المواد التي بها حياته وصلاحه عنه واذا فعلت عنه حصل له اضدادها وعقوبة القلوب أشد العقوبتين وهي أصل عقوبة الابدان وهذه العقوبة تقوى وتزايد حتى تسري من القلب الى البدن كما يسري ألم البدن الى القلب فاذا فارقت النفس البدن صار الحكم متعلقاً بها فظهرت عقوبة القلب حينئذ وصارت علانية ظاهرة وهي المسماة بعذاب القبر

ونسبته الى البرزخ كنسبة عذاب الابدان الى هذه الدار

❦ فصل ❦

والتي على الابدان أيضاً نوعان نوع في الدنيا ونوع في الآخرة وشدتها ودوامها بحسب مفاسد ما رتب عليه في الشدة والخفة فليس في الدنيا والآخرة شراً أصلاً إلا الذنوب وعقوباتها قال الشريفة لذلك كله وأصله من شر النفس وسيئات الاعمال وهما الاصلان اللذان كان النبي صلى الله عليه وسلم يستميز منها في خطبته بقوله ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا وسيئات الاعمال من شرور أنفسنا فعاد انشركا الى شر النفس فان سيئات الاعمال من فروعها ونمراته وقد اختلف في معنى قوله ومن سيئات أعمالنا هل معناه السيء من أعمالنا فيكون من باب إضافة النوع الى جنسه أو يكون بمعنى من وقيل معناه من عقوباتها التي تسوء فيكون انتقيداً من عقوبات أعمالنا التي تسوءنا ويرجح هذا القول أن الاستعاذة تكون قد تضمنت جميع انشور فان شرور النفس تستلزم الاعمال السيئة وهي تستلزم العقوبات السيئة فبشرور النفس على ما تقتضيه من قبح الاعمال واكتفي بذكرها منه أو هي أصله ثم ذكر غاية الشر ومنتها وهو السيئات التي تسوء العبد من عملها من العقوبات والآلام فتضمنت هذه الاستعاذة أصل الشر وفروعه وغايته ومقتضاه ومن دعاء الملائكة للمؤمنين قولهم وقم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته فهذا يتضمن طلب وقايتهم من سيئات الاعمال وعقوباتها التي تسوء صاحبها فانه سبحانه متي وقاهم عمل السيء وقاهم جزاء السيء وإن كان قوله ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته أظهر في عقوبات الاعمال المطلوب وقايتهم يومئذ فان قيل فقد سألوه سبحانه أن يقيهم عذاب الجحيم وهذا هو وقاية العقوبات السيئة فدل على أن المراد السيئة التي سألوا وقايتها الاعمال السيئة ويكون الذي سألته الملائكة نظير ما استعاذ منه النبي صلى الله عليه وسلم ولا يرد على هذا قوله يومئذ فان المطلوب وقاية شرور سيئات الاعمال ذلك اليوم وهي سيئات في نفسها قيل وقاية السيئات نوعان أحدها وقاية فعلها بالتوفيق فلا تصدر منه وإثاني وقاية جزائها بالمغفرة فلا يعاقب عليها فتضمنت الآية سؤال الامرين والظرف تقييداً للجملية الشرطية لا بالجملة الظلية وتأمل ما تضمنه هذا الخبر عن الملائكة من مدحهم بالايمان والعمل الصالح والاحسان الى المؤمنين بالاستغفار لهم وقدموا بين يدي استغفارهم وتوساهم الى الله سبحانه بسعة علمه وسعة رحمته فسعة علمه يتضمن علمه بذنوبهم وأسبابها وضعفهم عن العصمة واستيلاء عدوهم وأنفسهم وهواهم وطباعهم وما زين لهم من الدنيا وزينتها وعلمه بهم إذا نشأهم من الارض

وإذ هم أجنة في بطون أمهاتهم وعلمه السابق بأنهم لابد أن يعصوه وأنه يحب العفو والمغفرة
 وبغير ذلك من سعة علمه الذي لا يحيط به أحد سواء وسعة رحمته تتضمن أنه لا يهلك عليه
 أحد من المؤمنين به من أهل توحيدده ومحبه فانه واسع الرحمة لا يخرج عن دائرة رحمته
 إلا الاشقياء والأشقي ممن لم تسمع رحمته التي وسعت كل شيء ثم سألوه أن يغفر للتائبين الذين
 اتبعوا سبيله وهو صراطه الموصل اليه الذي هو معرفته ومحبه وطاعته فيما أمر وترك ما يكره
 فتابوا مما يكره واتبعوا السبيل الذي يحبها ثم سألوه أن يقيم عذاب الجحيم وأن يدخلهم
 والمؤمنين من أصولهم وفروعهم وأزواجهم جنات عدن التي وعدهم بها وهو سبحانه وإن
 كان لا يخلف الميعاد فانه وعدهم بها بأسباب من جعلها دعاء الملائكة لهم بأن يدخلهم إليها
 يدخلونها برحمته التي منها أن وفقهم لأعمالها وأقام ملائكته يدعون لهم بدخولها ثم أخبر
 سبحانه عن ملائكته أنهم قالوا عقيب هذه الدعوة إنك أنت العزيز الحكيم أي مصدر ذلك
 وسببه وغايته صادر عن كمال قدرتك وكمال علمك فان العزة كمال القدرة والحكمة كمال
 العلم وبهاتين الصفتين يقضي سبحانه وتعالى ما يشاء ويأمر وينهى ويثيب ويعاقب فهاتان
 الصفتان مصدر الخلق والامر والمقصود أن عقوبات السيئات تنوع الى عقوبات شرعية
 وعقوبات قدرية وهي إما في القاب وإما في البدن وإما فيهما وعقوبات في دار البرزخ بعد
 الموت وعقوبات يوم عود الاجسام في الدار الآخرة فالذنوب لا يخلو من عقوبة البتة ولكن
 لجهل العبد لا يشعر بما هو فيه من العقوبة لانه بمنزلة السكران والمخدر والنائم الذي لا يشعر
 بالالم فاذا استيقظ وصحى أحس بالآلم فترتب العقوبات على الذنوب كترتب الاحراق على
 النار والكسر على الانكسار والاغتراف على الماء وفساد البدن على السموم والامراض الأسباب
 الجالبة لها وقد تقارن المضرة للذنوب وقد تتأخر عنه إما يسير وإمامدة كمتأخر المرض عن
 سببه أن يقارنه وكثيراً ما يقع الغلط للعبد في هذا المقام ويذهب الذنب فلا يري أثره عقبيه ولا يدرى
 أنه يعمل وعمله على التدرج شيئاً فشيئاً كما تعمل السموم والاشياء الضارة حذو القذبة بالقذبة فان
 تدارك العبد نفسه بالادوية والاستفراغ والحمية والافهه صائر إلى الهلاك هذا إذا كان ذنباً
 واحداً لم يتداركه بما يزيل أثره فكيف بالذنوب على الذنوب كل يوم وكل ساعة والله المستعان

❦ فصل ❦

فاستحضر بعض العقوبات التي رتبها الله سبحانه وتعالى على الذنوب وجوز وصولها
 اليك واجعل ذلك داعياً لنفسك الى هجرانها وأنا أسوق اليك منها طرفاً يكفي العاقل مع
 التصديق ببعضه فمنها الحتم على القلوب والاسماع والغشاوة على الابصار والاقفال على القلوب
 (١١ - الدواء)

وجعل الاكسنة عليها والرين عليها والطبع عليها وتقلب الافئدة والابصار والحيلولة بين المرأ وقلبه واغفال القلب عن ذكر الرب وإنشاء اعباد نفسه وترك إرادة الله تطهير القلب وجعل الصدر ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء وصرف القلوب عن الحق وزيادتها مرضاً على مرضها وإركاسها وإنكاسها بحيث تبقى منكوسة كما ذكر الامام أحمد عن حذيفة ابن اليمان رضي الله عنه أنه قال القلوب أربعة فقلب أجرد فيه سراج يزهر فذلك قلب المؤمن وقلب أغلف فذلك قلب الكافر وقلب منكوس فذلك قلب المنافق وقلب تمدد مادتان مادة إيمان ومادة نفاق وهولما غلب عليه منهما ومنها التثبط عن الطاعة والابتعاد عنها ومنها جعل القلب أصم لا يسمع الحق أبكم لا ينطق به أعمى لا يراه فيصير النسبة بين القلب وبين الحق الذي لا ينفعه غيره كالنسبة بين أذن الأصم والاصوات وعين الأعمى والالوان ولسان الآخرس والكلام وبهذا يعلم أن الصم والبكم والأعمى للقلب بالذات والحقيقة والجوارح بالفرض والتبعية فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور وليس المراد نفى العمى الحسي عن البصر كيف وقد قال تعالى ليس على الأعمى حرج وقال عيسى وتولى أن جاءه الأعمى وإنما المراد أن العمى التام على الحقيقة عمى القلب حتى أن عمى البصر بالنسبة اليه كالأعمى حتى يصح نفيه بالنسبة الى كماله وقوته كما قال النبي صلى الله عليه وسلم ليس الشديد بالصرعة ولكن الذي يملك نفسه عند الغضب وقوله صلى الله عليه وسلم ليس المسكين بالطواف الذي ترده الائمة والاقمتان ولكن المسكين الذي لا يسأل الناس ولا يفتن له فيتصدق عليه ونظائره كثيرة والمقصود أن من عقوبات المعاصي جعل القلب أعمى أصم أبكم ومنها الحسف بالقلب كالحسف بالمكان وما فيه فيخسف به الى أسفل سافلين وصاحبه لا يشعر وعلامة الحسف به أنه لا يزال جوالاً حول السفليات والقاذورات والردائل كما أن القلب الذي رفعه الله وقربه اليه لا يزال جوالاً حول البر والخير ومعمالي الأمور والاعمال والاقوال والاخلاق قال بعض السلف إن هذه القلوب جواله فمنها ما يجول حول العرش ومنها ما يجول حول الحشر ومنها مسخ القلب فيمسخ كأنه مسخ الصورة فيصير القلب على قلب الحيوان الذي شابهه في أخلاقه وأعماله وطبيعته فمن القلوب ما يمسخ على قلب خنزير أشدة شبه صاحبه به ومنها ما يمسخ على خاق كلب أو حمار أو حية أو عقرب وغير ذلك وهذا تأويل سفيان بن عيينة في قوله تعالى وما من دابة في الارض ولا طائر يطير بجناحيه الا أمم أمثالكم قال منهم من يكون على أخلاق السباع العادية ومنهم من يكون على أخلاق الكلاب وأخلاق الخنازير وأخلاق الحمير ومنهم من يتطوس في ثيابه لحماً يتطوس الطاووس في ريشه ومنهم من يكون بليد كالحمار ومنهم من يؤثر على نفسه كالديك ومنهم من يألف ويؤلف كالحمائم ومنهم الحقود

كالجمل ومنهم الذي هو خير منه كالغنم ومنهم أشباه الذئب ومنهم أشباه الثعلب التي يروغ
 كروغانها وقد شبه الله تعالى أهل الجهل والتي بالحر تارة وبالكب تارة وبالإنعام تارة
 وتقوي هذه المشابهة باطناً حتى تظهر في الصورة الظاهرة ظهوراً خفياً يراه المتفرسون ويظهر
 في الأعمال ظهوراً يراه كل أحد ولا يزال يقوي حتى تملأ الصورة فنقلب له الصورة باذن الله
 وهو المدخ التام فيقاب الله سبحانه وتعالى الصورة الظاهرة على صورة ذلك الحيوان كما فعل
 باليهود وأشباههم ويفعل بقوم من هذه الامة ويمسحهم قردة وخنازير فسيحان الله كم من
 قلب منكوس وصاحبه لا يشعر وتلب ممسوخ وقلب مخسوف به وكم من مفتون ببناء الناس عليه
 ومغرور بستر الله عليه ومستدرج بنعم الله عليه وكل هذه عقوبات وإهانة ويظن الجاهل أنها
 كرامة ومنها مكر الله بالماكر ومخادعته للمخادع واستهزاؤه بالمستهزى وإزغته لقلب الزائع
 عن الحق ومنها تكس القاب حتى يرى الباطل حقاً والحق باطلاً والمعروف منكراً والمنكر
 معروفاً ويفسد ويرى أنه يصلح ويصد عن سبيل الله وهو يرى أنه يدعى إليها ويشترى
 الضلالة بالهدى وهو يرى أنه على الهدى ويتبع هواه وهو يزعم أنه مطيع لمولاه وكل
 هذا من عقوبات الذنوب الجارية على القلوب ومنها حجاب القلب عن الرب في الدنيا
 والحجاب الاكبر يوم القيامة كما قال تعالى كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون فمنهم
 الذنوب أن يقطعوا المسافة بينهم وبين قلوبهم فيصلوا إليها فيروا ما يصاحبها ويزكها وما
 يفسدها ويشقيها وإن يقطعوا المسافة بين قلوبهم وبين ربهم فتصل القلوب إليه ففوز
 بقربه وكرامته وتقربه عيناً وطيب به نفساً بل كانت الذنوب حجاباً بينهم وبين قلوبهم
 وحجاباً بينهم وبين ربهم وخالفهم ومنها المعيشة الضنك في الدنيا وفي البرزخ والعذاب
 في الآخرة قال تعالى ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة
 أعمى وفسرت المعيشة الضنك بعذاب القبر ولا ريب أنه من المعيشة الضنك والآية تتناول
 ما هو أعم منه وإن كانت نكرة في سياق الاثبات فإن عمومها من حيث المعنى فإنه سبحانه
 وتب المعيشة الضنك على الاعراض عن ذكره فالمرض عنه له من ضنك المعيشة بحسب
 إعراضه وإن تنعم في الدنيا باصناف النعم ففي قلبه من الوحشة والذل والحسرات التي
 يقطع القلوب والاماني الباطلة والمذاب الحاضر مافيه وإنما تواريه عند سكرات الشهوات
 والعشق وحب الدنيا والرياسة إن لم ينضم الى ذلك سكر الخمر فسكر هذه الامور اعظم
 من سكر الخمر فإنه يفيق صاحبه ويصحوها وسكر الهوى وحب الدنيا لا يصحوها صاحبه
 الا إذا سكر في عسكر الاموات فالمعيشة الضنك لازمة لمن أعرض عن ذكر الله الذي
 أنزله على رسوله صلى الله عليه وسلم في دنياه وفي البرزخ ويوم معاده ولا تقر العين ولا

يهدي القلب ولا تطعمن النفس الا بأهلها ومعبودها الذي هو حق وكل معبود سواه باطل فمن قرت عينه بالله قرت به كل عين ومن لم تقر عينه بالله تقطعت نفسه على الدنيا حسرات والله تعالى إنما جعل الحياة الطيبة لمن آمن بالله وعمل صالحاً كما قال تعالى من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنجينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون فضمن لأهل الايمان والعمل الصالح الجزاء في الدنيا بالحياة الطيبة والحسني يوم القيامة فلم أطيب الحياتين وهم أحياء في الدارين ونظير هذا قوله تعالى وللذين أحسنوا في هذا الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير وانهم دار المتقين ونظيرها قوله تعالى وأن استغفروا ربكم ثم توبوا اليه يمتعكم متاعاً حسناً الى أجل مسمى ويؤت كل ذي فضل فضله ففاز المتقون المحسنون بنعيم الدنيا والآخرة وحصلوا على الحياة الطيبة في الدارين فان طيب النفس وسرور القلب وفرحه ولذته وإبتهاجه وطمأنينته وانسراحه ونوره وسعته وعافيته من ترك الشهوات المحرمة والشبهات الباطلة هو النعيم على الحقيقة ولا نسبة لنعيم البدن اليه فقد قال بعض من ذاق هذه اللذة لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجلدونا عليه بالسيوف وقال آخر انه يمر بالقلب أوقات أقول فيها إن أهل الجنة في مثل هذا إنهم اني عيش طيب وقال الآخر ان في الدنيا جنة هي في الدنيا كالجنة في الآخرة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم الى هذه الجنة بقوله اذا مررتم برياض الجنة فارتعوا قالوا وما رياض الجنة قال حلق الذكر وقال ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة ولا تظن ان قوله تعالى ان الابرار اني نعيم وإن الفجار اني جحيم يختص بيوم المعاد فقط بل هؤلاء في نعيم في دورهم الثلاثة وهؤلاء في جحيم في دورهم الثلاثة وأي لذة ونعيم في الدنيا أطيب من بر القلب وسلامة الصدر ومعرفة الرب تعالى ومحبة والعمل على موافقته وهل عيش في الحقيقة الا عيش القلب السليم وقد أنشأ الله تعالى على خليله عليه السلام سلامة القلب فقال وإن من شيعته لابراهيم إذ جاء ربه بقلب سليم وقال حاكياً عنه أنه قال يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم والقلب السليم هو الذي سلم من الشرك والغل والحقد والحسد والشح والكبر وحب الدنيا والرياسة فسلم من كل آفة تبعد من الله وسلم من كل شبهة تعارض خبره ومن كل شهوة تعارض أمره وسلم من كل إرادة تزعج مراده وسلم من كل قاطع يقطعه عن الله فهذا القلب السليم في جنة معجزة في الدنيا وفي جنة في البرزخ وفي جنة يوم المعاد ولا يتم له سلامته مطلقاً حتى يسلم من خمسة أشياء من شرك يناقض التوحيد وبدعة تخالف السنة وشهوة تخالف الامر وغفلة تناقض الذكر وهو يناقض التجريد والاخلاص يعم وهذه الخمسة حجب عن الله وتحت كل واحد منها

أنواع كثيرة تتضمن أفراد الأشخاص لأخصر ولذلك اشتدت حاجة العبد بل ضرورته الى أن يسأل الله أن يهديه الصراط المستقيم فليس العبد أحوج الى شيء منه الى هذه الدعوة وليس شيء أنفع منها فإن الصراط المستقيم يتضمن علوماً وإرادة وأعمالاً وتروكاً ظاهرة وباطنة تجري عليه كل وقت فتفاصيل الصراط المستقيم قد يعلمها العبد وقد لا يعلمها وقد يكون ما لا يعلمه أكثر مما يعلمه وما يعلمه قد يقدر عليه وقد لا يقدر عليه وهو من الصراط المستقيم وإن عجز عنه وما يقدر عليه قد تريد نفسه وقد لا تريد كلاً وتهاونا أو لقيام مانع وغير ذلك وما تريد قد يفعله وقد لا يفعله وما يفعله قد يقوم بشروط الاخلاص وقد لا يقوم وما يقوم فيه بشروط الاخلاص قد يقوم فيه بكمال المتابعة وقد لا يقوم وما يقوم فيه بالمتابعة قد ثبت عليه وقد صرف قلبه عنه وهذا كله واقع سار في الخلق فمستقل ومستكثر وليس في طباع العبد الهداية الى ذلك كله بل متى وكل الى طباعه حيل بينه وبين ذلك وهذا هو الاركاس الذي أركس الله به المنافقين بذنوبهم فاعادهم الى طباعهم وما خلقت عليه نفوسهم من الجهل والظلم والرب تبارك وتعالى على صراط مستقيم في قضائه وقدره وأمره ونهيه فيهدي من يشاء الى صراط مستقيم بفضل ورحمته وجعل الهداية حيث تصاح ويصرف من يشاء عن صراط مستقيم بعدله وحكمته لعدم صلاحية الحل وذلك موجب صراط المستقيم الذي هو عليه فهو على صراط مستقيم ونصب لعباده من أمره صراطاً مستقيماً دعاهم جميعاً اليه حجة منه وعدلاً وهدى من يشاء منهم الى سلوكه أمة منه وفضلاً ولم يخرج بهذا العدل وهذا الفضل عن صراطه المستقيم الذي هو عليه فإذا كان يوم القيامة نصب لخلق صراطاً مستقيماً يوصاهم الى جنته ثم صرف عنه من صرف عنه في الدنيا وأقام من أقام في الدنيا وجعل نور المؤمنين به وبرسوله وما جاء به الذي كان في قلوبهم في الدنيا نوراً ظاهراً لهم يسعى بين أيديهم وبايمانهم في ظلمة الحشر وحفظ عليهم نورهم حتى يقطعوه كما حفظ عليهم الايمان حتى تقوده وأطفي نور المنافقين أحوج ما كانوا اليه كما أطفأ من قلوبهم في الدنيا وأقام أعمال العصاة بجنتي الصراط كلاليب وحسكاً تحطفهم كما تحطفهم في الدنيا عن الاستقامة عليه وجعل على قدر سيرهم وسرعتهم اليه في الدنيا ونصب له مؤننين حوضاً يشربون منه بازاء شربهم من شرعه في الدنيا وحرم من الشرب منه هناك من حرم من الشرب من شرعه ودينه ههنا فنظروا الى الآخرة كأنها رأي عين وتأمل حكمة الله سبحانه في الدارين تعلم حينئذ علماً يقيناً لاشك فيه ان الدنيا مزرعة الآخرة وعنوانها وانموذجها وأن منازل الناس فيها من السعادة والشقاوة على حسب منازلهم في هذه الدار في الايمان والعمل الصالح وضدها وبالله التوفيق فمن

اعظام عقوبات الذنوب الجروج عن الصراط في الدنيا والآخرة

﴿فصل﴾

ولما كانت الذنوب متفاوتة في درجاتها ومفاسدها تفاوتت عقوباتها في الدنيا والآخرة بحسب تفاوتها ونحن نذكر فيها بعون الله فصلاً وجزاً جامعاً فنقول أصنافاً نوعان ترك مأموراً وفعل محظور وهما الذنبان اللذان ابتلى الله سبحانه أبوي الجن والانس بهما وكلاهما ينقسم باعتبار محله إلى ظاهري على الجوارح وباطني في القلوب وباعتبار متعلقه إلى حق الله وحق خلقه وإن كان كل حق خلقه فهو متضمن لحقه لكن سمي حقاً للخلق لأنه يجب بمطالبتهم ويسقط باسقاطهم ثم هذه الذنوب تنقسم إلى أربعة أقسام ملكية وشيطانية وسبعية وبهيمية لأنخرج عن ذلك فإن الذنوب الملكية ان من يتعاطا ما لا يصلح له من صفات الربوبية كالعظمة والكبرياء والجبروت والقهر والعلو والظلم واستعباد الخلق ونحو ذلك ويدخل في هذا الشرك بالرب تعالى وهو نوعان شرك به في أسمائه وصفاته وجعل آلهة أخرى معه وشرك به في معاملته وهذا الثاني قد لا يوجب دخول النار وإن أحبط العمل الذي أشرك فيه مع الله غيره وهذا القسم أعظم أنواع الذنوب ويدخل فيه القول على الله بلا علم في خلقه وأمره فمن كان من أهل هذه الذنوب فقد نازع الله سبحانه ربوبيته وملكه وجعل له نداً وهذا أعظم الذنوب عند الله ولا يتفجع معه عمل

﴿فصل﴾

وأما الشيطانية فالتشبه بالشیطان في الحسد والبغى والغش والغل والخداع والمكر والأمر بمعاصي الله وتحسينها والنهي عن طاعة الله وتهجينها والابتداع في دينه والدعوة إلى البدع والضلال وهذا النوع يلي النوع الأول في المفسدة وإن كانت مفسدته دونه

﴿فصل﴾

وأما السبعية فذنوب العدوان والغضب وسفك الدماء والتوثب على الضعفاء والعاجزين ويتولد منها أنواع أذى النوع الانساني والجراة على الظلم والعدوان وأما الذنوب البهيمية فمثل السرقة والحرص على قضاء شهوة البطن والفرج ومنها يتولد الزنا والسرقة وأكل أموال اليتامى والبخل والشح والحين والهلل والجرع وغير ذلك وهذا القسم أكثر ذنوب الخلق لعجزهم عن الذنوب البهيمة والملكية ومنه يدخلون إلى سائر الأقسام فهو يجبرهم إليها بزمهم فيدخلون منه إلى الذنوب السبعية ثم إلى الشيطانية ثم إلى منازعة الربوبية والشرك في الوحدانية ومن تأمل هذا حق التأمل تبين له ان الذنوب دهليز الشرك والكفر ومنازعة الله ربوبية

﴿ فصل ﴾

وقد دل القرآن والسنة وإجماع الصحابة والتابعين بعدهم والأئمة على أن من الذنوب كباثر وصغائر قال الله تعالى إن تجنبوا كباثر ما تهون عنه تكفر عنكم سيئاتكم وقال تعالى والذين يجتنبون كباثر الاسم والفواحش إلا اللجم وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكباثر وهذه الأعمال المكفرة لها ثلاث درجات أحدها أن تقصر عن تكفير الصغائر اضعفها وضعف الاخلاص فيها والقيام بحقوقها بمنزلة الدواء للضعيف الذي ينقص عن مقاومة لداء كميّة وكيفية الثانية أن تقاوم الصغائر ولا ترتقي إلى تكفير شيء من الكباثر الثالثة أن تقوى على تكفير الصغائر وتبقى فيها قوة تكفيرها بعض الكباثر فتأمل هذا فإنه يزيل عنك إشكالات كثيرة وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال ألا أنبئكم باكبر الكباثر قلنا بلى يا رسول الله فقال الاشرار بالله وعقوق الوالدين وشهادة الزور وروي في الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم اجتنبوا السبع الموبقات قيل وما هن يا رسول الله قال الاشرار بالله والسحر وقتل النفس التي حرم الله الا بالحق وأكل مال اليتيم وأكل الربا والتولي يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه سئل أي الذنب أكبر عند الله قال أن تجعل لله نداً وهو خلقك قيل ثم أي قال ان تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك قيل ثم أي قال أن تزني بحليلة جارك فانزل الله تعالى تصديقها والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله الا بالحق ولا يزنون الآية واختلف الناس في الكباثر هل لها عدد يحصرها على قولين ثم الذين قالوا يحصرها اختلفوا في عددها فقال عبد الله بن مسعود هي أربعة وقال عبد الله بن عمر هي سبعة وقال عبد الله بن عمرو ابن العاص هي تسعة وقال غيره هي إحدى عشر وقال آخر هي سبعون وقال أبو طالب المكي جمعها من أقوال الصحابة فوجدتها أربعة في القلب وهي الشرك بالله والاصرار على المعصية والقنوط من رحمة الله والامن من مكر الله وأربعة في اللسان وهي شهادة الزور وقذف المحصنات واليمين الغموس والسحر وثلاثة في البطن شرب الخمر وأكل مال اليتيم وأكل الربا واثنان في الفرج وهما الزنا والواطء واثنان في اليدين وهما القتل والسرقة وواحدة في الرجاين وهي الفرار من الزحف وواحدة تتعلق بجميع الجسد وهي عقوق الوالدين والذين لم يحصروها بعدد منهم من قال كما نهى الله عنه في القرآن فهو كبيرة وما نهى عنه الرسول صلى الله عليه وسلم فهو صغيرة وقالت طائفة ما اقترن بالنهي عنه وعيد من لعن

أو غضب أو عقوبة فهو كبيرة وما لم يقرن به من ذلك شيء فهو صغيرة وقيل كلما رتب عليه حد في الدنيا أو وعيد في الآخرة فهو كبيرة وما لم يرتب عليه لاهذا ولا هذا فهو صغيرة وقيل كلما اتفقت الشرائع على تحريمه فهو من الكبائر وما كان تحريمه في شريعة دون شريعة فهو صغيرة وقيل كلما لعن الله أو رسوله فاعله فهو كبيرة وقيل كلما ذكر من أول سورة النساء إلى قوله إن تجنبوا كبائر ما نهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم والذين لم يقسموها إلى كبائر وصغائر قالوا الذنوب كلها بالنسبة إلى الجراءة على الله سبحانه ومعصيته ومخالفة أمره كبائر فانظر إلى من عصى أمره وانتكح محارمه توجب أن تكون الذنوب كلها كبائر وهي مستوية في هذه المفسدة قالوا ويوضح هذا إن الله سبحانه لا يضره الذنوب ولا يبتأثر بها فلا يكرن بعضها بالنسبة إليه أكبر من بعض فلم يبق إلا مجرد معصيته ومخالفته ولا فرق في ذلك بين ذنب وذنوب قالوا ويدل عليه أن مفسدة الذنب تابعة للجراءة والتويب على حق الرب تبارك وتعالى ولهذا لو شرب رجل خمرًا أو ووطأ فرجًا حرامًا وهو لا يعتقد تحريمه لكان قد جمع بين الجهل وبين مفسدة ارتكاب الحرام ولو فعل ذلك من يعتقد تحريمه لكان أتى بأحد المفسدتين وهو الذي يستحق العقوبة دون الأول فدل على أن مفسدة الذنب تابعة للجراءة والتويب قالوا ويدل على هذا أن المعصية تتضمن الاستهانة بأمر المطاع ونهيه وإنتهاك حرمة وهذا لا فرق فيه بين ذنب وذنوب قالوا فلا ينظر العبد إلى كبر الذنب وصغره في نفسه ولكن ينظر إلى قدر من عصاه وعظمته وانتهاك حرمة بالمعصية وهذا لا يقرن فيه الحال بين معصية ومعصية فإن ملكًا عظيمًا مطاعًا لو أمر أحد مملوكيه أن يذهب في مهم له إلى بلد بعيد وأمر آخر أن يذهب في شغل له إلى جانب الدار فمضياه وخالفًا أمره لكانا في مقتله والسقوط من عينه سواء قالوا وإلهذا كانت معصية من ترك الحج من مكة وترك الجمعة وهو جار المسجد أقبح عند الله من معصية من تركه من المكان البعيد والواجب على هذا أكثر من الواجب على هذا ولو كان مع رجل مائتا درهم ففزع زكاتها ومع آخر مائتا ألف درهم ففزع زكاتها لا يستويا في منع ما وجب على كل واحد منهما ولا يبعد استواءهما في العقوبة إذا كان كلاهما مصر على منع زكاة ماله قليلا كان المال أو كثيرا

❦ فصل ❦

وكشف الغطاء عن هذه المسألة أن يقال إن الله عز وجل أرسل رسوله وأنزل كتبه وخلق السموات والأرض ليعرف ويعبد ويوجد ويكون الدين كله له والطاعة

كلها له والدعوة له كما قال تعالى وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون وقال تعالى وما خلقتنا
 السموات والارض وما بينهما الا بالحق وقال تعالى الله الذي خلق سبع سموات ومن
 الارض مثلهن يتنزل الامر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط
 بكل شيء علماً وقال تعالى جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس والشهر الحرام والهدى
 والقلائد ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما في السموات وما في الارض وأن الله بكل شيء عليم
 فأخبر سبحانه أن القصد بالخلق والامر أن يعرف باسمائه وصفاته ويعبد وحده لا يشرك
 به وأن يقوم الناس بالقسط وهو العدل الذي قامت به السموات والارض كما قال تعالى
 لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط فأخبر
 سبحانه أنه أرسل رسوله وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط وهو العدل ومن أعظم القسط
 التوحيد بل هو رأس العدل وقوامه وإن الشرك ظلم كما قال تعالى إن الشرك أظلم عظيم
 فالشرك أظلم الظلم والتوحيد أعدل العدل فما كان أشد منافاة لهذا المقصود فهو أكبر
 الكبائر وتفاوتها في درجاتها بحسب منافاتها له وما كان أشد موافقة لهذا المقصود فهو
 أوجب الواجبات وأفرض الطاعات فتأمل هذا الأصل حق التأمل واعتبر به تفاصيله تعرف
 به أحكم الحاكمين وأعلم العالمين فيما فرضه على عباده وحرمه عليهم وتفاوت مراتب
 الطاعات والمعاصي فلما كان الشرك بالله منافياً بالذات لهذا المقصود كان أكبر الكبائر على
 الإطلاق وحرم الله الجنة على كل مشرك وأباح دمه وماله وأهله لأهل التوحيد وإن
 يتخذوهم عبيداً لهم ما تركوا القيام بعبوديته وأبى الله سبحانه أن يقبل من مشرك عملاً
 أو يقبل فيه شفاعته أو يستجيب له في الآخرة دعوة أو يقبل له فيها عشرة فإن المشرك
 أجهل الجاهلين بالله حيث جعل له من خلقه نداءً غاية الجهل به كما أنه غاية الظلم منه
 وإن كان المشرك لم يظلم ربه وإنما ظلم نفسه ووقعت مسألة وهي أن المشرك إنما قصده تعظيم
 جناب الرب تبارك وتعالى أو أنه اعظمته لا ينبغي الدخول عليه إلا بالوسائط والشفعاء كحال
 الملوك فالشرك لم يقصد الاستهانة بجناب الربوبية وإنما قصد تعظيمه وقال إنما أعبد هذه
 الوسائط لتقربني إليه وتدخاني عليه فهو المقصود وهذه وسائل وشفعاء فلم كان هذا القدر
 موجب لسخطه وغضبه تبارك وتعالى ومخلداً في النار وموجباً سفك دماء أصحابه
 واستباحة حريمهم وأموالهم وترتب على هذا سؤال آخر وهو أنه هل يجوز أن يشرع
 الله سبحانه لعباده التقرب إليه بالشفعاء والوسائط فيكون تحريم هذا إنما استفيد من الشرع
 أم ذلك قبيح في الفطر والعقول يمتنع أن تأتي به شريعة بل جاءت بتقرير ما في الفطر
 والعقول من قبحه الذي هو أقبح من كل قبيح وما السبب في كونه لا يغفره من دون

سائر الذنوب كما قال تعالى إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء فتأمل هذا السؤال واجمع قلبك وذهنك على جوابه ولا تستهونه فإن به يحصل الفرق بين المشركين والموحدين والعالمين بالله والجاهلين وأهل الجنة وأهل النار فتقول وبالله اتوفيق والتأييد ومنه نستمد المعونة والتسديد فإنه من يهدي الله فهو المهتد ومن يضل فلا هادي له ولا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع الشريك شرك كان شرك يتعلق بذات المعبود وأسمائه وصفاته وأفعاله وشرك في عبادته ومما ملته وإن كان صاحبه يعتقد أنه سبحانه لا شريك له في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله والشرك الاول نوعان أحدهما شرك التعطيل وهو أقبح أنواع الشرك كشرك فرعون إذ قال وما رب العالمين وقال تعالى مخبراً عنه أنه قال وقال فرعون يا هامان ابن لي صرحا لعلى أطلع الى اله موسى وإني لأظنه كاذباً فالشرك والتعطيل متلازمان فكل مشرك معطل وكل معطل مشرك لكن لا يستلزم أصل التعطيل بل قد يكون المشرك مقرأ بالخالق سبحانه وصفاته ولكن عطل حق التوحيد وأصل الشرك وقاعدته التي ترجع اليها هو التعطيل وهو ثلاثة أقسام تعطيل المصنوع عن صانعه وخالقه وتعطيل الصانع سبحانه عن كماله المقدس بتعطيل أسمائه وصفاته وأفعاله وتعطيل معاملته عما يجب على العبد من حقيقة التوحيد ومن هذا شرك طائفة أهل وحدة الوجود الذين يقولون ما ثم خالق ومخلوق ويقولون هنا شيئان بل الحق المنزه وهو عين الخلق المشبه ومنه شرك الملاحدة القائلين بقدم العالم وأبديته وأنه لم يكن معدوماً أصلاً بل لم يزل ولا يزال والحوادث بأسرها مستقعدة عندهم الى أسباب ووسائط اقتضت إيجادها ليسمونها العقول والنفوس ومن هذا شرك من عظم أسماء الرب تعالى وأوصافه وأفعاله من غلاة الجهمية والقرامطة فلم يثبتوا له اسماً ولا صفة بل جعلوا المخلوق أكمل منه إذ كمال الذات بأسمائها وصفاتها

❦ فصل ❦

النوع الثاني شرك من جعل معه إلهاً آخر ولم يعطل أسماءه وربوبيته وصفاته كشرك النصاري الذي جعلوه ثلث ثلاثة فجعلوا المسيح إلهاً وأمه إلهاً ومن هذا شرك المجوس القائلين باسناد حوادث الخير الى النور وحوادث الشر الى الظلمة ومن هذا شرك القدرية القائلين بأن الحيوان هو الذى يخلق أفعال نفسه وإنما تحدث بدون مشيئة الله وقدرته وإرادته ولهذا كانوا من أشباه المجوس ومن هذا شرك الذي حاج إبراهيم في ربه إذ قال إبراهيم ربي الذى يحيى ويميت قال أنا أحيى وأميت فهذا جعل نفسه نداً لله يحيى ويميت بزعمه كما يحيى

الله ويميت فالزمه ابراهيم عليه السلام ورحمة الله وبركاته ان طرد قولك أن تقدر على الاتيان بالشمس من غير الجهة التي يأتي الله بها منها وليس هذا انتقالا كما زعم بعض أهل الجدل بل الزام على طرد الدليل إن كان حقا ومن هذا شرك كثير ممن يشرك بالكواكب العلويات ويجعلها أربابا مدبرة لامر هذا العالم كما هو مذهب مشركي الصائبة وغيرهم ومن هذا شرك عباد الشمس وعباد النار وغيرهم ومن هؤلاء من يزعم أن معبوده هو الآله على الحقيقة ومنهم من يزعم أنه أكبر الآلهة ومنهم من يزعم أنه إله من جملة الآلهة وأنه إذا خصه بعبادته والتبتل اليه والانقطاع اليه أقبل عليه واعتني به ومنهم من يزعم أن معبودهم الأدنى يقر به إلى المعبود الذي هو فوقه والفوقاني يقر به إلى من هو فوقه حتي تقر به تلك الآلهة إلى الله سبحانه فتارة تكثر الوسائط وتارة تقل

فصل

وأما الشرك في العبادة فهو أسهل من هذا الشرك وأخف أمرا فانه يصدر ممن يعتقد أنه لا إله إلا الله وأنه لا يضر ولا ينفع ولا يعطى ولا يمنع إلا الله وأنه لا إله غيره ولا رب سواه ولكن لا يخلص لله في معاملته وعبوديته بل يعمل لحظ نفسه تارة وطلب الدنيا تارة وطلب الرفعة والمنزلة والحجاء عند الخلق تارة فله من عمله ونصيبه ونفسه وحظه وهواه نصيب وللشيطان نصيب وللخلق نصيب هذا حال أكثر الناس وهو الشرك الذي قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم فيما رواه ابن حبان في صحيحه الشرك في هذه الأمة أخفى من ديب النمل قالوا وكيف نخجوا منه يا رسول الله قال قل اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم وأستغفر لك لما لا أعلم فالرياء كله شرك قال تعالى قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إليكم إله واحد فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا أي كما أنه إله واحد لا إله سواه فكذلك ينبغي أن تكون العبادة له وحده فكما تفرد بالالهية يجب أن يفرد بالعبودية فالعمل الصالح هو الخالي من الرياء المتيقن بالسنة وكان من دعاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه اللهم اجعل عملي كله صالحا واجعله لوجهك خالصا ولا تجعل لأحد فيه شيئا وهذا الشرك في العبادة يبطل ثواب العمل وقد يعاقب عليه إذا كان العمل واجبا فانه ينزله منزلة من لم يعمل به فيعاقب على ترك الامر فان الله سبحانه إنما أمر بعبادته خالصة قال تعالى وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء فمن لم يخلص لله في عبادته لم يفعل ما أمر به بل الذي أتى به شيء غير المأمور به فلا يصح ولا يقبل منه ويقول الله تعالى أنا أغني الشركاء عن الشرك فمن عمل عملا أشرك معي فيه فغيري فهو للذي أشرك به

وأنا منه برئ وهذا الشرك ينقسم الى مغفور وغير مغفور وأكبر وأصغر والتوع الاول ينقسم الى كبير وأكبر وأيسر شيء منه مغفور فنه الشرك بالله في المحبة والتعظيم بان يحب مخلوقا كما يحب الله فهذا من الشرك الذي لا يغفره الله وهو الشرك الذي قال سبحانه فيه ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا الآية وقال أصحاب هذا الشرك لآلهتهم وقد جمعهم الجحيم تالله إن كنا في ضلال مبين إذ نسويكم برب العالمين ومعلوم أنهم ماسوونهم به سبحانه في الخلق والرزق والامانة والاحياء والملك والقدرة وإنما سووهم به في الحب والتأله والخضوع لهم والتذلل وهذا غاية الجهل والظلم فكيف يسوي من خالق من التراب برب الارباب وكيف يسوي العبيد بما لك الرقاب وكيف يسوي الفقير بالذات الضعيف بالذات العاجز بالذات المحتاج بالذات الذي ليس له من ذاته الالعدم بالغنى بالذات القادر بالذات الذي غناه وقدرته وملكه وجوده وإحسانه وعلمه ورحمته وكلامه المطلق التام من لوازم ذاته فاي ظلم أقبح من هذا وأي حكم أشد جورا منه حيث عدل من لا عدل له بخلقه كما قال تعالى الحمد لله الذي خلق السموات والارض وجعل الظلمات والنور الذين كفروا بربهم يعدلون فعدل المشرك من خلق السموات والارض وجعل الظلمات والنور بمن لا يملك لنفسه ولا لغيره مثقال ذرة في السموات ولا في الارض فيالك من عدل تضمن أكبر الظلم وأقبحه

فصل

ويتبع هذا الشرك الشرك به سبحانه في الاقوال والافعال والارادات والنيات فالشرك في الافعال كالسجود لغيره والطواف بغير بيته وخلق الرأس عبودية وخضوعا لغيره وتقبيل الاحجار غير الحجر الاسود الذي هو بمنى الله في الارض أو تقبيل القبور واستلامها والسجود لها وقد لعن النبي صلى الله عليه وسلم من اتخذ قبور الانبياء والصالحين مساجد يصلى الله فيها فكيف بمن اتخذ القبور أو تانا يعبدونها من دون الله وفي الصحيحين عنه أنه قال لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد وفي الصحيح عنه أن من شرار الناس من تدركم الساعة وهم أحياء والذين يتخذون القبور مساجد وفي الصحيح أيضا عنه أن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فاني أنهاكم عن ذلك وفي مسند الامام أحمد رضى الله عنه وصحيح ابن حبان عنه صلى الله عليه وسلم لعن الله زوارات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج وقال اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد وقال إن من كان قبلكم إدامات فيهم الرجل الصالح بنوا على

قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصورة أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة فهذا حال من سجد لله في مسجد على قبر فكيف حال من سجد للقبر بنفسه وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد وقد حمى النبي صلى الله عليه وسلم جانب التوحيد أعظم حماية حتى نهى عن صلاة التطوع لله سبحانه عند طلوع الشمس وعند غروبها ثلاثاً يكون ذريعة إلى التشبه بعباد الشمس الذين يسجدون لها في هاتين الحالتين وسد الذريعة بأن منع الصلاة بعد العصر والصبح لاتصال هذين الوقتين بالوقت الذي يسجد المشركون فيهما للشمس وأما السجود لغير الله فقال لا ينبغي لأحد أن يسجد لأحد إلا لله ولا ينبغي في كلام الله ورسوله صلى الله عليه وسلم للذي هو في غاية الامتناع شرعاً كقوله تعالى وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً وقوله وما علمناه الشعر وما ينبغي له وقوله وما تنزل به الشياطين وما ينبغي له وقوله عن الملائكة ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء

❦ فصل ❦

ومن الشرك به سبحانه الشرك به في اللفظ كالحلف بغيره كإرواه أحمد وأبوداود عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال من حلف بغير الله فقد أشرك وصححه الحاكم وابن حبان ومن ذلك قول القائل للمخلوق ماشاء الله وشئت كما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال له رجل ماشاء الله وشئت قال أجعلتي لله نداً قل ماشاء الله وحده وهذا مع أن الله قد أثبت للعبد مشيئة كقوله لمن شاء منكم أن يستقيم فكيف من يقول أنا متوكل على الله وعليك وأنا في حسب الله وحسبك ومالي إلا الله وأنت وهذا من الله ومنك وهذا من بركات الله وبركاتك والله لي في السماء وأنت لي في الأرض ويقول والله حياة فلان أو يقول نذراً لله ولفلان وأنا تائب لله ولفلان أو أرجوا الله ولفلان ونحو ذلك فوازن بين هذه الالفاظ وبين قول القائل ما شاء الله وشئت ثم انظر أيهما أحسن يتبين لك أن قائلاً أولى لجواب النبي صلى الله عليه وسلم لقائل تلك الكلمة وأنه إذا كان قد جمعه نداءً لله بها فهذا قد جعل من لا يداني رسول الله صلى الله عليه وسلم في شيء من الأشياء بل لعله أن يكون من أعدائه نداءً للرب العالمين فالسجود والعبادة والتوكل والانتابة والتقوى والحشية والتحسب والتوبة والنذر والحلف والتسبيح والتكبير والتهليل والتحميد والاستغفار وحلق الرأس خضوعاً وتعبداً والطواف بالبيت والدعاء كل ذلك محض حق الله لا يصلح ولا ينبغي لسواه من ملك مقرب ولا نبي مرسل وفي مسند الإمام أحمد أن رجلاً أتى به إلى النبي صلى الله عليه وسلم قد

أذنب ذنباً فلما وقف بين يديه قال اللهم إني أتوب إليك ولأتوب الى محمد فقال قد
عرف الحق لاهله

❦ فصل ❦

وأما الشرك في الارادات والنيات فذلك البحر الذي لاساحل له وقل من يخجو منه
فمن أراد بعباده غير وجه الله ونوى شيئاً غير التقرب اليه وطلب الجزاء منه فقد أشرك في
نيته وإرادته والاخلاص أن يخلص لله في أفعاله وأقواله وإرادته ونيته وهذه هي الحنيفة
ملة ابراهيم التي أمر الله بها عباده كلهم ولا يقبل من أحد غيرها وهي حقيقة الاسلام
كما قال تعالى ومن يتبع غير الاسلام ديناً فإن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين
وهي ملة ابراهيم عليه السلام التي من رغب عنها فهو من أسفه السفهاء

❦ فصل ❦

واذا عرفت هذه المقدمة انفتح لك باب الجواب عن السؤال المذكور فنقول ومن
الله وحده نستمد الصواب حقيقة الشرك هو التشبه بالخالق والتشبيه للمخلوق به هذا هو
التشبيه في الحقيقة لا اثبات صفات الكمال التي وصف الله بها نفسه ووصفه بها رسول الله
صلى الله عليه وسلم فعكس من نكس الله قلبه وأعمى عين بصيرته وأركسه بلبسه الامر
وجعل التوحيد تشبيهاً والتشبيه تعظيماً وطاعة فالمشرك مشبه للمخلوق بالخالق في خصائص
الالهية فان من خصائص الالهية التفرد بملك الضر والنفع والعطاء والمنع وذلك يوجب
تعليق الدعاء والخوف والرجاء والتوكل به وحده فمن علق ذلك بمخلوق فقد شبهه بالخالق
وجعل من لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً أفضل من غيره
تشبيهاً بمن له الامر كله فازمة الامور كلها بيديه ومرجعها اليه فما شاء كان وما لم يشأ
لم يكن لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع بل إذ فتح لعبده باب رحمته لم يمسكها أحد وإن
أمسكها عنه لم يرسلها اليه أحد فمن أقبح التشبيه تشبيه هذا العاجز الفقير بالذات بالقادر
الغني بالذات ومن خصائص الالهية الكمال المطلق من جميع الوجوه الذي لا نقص فيه
يوجه من الوجوه وذلك يوجب أن تكون العبادة كلها له وحده والتعظيم والاجلال
والخشية والدعاء والرجاء والانابة والتوكل والاستعانة وغاية الذل مع غاية الحب كل ذلك
يجب عقلاً وشرعاً وفطرة أن يكون له وحده ويمنع عقلاً وشرعاً وفطرة أن يكون لغيره
فمن جعل شيئاً من ذلك لغيره فقد شبه ذلك الغير بمن لا شبيه له ولا ند له وذلك أقبح
التشبيه وأبطله ولشدة قبحه وتضمنه غاية الظلم أخبر سبحانه عباده انه لا يفقره مع انه كتب

على نفسه الرحمة ومن خصائص الالهية العبودية التي قامت على ساقين لا قوام لها بدونهما غاية الحب مع غاية الذل هذا تمام العبودية وتفاوت منازل الخلق فيها بحسب تفاوتهم في هذين الاصلين فمن أعطى حبه وذله وخضوعه لغير الله فقد شبه به في خالص حقه وهذا من المحال أن تأتي به شريعة من الشرائع وقبحه مستقر في كل فطرة وعقل ولكن غيرت الشياطين فطر أكثر الخلق وعقولهم وأفسدتها عليهم واحتالهم عنها وهضى على الفطرة الاولى من سبقت له من الله الحسني فارسل اليهم رسله وأنزل عليهم كتبه بما يوافق فطرهم وعقولهم فازدادوا بذلك نوراً على نور يهدي الله لنوره من يشاء اذا عرف هذا فمن خصائص الالهية السجود فمن سجد لغيره فقد شبه الخلق به ومنها التوكل فمن توكل على غيره فقد شبه به ومنها التوبة فمن تاب لغيره فقد شبه به ومنها الحلف باسمه تعظيماً وإجلالاً فمن حلف بغيره فقد شبه به هذا في جانب التشبيه وأما في جانب التشبه به فمن تعاطم وتكبر ودعا الناس الى اطرائه في المدح والتعظيم والخضوع والرجاء وتعليق القلب به خوفاً ورجاء والتجاء واستماعة فقد تشبه بالله ونازعه في ربوبيته وإلهيته وهو حقيق بأن يهينه غاية الهوان ويذله غاية الذل ويجعله تحت أقدام خلقه وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم قال يقول الله عز وجل العظمة إزارى والكبرياء ردائي فمن نازعني واحداً منهما عذبتة وإذا كان المصور الذي يصنع الصورة بيده من أشد الناس عذاباً يوم القيامة لتشبهه بالله في مجرد الصنعة فما الظن بالتشبه بالله في الربوبية والالهية كما قال النبي صلى الله عليه وسلم أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصورون يقال لهم أحيوا ما خلقتم وفي الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال قال الله عز وجل ومن أظلم ممن ذهب يخلق خلقاً فليرثه فليخلقوا ذرة فليخلقوا شعيرة فنبه بالذرة والشعيرة على ما هو أعظم منهما وأكبر والمقصود ان هذا حال من تشبه به في صنعة صورة فكيف حال من تشبه به في خواص ربوبيته وإلهيته وكذلك من تشبه به في الاسم الذي لا ينبغي إلا لله وحده كملك الاملاك وحاكم الحكام ونحوه وقد ثبت في الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال ان أختع الاسماء عند الله رجل يسمى بشاهان شاه ملك الملوك ولا ملك الا الله وفي لفظ أغنيظ رجل على الله رجل يسمى بملك الاملاك فهذا مقت الله وغضبه على من تشبه به في الاسم الذي لا ينبغي الا له فهو سبحانه ملك الملوك وحده وهو حاكم الحكام وحده فهو الذي يحكم على الحكام كلهم ويقضي عليهم كلهم لا غيره

﴿ فصل ﴾

إذ تبين هذا فهنا أصل عظيم يكشف سر المسألة وهو أن أعظم الذنوب عند الله إساءة الظن به فإن المسيء به الظن قد ظن به خلاف كماله المقدس فظن به ما يناقض أسماؤه وصفاته ولهذا توعد الله سبحانه الظانين به ظن السوء بما لم يتوعد به غيرهم كما قال تعالى عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيراً وقال تعالى لمن أنكر صفة من صفاته وذلك ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين وقال تعالى عن خليله إبراهيم إنه قال لقومه ماذا تعبدون أفكأ آلهة دون الله تريدون فما ظنكم برب العالمين أي فما ظنكم أي يجازيكم به إذا بقيتموه وقد عبدتم غيره وماذا ظننتم به حين عبدتم معه غيره وما ظننتم بأسماؤه وصفاته وربوبيته من النقص حتى أحوجكم ذلك إلى عبودية غيره فلو ظننتم به ما هو أهله من أنه بكل شيء عليم وهو على كل شيء قدير وأنه غني عن كل ماسواه وكل ماسواه فقير إليه وأنه قائم بالقسط على خلقه وأنه المنفرد بتدبير خلقه لا يشرك فيه غيره والعالم بتفاصيل الأمور فلا يخفي عليه خافية من خلقه والكافي لهم وحده فلا يحتاج إلى معين والرحمن بذاته فلا يحتاج في رحمته إلى من يستعطفه وهذا بخلاف الملوك وغيرهم من الرؤساء فانهم يحتاج إلى من يعرفهم أحوال الرعية وحوالهم وإلى من يعينهم على قضاء حوائجهم وإلى من يسترهم وإلى من يستعطفهم بالشفاعة فاحتاجوا إلى الوسائط ضرورة لحاجتهم وضعفهم وعجزهم وقصور علمهم فأما القادر على كل شيء الغني عن كل شيء الرحمن الرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء فادخل الوسائط بينه وبين خلقه نقص بحق ربوبيته وإلهيته وتوحيده وظن به ظن سوء وهذا يستحيل أن يشرعه لعباده ويمتنع في العقول والفطرو وقبحه مستقر في السليمة فوق كل قبيح يوضع هذا أن العابد معظم لمعبوده مثله خاضع ذليل له ورب تعالى وحده هو الذي يستحق كمال التعظيم والجلال والتأله والتذلل والخضوع وهذا خالص حقه فمن أقبح الظلم أن يعطى حقه لغيره أو يشرك بينه وبينه فيه ولا سيما الذي جعل شريكه في حقه هو عبده ومملوكه كما قال تعالى ضرب لكم مثلا من أنفسكم هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم الآية أي إذا كان أحدكم يأتف أن يكون مملوكه شريك له في رزقه فكيف يجعلون لي من عبيدي شركاء فيما أنا به متفرد وهو الإلهية التي لا تنبغي لغيري ولا تصح لسوائي فمن زعم ذلك فما قدرني حق قدري ولا عظمي حق عظمتي ولا أفردني بما أنا متفرد به وحدي دون خلقي فما قدر الله حق قدره من عبده معه غيره كما قال تعالى يا أيها الناس ضرب مثلا فاستمعوا له

إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له إلى قوله لقوي عزيز فما قدر الله حق قدره من عبد معه غيره من لا يقدر على خلق أضعف حيوان وأصغره وإن يسلبهم الذباب شيئاً مما عليه لم يقدرُوا على الاستعاذة منه قال تعالى وما قدرُوا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة الآية فما قدر من هذا شأنه وعظمته حق قدره من أشرك معه في عبادته من ليس له شيء من ذلك البتة بل هو أعجز شيء وأضعفه فما قدر القوي العزيز حق قدره من أشرك معه الضعيف الذليل وكذلك ما قدره حق قدره من قال أنه لم يرسل إلى خلقه رسولا ولا أنزل كتاباً بل نسيه إلى ملائيق به ولا يحسن منه من إهمال خلقه وتضييعهم وتركهم سدى وخلقهم باطلا عبثا وكذا ما قدره حق قدره من نفي حقائق أسمائه الحسنى وصفاته العلى فنفي سمعه وبصره وإرادته واختياره وعلوه فوق خلقه وكلامه وتكليمه لمن شاء من خلقه بما يريد ونفي عموم قدرته وتعلقها بأفعال عباده من طاعتهم ومعاصيهم فأخرجها عن قدرته ومشيتته وجمالهم يخلقون لأنفسهم ما يشاؤون بدون مشيئة الرب فيكون في ملكه ما لا يشاء ويشاء ما لا يكون فتعالى عن قوله أشباه المجوس علواً كبيراً وكذلك ما قدره حق قدره من قال أنه يعاقب عبده على ما لا يفعله عبده ولا له عليه قدرة ولا تأثير له فيه البتة بل هو نفس فعل الرب جل جلاله فيعاقب عبده على فعله فهو سبحانه الذي جبر العبد عليه وجبره على الفعل أعظم من أكره المخلوق للمخلوق وإذا كان من المستقر في الفطر والعقول إن السيد لو أكره عبده على فعل أو الجأء إليه ثم عاقبه عليه لكان قبيحاً فأعدل العادلين وأحكم الحاكمين وأرحم الراحمين كيف يجبر العبد على فعل لا يكون للعبد فيه صنع ولا تأثير ولا هو واقع بإرادته ولا فعله البتة ثم يعاقب عليه تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً وقول هؤلاء شر من أشباه قول المجوس والطائفتان ما قدر الله حق قدره وكذلك ما قدره حق قدره من لم يصنه عن نفي ولا حش ولا مكان يرغب عن ذكره بل جعله في كل مكان وصانه عن عرشه أن يكون مستويا عليه إليه تصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه وتخرج الملائكة والروح وتنزل من عنده وتدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم تخرج إليه فضائه عن استوائه على سرير الملك ثم جعله في كل مكان يأتف الإنسان بل غيره من الحيوان أن يكون فيه وما قدر الله حق قدره من نفي حقيقة محبته ورحمته ورأفته ورضاه وغضبه ومقته ولا من نفي حقيقة حكمته التي هي الغايات المحمودة المقصودة بفعله ولا من نفي حقيقة فعله ولم يجعل له فعلاً اختيارياً يقوم به بل أفعاله مفعولات متفصلة عنه فنفي حقيقة مجيئه وإتيانه واستوائه على عرشه وتكليمه موسى من جانب الطور ومجيئه يوم القيامة لفصل القضاء بين عباده بنفسه إلى غير ذلك من أفعاله وأوصاف كماله التي تفوها وزعموا أنهم بنفها قد قدروه حق قدره

وكذلك لم يقدره حق قدره من جعل له صاحبة وولداً وجعله سبحانه يحل في جميع مخلوقاته أوجله عين هذا الوجود وكذلك لم يقدره حق قدره من قال إنه رفع أعداء رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهل بيته وأعلى ذكرهم وجعل الله فيهم الملك والخلافة والعز ووضع أولياء رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهل بيته وأهائهم وأذلهم وضرب عليهم الذل أين ما تنقفوا وهذا يتضمن غاية القدح في جناب الرب تعالى عن قول الرافضة علواً كبيراً وهذا القول مشتق من قول اليهود والنصارى في رب العالمين إنه أرسل ملكاً ظالماً فادعانا النبوة لنفسه وكذب على الله وأخذ زماناً طويلاً يكذب على الله كل وقت ويقول قال كذا وأمر بكذا ونهى عن كذا وينسخ شرائع أنبيائه ورسوله ويستبيح دماء أتباعهم وأموالهم وحريمهم ويقول الله أباح لى ذلك والرب تعالى يظهره ويؤيده ويعليه ويقربه ويحجب دعواته ويمكنه ممن يخالفه ويقيم الأدلة على صدقه ولا يعاديه أحداً لظفر به فيصدق بقلوبه وفعله وتقريره وتحدث أدلة تصديقه شيئاً بعد شئ إلى يوم القيامة ومعلوم أن هذا يتضمن أعظم القدح والطعن في الرب سبحانه وتعالى وعلمه وحكمته ورحمته وربوبيته تعالى الله عن قول الجاحدين علواً كبيراً فوازن بين قول هؤلاء وقول إخوانهم من الرافضة تحمد القوانين كما قال الشاعر

رضيى لبان ندى أم تقاسما * بأسحم داج عوض لايتفرق

وكذلك لم يقدره حق قدره من قال أنه يجوز أن يعذب أولياءه ومن لم يعصه طرفه عين ويدخلهم دار النعيم وإن كل الأمرين بالنسبة إليه وإنما الخبر المحض جاء عنه بخلاف ذلك فعناء للخبر لاللمخالفة حكمته وعدله وقد أنكر سبحانه في كتابه على من جوز عليه ذلك غاية الإنكار وجعل الحكم به من أسوء الأحكام وكذلك لم يقدره حق قدره من زعم أنه لا يحيى الموتى ولا يبعث من في القبور ولا يجمع الخلق ليوم يجازى المحسن فيه بإحسانه والمسيء فيه بإساءته ويأخذ للمظلوم فيه حقه من ظالمه ويكرم للمتجملين المشاق في هذه الدار من أجله وفي مرضاته بأفضل كرامته ويبين لحقه الذى يختلفون فيه ويعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين وكذلك لم يقدره حق قدره من هان عليه أمره فعصاه ونهى فارتكبه وحقه فضيعه وذكره فاهمله وغفل قلبه عنه وكان هواه آثر عنده من طلب رضا وطاعة المخلوق أهم عنده من طاعة الله فلهذا الفضلة من قلبه وعلمه وقوله وعمله وماله وسواه المقدم في ذلك لانه المهم عنده يستخف بنظر الله إليه وإطلاعه عليه وهو في قبضته وناصيته بيده ويهظم نظر المخلوق إليه وإطلاعه عليه بكل قلبه وجوارحه ويستخفي من الناس ولا يستخفى من الله ويخشي الناس ولا يخشي الله ويعامل الخلق بأفضل ما عنده وما يقدر عليه وإن عادى

عامله باهون ماعنده واحفره وان قام في خدمة من يحبه من البشر قام بالجد والاجتهاد
بذل النصيحة وقد افرغ له قلبه وجوارحه وقدمه على كثير من مصالحه حتي اذا قام
بالحق ربه ان ساعد القدر قام قياماً لا يرضاه مخلوق من مخلوق مثله وبذل له من ماله ما يستحي
أن يواجه به مخلوق مثله فهل قدر الله حق قدره من هذا وصفه وهل قدره حق قدره
من شارك بينه وبين عدوه في محض حقه من الاجلال والتعظيم والطاعة والذل والخضوع
والخوف والرجاء فلو جعل له من أقرب الخلق اليه شريكاً في ذلك لكان ذلك جراءة
وتوابعاً على محض حقه واستهانة به وتشريكاً بينه وبين غيره فيما لا ينبغي ولا يصلح الا له سبحانه
فكيف وإنما اشرك معه بعض الخلق اليه وأهونهم عليه وأمة منهم عنده وهو عدوه على الحقيقة
فانه ما عبد من دون الله الا الشيطان كما قال تعالى ألم أعهد اليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان
لانه لكم عدو مبين وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم ولما عبد المشركون الملائكة بزعمهم
وقعت عبادتهم للشيطان وهم يظنون أنهم يعبدون الملائكة كما قال تعالى ويوم نحشرهم جميعاً ثم
نقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا
يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون فالشيطان يدعو المشركين الى عبادته ويوهمهم
أنه ملك كذلك عباد الشمس والقمر والكواكب يزعمون أنهم يعبدون روحانيات
هذه الكواكب وهي التي تخاطبهم وتقضي لهم الحوائج ولهذا اذا طلعت الشمس قارنها
الشيطان فيسجد لها الكفار فيقع سجودهم له وكذلك عند غروبها وكذلك من عبد
المسيح وأمه لم يميدها وإنما عبد الشيطان فانه يزعم أنه يعبد من أمره بعبادته وعبادة
أمه ورضيها لهم وأمرهم بها وهذا هو الشيطان الرجيم لعنة الله عليه لا عبد الله ورسوله
صلى الله عليه وسلم فبدل هذا كله على قوله تعالى ألم أعهد اليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا
الشيطان لانه لكم عدو مبين وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم فما عبد أحد من
بني آدم غير الله كأنه من كان الا وقعت عبادته للشيطان فيستمتع العابد بالمعبود في حصول
إغراضه ويستمتع المعبود بالعابد في تعظيمه له وإشراكه مع الله الذي هو غاية رضاء
الشيطان ولهذا قال تعالى ويوم نحشرهم جميعاً يامعشر الجن قد استكثرتم من الانس أي
من إغوائهم وإضلالهم وقال أولياؤهم من الانس ربنا استمتع بعضنا ببعض وإغنا أجلتنا
الذي أجلت لنا قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله ان ربك حكيم عليم فهذه إشارة
لطيفة الى السر الذي لا جلاله كان الشرك أكبر الكبائر عند الله وانه لا يغفره بغير التوبة
منه وانه يوجب الخلود في النار وانه ليس بتحريمه وقبحه بمجرد الذم عنه بل يستحيل
على الله سبحانه أن يشرع لعباده إلهاً غيره كما يستحيل عليه ما يناقض أوصاف كمال ونعوت

جلاله وكيف يظن بالتفرد بالربوبية والالهية والعظمة والاجلال أن يأذن في مشاركته في ذلك أو يرضي به تعالى الله ذلك علوا كبيرا

❦ فصل ❦

فلما كان الشرك أكبر شيء منافاة للأمر الذي خلق الله له الخلق أمر لاجله بالامر الذي كان من أكبر الكبائر عند الله وكذلك الكبر وتوابعه كما تقدم فان الله سبحانه خلق الخلق وأنزل الكتاب لتكون الطاعة له وحده والشرك والكبر ينفيان ذلك ولذلك حرم الله الجنة على أهل الشرك والكبر ولا يدخلها من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر

❦ فصل ❦

ويلى ذلك في كبر المفسدة القول على الله بلا علم في أسمائه وصفاته وأفعاله ووصفه بضد ما وصف به نفسه ووصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم فهذا أشد شيء منافاة ومناقضة لكمال من له الخلق والامر وقدح في نفس الربوبية وخصائص الرب فان صدر ذلك عن علم فهو عناد أقبح من الشرك وأعظم إثماً عند الله فان المشرك المقر بصفات الرب خير من المعطل الجاحد لصفات كماله كما أن من أقر بالملك للملك ولم يجحد ملكه ولا الصفات التي استحق بها الملك لكن جعل معه شريكا في بعض الامور تقرباً اليه خير ممن جحد صفات الملك وما يكون به الملك ما كان هذا أمر مستقر في سائر الفطر والعقول فإين القدح في صفات الكمال والجحد لها من عبادة واسطة بين المعبود الحق وبين العابد يتقرب اليه بعبادة تلك الواسطة إعظاماً له وإجلالاً فداء التعطيل هذا الداء العضال الذي لادواء له ولهذا حكى الله عن امام المعطلة فرعون أنه أنكر على موسى ما أخبر به من أن ربه فوق السموات ياها مان ابن لي صرحا لعلی أبلغ الاسباب أسباب السموات فاطلع الى إله موسى وإني لاطنه كاذباً واحتج الشيخ أبو الحسن الأشعري في كتبه على المعطلة بهذه الآية وقد ذكرنا لفظه في غير هذا الكتاب وهو كتاب اجتماع الحيوش الاسلامية على حرب المعطلة والجهمية في إثبات العلوم والقول على الله بلا علم والشرك متلازمان ولما كانت هذه البدع المضلة جهلا بصفات الله وتكذيباً بما أخبر به عن نفسه وأخبر به عنه رسوله صلى الله عليه وسلم عناداً وجهلاً كانت من أكبر الكبائر ان قصرت عن الكفر وكانت أحب الى إبليس من كبار الذنوب كما قال بعض السلف البدعة أحب الى إبليس من المعصية لان المعصية يتاب منها والبدعة لا يتاب منها وقال إبليس لعنه الله أهلك بني آدم بالذنوب وأهلكوني بلا إله الا الله والاستغفار فلما رأيت ذلك

ثبتت فيهم الاهواء فهم يذنبون ولا يتوبون لانهم يحسبون انهم يحسنون صنعا ومعلوم أن المذنب انما ضرره على نفسه وأما المبتدع فضرره على النوع وفتنة المبتدع في أصل الدين وفتنة المذنب في الشهوة والمبتدع قد قعد للناس على صراط الله المستقيم يصددهم عنه والمذنب ليس كذلك والمبتدع قادح في أوصاف الرب وكأله والمذنب ليس كذلك والمبتدع مناقض لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم والعاصي ليس كذلك والمبتدع يقطع على الناس طريق الآخرة والعاصي يطيء السير بسبب ذنوبه

❦ فصل ❦

ثم لما كان الظلم والعدوان منافيان للعدل الذي قامت به السموات والارض وأرسل الله سبحانه رسله صلى الله عليه وسلم وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط كان أي الظلم من أكبر الكبائر عند الله وكانت درجته في العظمة بحسب مفسدته في نفسه وكأن قتل الانسان ولده الطفل الصغير الذي لا ذنب له وقد جبل الله سبحانه القلوب على محبته ورحمته وعطفها عليه وخص الوالدين من ذلك بمزية ظاهرة وقتله خشية أن يشاركه في مطعمه ومشربه وماله من أقبح الظلم وأشدّه وكذلك قتله أبويه الذين كانا سبب وجوده وكذلك قتله ذات رحمه وتتفاوت درجات القتل بحسب قبحه وإستحقاق من قتله السعي في إيقائه ونصيحته وإهذا كان أشد الناس عذاباً يوم القيامة من قتل نبياً أو قتله نبي ويديه من قتل إماماً عادلاً أو عالماً يأمر الناس بالقسط ويدعوهم إلى الله سبحانه وينصحهم في دينهم وقد جعل الله سبحانه جزاء قتل النفس المؤمنة عمداً الخلود في النار وغضب الحيار لعنته وإعداد العذاب العظيم له هذا موجب قتل المؤمن عمداً ما لم يمنع منه مانع ولا خلاف أن الاسلام الواقع بعد القتل طوعاً واختياراً مانع من نفوذ ذلك الجزاء وهل تمنع توبة المسلم منه بعد وقوعه فيه قولان للسلف والخلف وهما روايتان عن أحمد والذين قالوا لا تمنع التوبة من نفوذه رأوا أنه حق لا دمي لم يستوفه في دار الدنيا وخرج منه بظلامته فلا بد أن يستوفي له في دار العدل قالوا فما استوفاه الوارث فأنما استوفي محض حقه الذي خيره الله بين استيفائه والعفو عنه وما ينفع المقتول من استيفاء وارثه وأي استدراك لظلامته حصل له باستيفاء وارثه وهذا أصح القولين في المسألة أن حق المقتول لا يسقط باستيفاء الوارث وهي وجهان لأصحاب الشافعي وأحمد وغيرها ورأت طائفة أنه يسقط بالتوبة واستيفاء الوارث فإن التوبة تهدم ما قبلها والذنب الذي قد جنّاه قد أقيم عليه حده قالوا وإذا كانت التوبة تمحو أثر الكفر والسحر وهما أعظم انما من القتل فكيف تقصر عن محو أثر القتل وقد قبل الله توبة الكفار الذين قتلوا أولياءهم وجعلهم

من خيار عبادہ ودعا الذين أحرقوا أولياءهم وقتوهم عن دينهم ودعاهم إلى التوبة وقال تعالى يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا وهذا في حق النائب وهي تناول الكفر فما دونه قالوا وكيف يتوب العبد من الذنب ويعاقب عليه بعد التوبة هذا معلوم انتفاؤه في شرع لله وجزائه قالوا وتوبة هذا المذنب تسليم نفسه ولا يمكن تسليمها إلى المقتول فأقام الشارع وليه مقامه وجعل تسليم النفس إليه كتسليمها إلى المقتول بمنزلة تسليم المال الذي عليه لوارثه فإنه يقوم مقام تسليمه للموروث والتحقيق في المسألة أن القتل يتعلق به ثلاثة حقوق حق لله وحق للمظلوم المقتول وحق للولي فإذا سلم القاتل نفسه طوعا واختياراً إلى الولي ندماً على ما فعل وخوفاً من الله وتوبة نصوحاً يسقط حق الله بالتوبة وحق الولي بالاستيفاء أو الصلح أو العفو وبقي حق المقتول يعوضه الله عنه يوم القيامة عن عبده النائب المحسن ويصلح بينه وبينه فلا يبطل حق هذا ولا تبطل توبة هذا وأما مسألة المال فقد اختلف فيها فقالت طائفة إذا أدي ما عليه من المال إلى الوارث فقد بريء من عهده في الآخرة كما بريء منها في الدنيا وقالت طائفة بل المطالبة لمن ظلمه بأخذه باقية عليه يوم القيامة وهو لم يستدرك ظلامته بأخذ وارثه له فإنه منعه من انتفاعه به في طول حياته ومات ولم ينتفع به فهذا ظلم لم يستدركه وإنما ينتفع به غيره بادراكه وبنوا هذا على أنه لو انتقل من واحد إلى واحد وتعدد الورثة كانت المطالبة للجميع لأنه حق كان يجب عليه دفعه إلى كل واحد منهم عند كونه هو الوارث وهذا قول طائفة من أصحاب مالك وأحمد وفصل شيخنا رحمه الله بين الطائفتين فقال إن تمكن الموروث من أخذ ماله والمطالبة به فلم يأخذه حتى مات صارت المطالبة به للوارث في الآخرة كما هي له كذلك في الدنيا وإن لم يتمكن من طلبه وأخذه بل حال بينه وبينه ظلماً أو عدواناً فالطلب له في الآخرة وهذا التفصيل من أحسن ما يقال فإن المال إذا استهلكه الظالم على الموروث وتعدراً أخذه منه صار بمنزلة عبده الذي قتله قاتل وداره التي أحرقها غيره وطعامه وشرابه الذي أكله وشربه غيره ومثل هذا إنما تلف على الموروث لا على الوارث فحق المطالبة لمن تلف على ملكه فينبغي أن يقال فإذا كان المال عقاراً أو أرضاً أو أعياناً قائمة باقية بعد الموت فهي ملك للوارث يجب على الغاصب دفعها إليه كل وقت وإذا لم تدفع إليه أعيان ماله استحق المطالبة بها عند الله تعالى كما يستحق المطالبة بها في الدنيا وهذا سؤال قوى لا مخلص منه إلا بان يقال المطالبة لهما جميعاً كما لو غصب مالا مشتركاً بين جماعة استحق كل منهم المطالبة بحقه منه وكما لو استولى على وقف مراتب على بطون فأبطل حق البطون كلهم منه كانت المطالبة يوم القيامة لجميعهم

ولم يكن بعضهم أولى بها من بعض والله أعلم

- فصل -

ولما كانت مفسدة القتل هذه المفسدة قال الله تعالى من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً وقد أشكل فهم هذا على كثير من الناس وقالوا معلوم أن إثم قاتل مائة أعظم إثمًا عند الله من إثم قاتل نفس واحدة وإنما أتوا من ظنهم أن التشبيه في مقدار الإثم والعقوبة والقول لم يدل على هذا ولا يلزم من تشبيه الشيء بالشيء أخذه بجميع أحكامه وقد قال تعالى كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها وقال تعالى كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار وذلك لا يوجب أن لبثهم في الدنيا إنما كان هذا المقدار وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم من صلى العشاء في جماعة فكأنما قام نصف الليل ومن صلى الفجر في جماعة فكأنما قام الليل كله أي مع العشاء كما جاء في لفظ آخر وأصرح من هذا قوله من صام رمضان وأتبعه ستاً من شوال فكأنما صام الدهر وقوله صلى الله عليه وسلم من قرأ قل هو الله أحد فكأنما قرأ ثلث القرآن ومعلوم أن ثواب فاعل هذه الأشياء لم يبلغ ثواب المشبه به فيكون قدرها سواء ولو كان قدر الثواب سواء لم يكن لمصلي الفجر والعشاء في جماعة في قيام الليل منفعة غير التعب والنصب وما أوتي أحد بعد الإيمان أفضل من الفهم عن الله وعن رسوله صلى الله عليه وسلم وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء فإن قيل ففي أي شيء وقع التشبيه بين قاتل نفس واحدة وبين قاتل الناس جميعاً قيل في وجوه متعددة أحدها أن كل واحد منهما عاص لله ورسوله صلى الله عليه وسلم مخالف لامره متعرض لعقوبته وكل منهما قذباء بغضب من الله ولعنته واستحقاق الخلود في نار جهنم وأعد لهم عذاباً عظيماً وإن تفاوتت درجات العذاب فليس إثم من قتل نبياً أو إماماً عادلاً أو عالماً يأمر الناس بالقسط كمن قتل من لامرئيه له من آحاد الناس الثاني أنهما سواء في استحقاق ازهاق النفس الثالث أنهما سواء في الجراءة على سفك الدم الحرام فإن من قتل نفساً بغير استحقاق بل لمجرد الفساد في الأرض ولأخذ ماله فإنه يجزى على قتل كل من ظفر به وأمكنه قتله فهو معاد للتنوع الإنساني ومنها أنه يسمى قاتلاً أو فاسقاً أو ظالماً أو عاصياً بقتله واحداً كما يسمى كذلك بقتله الناس جميعاً ومنها أن الله سبحانه جميل المؤمنين في تواددهم وتراحيمهم وتعاطفهم وتواصلهم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له

سائر الجسد بالحمل والدم فاذا أتانف القاتل عضوا من ذلك الجسد فكانما أتلف سائر الجسد
وآلم جميع أعضائه فمن أذى مؤمناً واحداً فقد أذى جميع المؤمنين وفي أذى جميع المؤمنين
أذى جميع الناس كأنهم فان الله إنما يدافع عن الناس بالمؤمنين الذين بينهم فايداء الجفير ايداء
المخفر وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لا تقتل النفس ظالماً بغير حق ألا كان على ابن آدم
الاول كفل منها لانه أول من سن القتل ولم يحجى هذا الوعيد في أول زان ولا أول سارق
ولا أول شارب مسكر وإن كان أول المشركين قد يكون أولى بذلك من أول قاتل لانه أول
من سن الشرك وهذا رأي النبي صلى الله عليه وسلم عمرو بن لحي الخزاعي يعذب أعظم
العذاب في النار لانه أول من غير دين ابراهيم عليه السلام وقد قال تعالى ولا تكونوا
أول كافر به أي فيقتدي بكم من بعدكم فيكون أثم كفره عليكم وكذلك حكم من سن سنة
سيئة فاتبع عليها وفي جامع الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله
عليه وسلم قال يحجى المقتول بالقاتل يوم القيامة ناصيته ورأسه بيده واوداجه تشخب
دماً يقول يارب سل هذا فيما قتاني فذكروا لابن عباس التوبة قتلى هذه الآية
ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها ثم قال ما نسخت هذه الآية ولا بدلت
وأني له التوبة قال الترمذي هذا حديث حسن وفي صحيح البخاري عن سمرة بن جندب
قال أول ما يتن من الانسان بطنه فمن استطاع منكم أن لا يأكل الا طيباً فليفعل ومن
استطاع أن لا يحول بينه وبين الجنة ملاء كف من دم أهرقه فليفعل وفي جامع الترمذي
عن نافع قال نظر عبد الله بن عمر يوماً الى الكعبة فقال ما أعظمك وأعظم حرمتك
والمؤمن عند الله أعظم حرمة منك قال الترمذي هذا حديث حسن وفي صحيح البخاري
أيضاً عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يزال المؤمن في فسحة من
دينه ما لم يصب دماً حراماً وذكر البخاري أيضاً عن ابن عمر قال من ورطت الامور
التي لا يخرج لمن أوقع نفسه فيها سفك الدم الحرام بغير حيلة وفي الصحيحين عن أبي
هريرة يرفعه سباب المؤمن فسوق و قتاله كفر وفيهما أيضاً عنه صلى الله عليه وسلم لا ترجعوا
بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض وفي صحيح البخاري عنه صلى الله عليه وسلم
من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة وإن ربحها يوجد مسيرة أربعين عاماً هذه عقوبة قاتل
عدو الله إذا كان معاهداً في عهده وأمانه فكيف بعقوبة قاتل عبده المؤمن وإذا كانت امرأة
قد دخلت النار في هرة حبستها حتى ماتت جوعاً وعطشاً فرأها النبي صلى الله عليه وسلم في
النار والهرة تحبشها في وجهها وصدرها فكيف بعقوبة من حبس مؤمناً حتى مات بغير جرم
وفي بعض السنن عنه صلى الله عليه وسلم لزوال الدنيا أهون على الله من قتل مؤمن بغير حق

فصل

ولما كانت مفسدة الزنا من أعظم المفاسد وهي منافية لصلحة نظام العالم في حفظ الانساب وحماية الفروج وصيانة الحرمات وتوقي ما يوقع أعظم العداوة والبغضاء بين الناس من إفساد كل منهم امرأة صاحبه وبنته وأخته وأمه وفي ذلك خراب العالم كانت تلي مفسدة القتل في الكبر ولهذا قرنها الله سبحانه بها في كتابه ورسوله صلى الله عليه وسلم في سننه كما تقدم قال الامام أحمد ولا أعلم بعد قتل النفس شيئاً أعظم من الزنا وقد أكد سبحانه حرمة بقوله والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا ياتلون النفس التي حرم الله الإباحة ولا يزنون الآية فقرن الزنا بالشرك وقتل النفس وجعل جزاء ذلك الخلود في النار في العذاب المضاعف للمهين ما لم يرفع العبد وجب ذلك بالزوبة والايان والعمل الصالح وقد قال تعالى ولا تقرنوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلاً فاخبر عن فحشه في نفسه وهو القبيح الذي قد تنهاه فحبه حتى استقر فحشه في العقول حتى عند كثير من الحيوانات كما ذكر البخاري في صحيحه عن عمرو بن ميمون الاودي قال رأيت في الجاهلية قرداً زناً بقردة فاجتمع القرد وعليه ما فرجوها حتى ماتا ثم أخبر عن غايته بأنه ساء سبيلاً فانه سبيل هلكة وبورار وافتقار في الدنيا وسبيل عذاب في الآخرة وخزي ونكال ولما كان نكاح أزواج الآباء من أقبحه خصه بمزيد ذم فقال أنه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلاً وعلق سبحانه فلاح العبد على حفظ فرجه منه فلا سبيل له الى الفلاح بدونه فقال قد أفاح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون الى قوله فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون وهذا يتضمن ثلاثة أمور من لم يحفظ فرجه لم يكن من المفاجين وانه من الملوين ومن العادين ففاته الفلاح واستحق اسم العدوان ووقع في اللوم فمقاسة ألم الشهوة ومماناتها أيسر من بعض ذلك ونظير هذا أنه ذم الانسان وأنه خالق هلوع لا يصب على شرو ولا خير بل إذا مسه الخير منع وبخل وإذا مسه الشر جزع الامن استثناء بعد ذلك من الناجين من خلقه فذكر منهم الذين هم افروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فانهم غير ملومين فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون وأمر الله تعالى نبيه أن يأمر المؤمنين بنقض أبصارهم وحفظ فروجهم وأن يعلمهم أنه مشاهد لأعمالهم مطلع عليها يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ولما كان مبدأ ذلك من قبل البصر جعل الامر بنفسه مقدماً على حفظ الفرج فان الحوادث مبدأها من النظر كما أن معظم النار مبدأها من مستصغر الشرر ثم تكون نظارة ثم تكون خطرة ثم خطوة ثم خطيئة وهذا قيل من حفظ الأربعة أحرز دينه الاحفظات والخطرات والخطوات فينبغي للعبد أن يكون

بواب نفسه على هذه الابواب الاربعة ويلتزم الرباط على ثغورها فنها يدخل عليه العدو فيجوس خلال الديار ويتبرماعلواتبيرا

فصل

وأكثر ما يدخل المعاصي على العبد من هذه الابواب الاربعة فنذكر في كل واحد منها فصلاً يليق به فاما اللحظات فهي رائد الشهوة ورسواها وحفظها أصل حفظ الفرج فمن أطلق نظره أوردته موارد الهلاك وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم يا علي لا تتبع النظرة النظرة فانما لك الاولى وليست لك الثانية وفي المسند عنه صلى الله عليه وسلم النظرة سهم مسموم من سهام إبليس فمن غض بصره عن محاسن امرأة أو أمرد لله أورث الله في قلبه حلاوة العباداة الى يوم القيامة هذا معنى الحديث وقال غنصوا أبصاركم واحفظوا فروجكم وقال إياكم والجلوس على الطرقات قالوا يا رسول الله مجالسنا ما نأبد منها قال فان كنتم لا بد فاعلين فاعطوا الطريق حقه قالوا وما حقه قال غض البصر وكف الاذي ورد السلام والنظر أصل عامة الحوادث التي تصيب الانسان فان النظرة تولد خطرة ثم تولد الخطرة ففكرة ثم تولد الفكرة شهوة ثم تولد الشهوة إرادة ثم تقوى فتصير عزيمة جازمة فيقع الفعل ولا بد ما لم يمنع منه مانع وفي هذا قيل الصبر على غض البصر أيسر من الصبر على ألم ما بعده واهذا قال الشاعر

كل الحوادث مبداها من النظر * ومعظم التار من مستصغر الشرر
كم نظرة بلغت في قلب صاحبها * كم باغ السهم بين القوس والوتر
والعبد مادام ذا طرف يقلبه * في أعين العين موقوف على الخطر
يسر مقاته ماضر مهجته * لا مرجحاً يسرور عاد بالضرر
ومن آفاته أنه يورث الحسرات والزفريات والحرقات فيري العبد ما ليس قادراً عليه ولا صابراً
عنه وهذا من أعظم العذاب أن ترى ما لا صبر لك عنه ولا عن بعضه ولا قدرة لك عليه قال الشاعر
وكنتم متى أرسلت طرفك رائداً * لقلبك يوماً أتعبتك المناظر
رأيت الذي لا كله أنت قادر * عليه ولا عن بعضه أنت صابر
وهذا البيت يحتاج الى شرح ومراده أنك ترى ما لا تصبر عن شيء منه ولا تقدر عليه فان قوله لا كله أنت قادر عليه اني لقدرة على الكل الذي لا يتقني إلا بنفي القدرة عن كل واحد واحد وكم من مرسل لحظاته فأقلعت إلا وهو يتشحط بينهن قتيلاً كما قيل
يا ناظرأ ما أقلعت لحظاته * حتى تشحط بينهن قتيلاً

ولى من أبيات

مل السلامة فاغدت لحظاته * وقفا على طال يظن جيلا
مازال يتبع أثره لحظاته * حتى تشحط بينهن قتيلا
ومن العجب أن لحظة الناظر لهم لا يصل الى المنظور اليه حتى يتبوء مكانا من قلب الناظر
ولى من قصيدة

ياراميا بسهام اللحظ مجتهدا * أنت القاتل بما ترمي فلا نصب
وباعث الطرف يرتاد الشفاه * أحبس رسولك لا يأتيك بالمعطب
وأعجب من ذلك أن نظرة تخرج انقباب جرحا فيتبعها جرح على جرح ثم لا يتمتع ألم الجراحة
من استدعا تكرارها ولى أيضاً في هذا المعنى

مازالت تتبع نظرة في نظرة * في أثر كل مديحة ومياح
وتظن ذلك دواء جرحك وهو في * تحقيق تخرج على تخرج
فذهبت طرفك بالمحافظ وبالبا * فالقالب منك ذبيح أي ذبيح
وقد قيل إن جنس اللحظات أيسر من دوام الحسرات

فصل ❧ ❧

وأما الخطرات فشأنها أصعب فإنها مبدأ الخير والشر ومنها تتولد الارادات والهمم
والعزائم فمن راعي خطراته ملك زمام نفسه وقهر هواه ومن غلبته خطراته فهو هواه ونفسه
له أغلب ومن استهان بالخطرات قاده قهراً إلى الهلكات ولا تزال الخطرات تتردد على القلب
حتى تصير مني باطلة كسراب بقيمة يحسبه الظمان ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد
الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب وأحسن الناس همة وأوضعهم نفساً من رضى
من الحقائق بالاماني الكاذبة واستجابها لنفسه وتحلى بها وهي لعمري رأس من أموال
المفلسين ومتاجر الباطلين وهي قوة النفس الفارغة التي قد نعتت من الوصل بزورة الخيال
ومن الحقائق بكواذب الآمال كما قال الشاعر

أما من سعد رواء على الظما سقنا بها سعداً على ظمء بردا
مني إن تكن حقا تكن أحسن المني والا نقد عشنا بها زمناً رغدا

وهي أضر شئ على الانسان وتولد من العجز والكسل وتولد التفريط والاضاعة والحسرة
والندامة والمتعني لما فاتته مباشرة الحقيقة يحسبه تحت صورتها في قلبه وعانقها وضمها اليه
فقتع بوصول صورة وهمية خالية صورها فكره وذلك لا يجدي عليه شيئاً وإنما مثله مثل

الجائع والظمآن يصور في وهمه صرورة الطعام والشراب وهو يأكل ويشرب والسكون به الى ذلك واستجلا به يدل على خساسة النفس ووضاعتها وانما شرف النفس وزكاتها وطهارتها وعلوها بأن تنفي عنها كل خطرة لا حقيقة لها ولا ترضى أن يخطرها بباله ويأتف لنفسه منها ثم الخطرات بعد انقسام تدور على أربعة أصول خطرات يستجلب بها العبد منافع دنياه وخطرات يستدفع بها مضار دنياه وخطرات يستجاب بها مصالح آخرته وخطرات يستدفع بها مضار آخرته فليحصر العبد خطراته وأفكاره وهمومه في هذه الاقسام الاربعة فاذا انحصرت له فيها فما أمكن اجتماعها منها لم يتركه لغيره واذا تراحت عليه الخطرات كتزاحم متعلقاتها قدم الاله فالاهم الذي يخشى فوته وأخر الذي ليس باهم ولا يخاف فوته بقى قسمان آخران أحدهما مهم لا يفوت والثاني غير مهم ولكنه يفوت ففي كل منهما يدعو الى تقديمه فهنا يقع التردد والحيرة فيه فان قدم الاله خشي فوات مادونه وان قدم مادونه فانه الاشتغال به عن المهم وذلك بأن يعرض له أمران لا يمكن الجمع بينهما ولا يحصل أحدهما الا بتفويت الآخر فهو موضع استعمال العقل والفقه والمعرفة ومن ههنا ارتفع من ارتفع وأنجح من أنجح وخاب من خاب فأكثر من ترى ممن يعظم عقله ومعرفته يؤثر غير المهم الذي لا يفوت على المهم الذي يفوت ولا يجد أحداً يسلم من ذلك ولكن مستقل ومستكثر والتحكيم في هذا الباب لا لمعدة الكبرى التي يكون عليها مدار الشرع والقدر واليه يرجع الخلق والامر وهي إشار أكبر المصاحبين وأعلامها وإن قامت المصلحة التي هي دونها والدخول في أدنى المفسدين لدفع ما هو أكبر منهما فتفوت مصلحة التحصيل ما هو أكبر منهما ويرتكب مفسدة لدفع ما هو أعظم منها فخطرات العقل وفكره لا يتجاوز ذلك وبذلك جاءت الشرائع ومصالح الدنيا والآخرة لا تقوم الا على ذلك وأعلى الفكر وأجلاء وأنفها ما كان لله والدار الآخرة فما كان لله فهو أنواع (الاول) الفكرة في آياته المنزلة وتعظيمها وفهمها وفهم مراده منها ولذلك أنزلها الله تعالى المجرد تلاوتها بل التلاوة وسيلة قال بعض السلف أنزل القرآن ليعمل به فتحذوا تلاوته عملاً (الثاني) الفكرة في آياته المشهودة والاعتبار بها والاستدلال بها على أسمائه وصفاته وحكمته وإحسانه وبره وجوده وقد حث الله سبحانه عباده على التفكير في آياته وتدبرها وتعظيمها وذم الغافل عن ذلك (الثالث) الفكرة في آياته وإحسانه وإنعامه على خلقه باصناف النعم وسعة مغفرته ورحمته وحلمه وهذه الانواع الثلاثة تستخرج من القلب معرفة الله ومحبه وخوفه ورجاءه ودوام الفكرة في ذلك مع الذكر يصبغ القلب في المعرفة والمحبة صبغة تامة (الرابع) الفكرة في عيوب النفس وآفاتا وفي عيوب العمل وهذه الفكرة عظيمة النفع وهذا باب

لكل خير وتأثيرها في كسر النفس الامارة بالسوء ومتى كسرت عاشت النفس المطمئنة وانتعشت وصار الحكم لها في القاب ودارت كلمته في مملكته وبث أمراءه وجنوده في مصالحه (الخامس) الفكرة في واجب الوقت ووظيفته وجمع الهم كله عليه فالعارف ابن وقته فان أضاعه ضاعت عليه مصالحه كلها فجميع المصالح إنما تنشأ من الوقت فتى أضاع الوقت لم يستدركه أبداً قال الشافعي رضى الله عنه صحبت الصوفية فلم أستفد منهم سوى حرفين أحدهما قولهم الوقت سيف فان لم تقطعه قطعك وذكر الكلمة الاخرى ونفسك إن أشغلتها بالحق والا شغلتك بالباطل فوقت الانسان هو عمره في الحقيقة وهو مادة حياة الابدية في النعيم المقيم ومادة المعيشة الضنك في العذاب الاليم وهو يمر أسرع من مر السحاب فما كان من وقته لله وبالله فهو حياته وعمره وغير ذلك ليس محسوباً من حياته وان عاش فيه عيش البهائم فاذا قطع وقته في الغفلة والشهوة والاماني الباطلة وكان خير ماقطعه بالنوم والبطالة فموت هذا خير له من حياته واذا كان العبد وهو في الصلاة ليس له من صلاته الا ماعقل منها فليس له من عمره إلا ما كان فيه بالله وله وما عدا هذه الأقسام من الخطرات والفكر فأما وساوس شيطانية وإما أماني باطلة وخدع كاذبة بمنزلة خواطر المصابين في عقولهم من السكارى والمحشوشين والموسوسين ولسان حال هؤلاء يقول عند انكشاف الحقائق

إن كان منزاتي في الحب عنكم * ما قد لقيت فقد ضيعت أيامي

أمنية ظفرت نفسي بها زمتنا * واليوم احسبها أضغاث أحلام

وأعلم ان ورود الخاطر لا يضر وإنما يضر استدعاؤه ومحدثته فالخاطر كالمار على الطريق فان لم تستدعه وتركته مروا ونصرف عنك وان استدعيت سحرك بمحدثه وخدعه وغروره وهو أخف شيء على النفس الفارغة الباطلة وأثقل شيء على القاب والنفس الشريفة السماوية المطمئنة وقد ركب الله سبحانه في الانسان نفسيين نفساً أمارة ونفساً مطمئنة وهما متعاديتان فكما خف على هذه ثقل على هذه وكلما التذت به هذه تأملت به الاخرى فليس على النفس الامارة أشق من العمل لله وإيثار رضاه على هواها وليس لها أنفع منه وكذا ليس على النفس المطمئنة أشق من العمل لغير الله وأجابة داعي الهوى وليس عليها شيء أضر منه والملك مع هذه عن يمين القلب والشيطان مع تلك عن يسرة القاب والحروب مستمرة لا تضع أوزارها الا أن تستوفي أجها من الدنيا والباطل كله يتحيز مع الشيطان والامارة والحق كله يتحيز مع الملك والمطمئنة والحرب دول وسجال وانصبر مع الصبر ومن صبر وصابر وربط وانقى الله فله العاقبة في الدنيا والآخرة وقد حكم الله تعالى حكماً لا يبدل أبداً أن

العاقبة للتقوي والعاقبة للمتقين فالقلب لوح فارغ والخواطر نقوش تنقش فيه فكيف يليق بالعاقل أن يكون نقوش لوحه ما بين كذب وغرور وخدع وأمانى باطلة وسراب لاحقيقة له فأني حكمة وعلم وهدي ينتقش مع هذه النقوش وإذا أراد أن ينقش ذلك في لوح قلبه كان بمنزلة كتابة العلم النافع في محل مشغول بكتابة مالا منفعة فيه فان لم يفرغ القلب من الخواطر الردية لم يستقر فيه الخواطر النافعة فانها لا تستقر إلا في محل فارغ كما قيل
أناي هواها قبل أن أعرف الهوي فصادف قلباً خاليا فتمكنا

ولهذا كثير من أرباب السلوك بنوا سلوكهم على حفظ الخواطر وان لا يمكنوا خطراً يدخل قلوبهم حتي تصير القلوب فارغة قابضة للكشف وظهور حقائق العلويات فيها وهؤلاء حفظوا شيئاً وغابت عنهم أشياء فانهم أدخلوا القلوب من أن يطرقها خاطر فبقيت فارغة لأشياء فيها فصادفها الشيطان خالية فبذر فيها الباطل في قوالب وهمهم أنها أعلى الأشياء وأشرفها وعوضهم بها عن الخواطر التي هي مادة العلم والهدي وإذا دخل القلب عن هذه الخواطر جاء الشيطان فوجد المحل خاليا فشغله بما يناسب حال صاحبه حيث لم يستطع أن يشغله بالخواطر السفالية فكيف بالعلوية فشغله بأرادة التجريد والفراغ من الإرادة التي لأصلاح للأبد ولا فلاح إلا بأن تكون هي المستولية على قلبه وهي إرادة مراد الله الديني الامر الذي يحبه ويرضاه وشغل القلب واهتمامه بمعرفته على التفصيل به والقيام به وتنفيذه في الخلق والتطرق الى ذلك والتوصل اليه بالدخول في الخلق لتنفيذه فيرطلهم الشيطان عن ذلك بأن دعاهم الى تركه وتعطيله من باب الزهد في خواطر الدنيا واسبابها واوهمهم أن كمالهم في ذلك التجريد والفراغ وهيئات هيئات إنما الكمال في اجلاء القلب والسر من الخواطر والارادات والفكر في تحصيل مرضى الرب تعالى من العبد ومن الناس والفكر في طرق ذلك التوصل اليه فأكمل اناس أكثرهم خواطر وفكر أو إرادات لذلك كما إن أنقص الناس أكثرهم خواطر وفكر أو إرادات لحظوظه وهواه أين كانت والله المستعان وهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه كانت تتراحم عليه الخواطر في مرضات الرب تعالى فربما استعملها في صلاته فكان يجهز جيشه وهو في صلاته فيكون قد جمع بين الصلاة والجهاد وهذا من باب تداخل العبادات في العبادة الواحدة وهو من باب عزيز شريف لا يدخل منه الا صادق حاذق الطلب متضلع من العلم عالي الهمة بحيث يدخل في عبادة يظفر فيها بعبادات شتى وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء

— فصل —

وأما اللفظات فحفظها بأن لا يخرج لفظة ضائعة بل لا يتكلم الا فيما يرجو فيه الربح والزيادة

في دينه فاذا اراد ان يتكلم بالكلمة نظر هل فيها ربح أو فائدة أم لا فان لم يكن فيها ربح أمسك عنها وإن كان فيها ربح نظر هل تفوته بها كلمة هي أربح منها فلا يضعها بهذه وإذا أردت أن تستدل على ما في القلوب فاستدل عليه بحركة اللسان فانه يطلعك على ما في القلب شاء صاحبه أم أبي قال يحيى بن معاذ القلب كالقدور تغلى بما فيها والسنن مغارفها فانظر الرجل حين يتكلم فان لسانه يعترف لك به مما في قلبه حلو وحامض وعذب وأجاج وغير ذلك وبين لك طعم قابه إغتراف لسانه أي كما تطعم بلسانك طعم ما في القدور من الطعام فتدرك العلم بحقيقته كذلك تطعم ما في قلب الرجل من لسانه فتذوق ما في قلبه من لسانه كما تذوق ما في القدر بلسانك وفي حديث أنس المرفوع لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه وسئل النبي صلى الله عليه وسلم عن أكثر ما يدخل الناس النار فقال الفم والفرج قال الترمذي حديث حسن صحيح وقد سأل معاذ النبي صلى الله عليه وسلم عن العمل الذي يدخله الجنة ويباعده من النار فاخبره صلى الله عليه وسلم برأسه وعموده وذروة سنامه ثم قال ألا أخبركم بملاك ذلك كله قال بلى يا رسول الله فأخذ بلسان نفسه ثم قال كف عليك هذا فقال وإنا لمواخذون بما نتكلم به فقال ثكلتك أمك يا معاذ وهل يكب الناس في النار على وجوههم أو على مناخرهم إلا حصائد السننهم قال الترمذي حديث حسن صحيح ومن العجب أن الانسان يهون عليه التحفظ والاحتراز من أكل الحرام والظلم والزنا والسرقة وشرب الخمر ومن النظر المحرم وغير ذلك ويصعب عليه التحفظ من حركة لسانه حتى يري الرجل يشار اليه بالدين والزهد والعبادة وهو يتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقى لها بال يزل بالكلمة الواحدة منها أبعد مما بين المشرق والمغرب وكم تري من رجل متورع عن الفواحش والظلم ولسانه تغري في أعراض الاحياء والاموات ولا يبالي ما يقول وإذا أردت أن تعرف ذلك فانظر الى ما رواه مسلم في صحيحه من حديث جندب بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال رجل والله لا يغفر الله لفلان فقال الله عز وجل من ذا الذي يتألى على إني لا أغفر لفلان قد غفرت له وأحببت عملك فهذا العابد الذي قد عبد الله ما شاء أن يعبدته أحببت هذه الكلمة الواحدة عمله كله وفي حديث أبي هريرة نحو ذلك ثم قال أبو هريرة تكلم بكلمة أوبقت ديناه وآخرته وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقى لها بالاً يرفعه الله بها درجات وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقى لها بالاً يهوي بها في نار جهنم وعند مسلم أن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين ما فيها يهوي بها في النار أبعد مما بين المغرب والمشرق وعند الترمذي عن النبي صلى الله عليه وسلم من حديث بلال بن الحارث المزني إن أحدم

ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت فيكتب الله له بها رضوانه الى يوم يلقاه وإن أحدكم يتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت فيكتب الله له بها سخطه الى يوم يلقاه فكان علقمة يقول كم من كلام قد منعني حديث بلال بن الحارث وفي جامع الترمذي أيضاً من حديث أنس قال توفي رجل من الصحابة فقال رجل أبشر بالجنة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أو لا تدري لعله تكلم فيما لا يعنيه أو يحل بما لا ينقذه قال حديث حسن وفي لفظ أن غلاماً استشهد يوم أحد فوجد على بطنه صخرة مربوطة من الجوع فمسحت أمه التراب عن وجهه وقالت هنيئاً لك يا بني الجنة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وما يدريك لعله كان يتكلم فيما لا يعنيه ويمنع ما لا يضر وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة يرفعه من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت وفي لفظ مسلم من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليشهد أمراً فليتكلم بخير أو ليسكت وذكر الترمذي بإسناد صحيح عنه صلى الله عليه وسلم من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه وعن سفيان بن عبد الله الثقفي قال قلت يا رسول الله قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحدا بعدك قال قل آمنت بالله ثم استقم قال قلت يا رسول الله ما أخوف ما تخاف علي فآخذ بالسان نفسه ثم قال هذا والحديث صحيح وعن أم حبيبة زوج النبي صلى الله عليه وسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم قال كل كلام ابن آدم عليه لاله إلا أمر بمعروف أو نهى عن منكر أو ذكر الله عز وجل قال الترمذي حديث حسن وفي حديث آخر إذا أصبح العبد فان الأعضاء كلها تكفر اللسان يقول اتق الله فانما نحن بك فإذا استقممت استقمنا وإن أعوججت أعوججنا وقد كان بعض السلف يحاسب أحدهم نفسه في قوله يوم حار ويوم بارد ولقد روى بعض الأكابر من أهل العلم في النوم بعد موته فسئل عن حاله فقال أنا موقوف على كلمة فاتها قات ما أخرج الناس الى غيب فقبل لي وما يدريك أنا أعلم بمصاحبة عبادي وقال بعض الصحابة لحادمه يوماً هات لي السفرة نعت بها ثم قال استغفر الله ما أتكلم بكلمة إلا وأنا أخطئها وأزعمها الا هذه الكلمة خرجت بي بغير خطاء ولا زمام أو كما قال والسير حركات الجوارح حركة اللسان وهي أضرها على العبد وأختلفت السلف والخلف هل يكتب جميع ما يلفظ به أو الخير والشر فقط على قواين اظهرهما الاول وقال بعض السلف كل كلام ابن آدم عليه لاله إلا ما كان من ذكر الله وما والاه وكان الصديق رضي الله عنه يمسك لسانه ويقول هذا أوردني الموارد والكلام أسيرك فإذا خرج من فيك صرت أسيره والله عند لسان كل قائل وما يلفظ من قول الا لده رقيب عتيد وفي اللسان آفتان عظيمتان إن خلص العبد من أحدهما لم يخلص من الآخرة آفة السكوت وقد

يكون كل منهما أعظم إنما من الاخرى في وقتها قالساكت عن الحق شيطان آخر من عاص لله مرأ مداهن إذا لم يخف على نفسه والمتكلم بالباطل شيطان ناطق عاص لله وأكثر الخلق منحرف في كلامه وسكوته فهم بين هذين النوعين وأهل الوسط وهم أهل الصراط المستقيم كفوا ألسنتهم عن الباطل واطلقوها فيما يعود عليهم نفعه في الآخرة فلا يري أحدهم أنه يتكلم بكلمة تذهب عليه ضائعة بلا منفعة فضلاً أن تضره في آخرته وإن العبد ليأتي يوم القيامة بحسنات أمثال الحبال فيجد لسانه قد هدمها عليه كلها ويأتي بسينات أمثال الحبال فيجد لسانه قد هدمها من كثرة ذكر الله عز وجل وما اتصل به

❦ فصل ❦

وأما الخطوات فحفظها بأن لا ينقل قدمه إلا فيما يرجوا ثوابه عند الله تعالى فإن لم يكن في خطاه مزيد ثواب فالعود عنها خير له ويمكنه أن يستخرج من كل مباح بخطو إليه قربة يتقرب بها وينوبها الله فيقع خطاه قربة وتقلب عاداته عبادة ومباحاته طاعات ولما كانت العثرة عثرتين عثرة الرجل وعثرة اللسان جاءت أحدهما قرينة الاخرى في قوله تعالى وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما فوصفهم بالاستقامة في لفظاتهم وخطواتهم كما جمع بين اللحظات والخطرات في قوله تعالى يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور

❦ فصل ❦

وهذا كله ذكرناه مقدمة بين يدي تحريم الفواحش ووجوب حفظ الفرج وقد قال صلى الله عليه وسلم أكثر ما يدخل الناس النار الفم والفرج وفي الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم لا يحمل دم امرأة مسلم إلا بأحدى ثلاث الثيب الزاني والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق للجماعة وهذا الحديث في اقتران الزنا بالكفر وقتل النفس نظير الآية التي في الفرقان ونظير حديث ابن مسعود بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأكبر وقوعاً ثم بالذي يليه فالزنا أكثر وقوعاً من قتل النفس وقتل النفس أكثر وقوعاً من الردة نعوذ بالله منها وأيضاً فإنه انتقال من الأكبر إلى ما هو أكبر منه مفسدة ومفسدة الزنا مناقضة لصلاح العالم فإن المرأة إذا زنت أدخلت العار على أهلها وزوجها وأقاربها ونكست رؤسهم بين الناس وإن حملت من الزنا فإن قتل ولدها جمعت بين الزنا والقتل وإن حملته الزوج أدخلت على أهلها وأهلها أجنبيا ليس منهم فورثهم وليس منهم ورآهم وخلا بهم وانتسب إليهم وليس منهم إلى غير ذلك من مفسد زناها وأما زنا الرجل فإنه يوجد اختلاط الأنساب أيضاً وإفساد

المرأة المصونة وتعريضها للتلف والفساد في هذه الكبيرة خراب الدنيا والدين وان عمرت القبور في البرزخ والنار في الآخرة فكذلك في الزنا من استحلال محرمات وفوات حقوق ووقوع مظالم ومن خاصيته أنه يوجب الفقر ويقصر العمر ويكسو صاحبه سواد الوجه وثوب المقت بين الناس ومن خاصيته أيضاً أنه يشتت القلب ويمرضه إن لم يتمه ويجلب الهم والحزن والخوف ويباعد صاحبه من الملك ويقربه من الشيطان فليس بعد مفسدة القتل أعظم من مفسدته ولهذا شرع فيه القتل على أشنع الوجوه وأخشها وأصعبها ولو باع العبد أن امرأته أو حرمة قتل كان أسهل عليه من أن يبلغه أنها زنت وقال سعيد بن عباد رضي الله عنه لورأيت رجلاً مع امرأتي اضربته بالسيف غير مصفح فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال تعجبون من غيرة سعد والله لانا أغير منه والله أغيرني ومن أجل غيرة الله حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن متفق عليه وفي الصحيحين أيضاً عنه صلى الله عليه وسلم إن الله يغار وإن المؤمن يغار وغيره الله أن يأتي العبد ما حرم عليه وفي الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم لا أحد أغير من الله من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا أحد أحب إليه المذموم من الله من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين ولا أحد أحب إليه الممدوح من الله من أجل ذلك أثني على نفسه وفي الصحيحين في خطبته صلى الله عليه وسلم في صلاة الكسوف أنه قال يا أمة محمد والله إنه لأحد أغير من الله أن يزني عبده أو تزني أمته يا أمة محمد والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً ثم رفع يديه فقال اللهم هل بلغت وفي ذكر هذه الكبيرة بخصوصها عقوب صلاة الكسوف سر بديع لمن تأمله وظهور الزنا من أمارات خراب العالم وهو من أشرط الساعة كما في الصحيحين عن أنس بن مالك أنه قال لا حدثكم حديثاً لا يحدنكموه أحد بعدي سمعته من النبي صلى الله عليه وسلم يقول من أشرط الساعة أن يرفع العلم ويظهر الجهل ويشرب الخمر ويظهر الزنا ويقل الرجال وتكثر النساء حتى يكون لخمسين امرأة القيم الواحد وقد جرت سنة الله سبحانه في خلقه أنه عند ظهور الزنا ي غضب الله سبحانه وتعالى ويشد غضبه فلا بد أن يؤثر غضبه في الأرض عقوبة قال عبد الله بن مسعود ما ظهر الربا والزنا في قرية إلا أذن الله بها لكها ورأي بعض أخبار بني إسرائيل يغامر امرأة فقال مهلاً يا بني فصرع الأب عن سريره فانقطع نخاعه وأسقطت إمرأته وقيل له هكذا غضبك لي لا يكون في جنسك خيراً أبداً وخص سبحانه حد الزنا من بين سائر الحدود بثلاث خصائص أحدها القتل فيه بأشنع القتل وحيث خففه فجمع فيه بين العقوبة على البدن بالجلد وعلى القلب بتفريبه عن وطنه سنة الثاني أنه نهى عباده أن تأخذهم بالزناة رافة في دينه بحيث تمنعهم من إقامة

الحمد عليهم فإنه سبحانه من رآفته بهم ورحمته بهم شرع هذه العقوبة فهو أرحم بكم منكم ولم تمنعه
 رحمته من أمره بهذه العقوبة فلا تمنعكم أتم ما يقوم بقلوبكم من الرأفة من إقامة أمره وهذا
 وإن كان عاماً في سائر الحدود ولكن ذكر في حد الزنا خاصة لشدة الحاجة الى ذكره فإن الناس
 لا يجدون في قلوبهم من الغلظة والقسوة على الزاني ما يجدونه على السارق والقاذف وشارب
 الخمر فقلوبهم ترحم الزاني أكثر مما ترحم غيره من أبواب الجرائم والوقائع والواقع شاهد بذلك
 فهو أن تأخذهم هذه الرأفة وتحملهم على تعطيل حد الله عز وجل وسبب هذه الرحمة أن هذا
 ذنب يقع من الأشراف والأوساط والأراذل وفي النفوس أقوى الدواعي إليه والمشارك فيه
 كثير وأكثر أسبابه العشق والقلوب مجبولة على رحمة العاشق وكثير من الناس يعد مساعدته
 طاعة وقربة وإن كانت الصورة المعشوقة محرمة عليها ولا يستنكر هذا الأمر فهو مستقر
 عند من شاء الله من أشباه الانعام ولقد حكى لنا من ذلك شيء كثير أكثره عن ناقصي
 العقول والأديان كالخدم والنساء وأيضاً فإن هذا ذنب غالب ما يقع مع التراضي من الجانبين
 فلا يقع فيه من العدوان والظلم والاعتصاف ما تنفر النفوس منه وفيها شهوة غالبية له فتصور
 ذلك لنفسها فتقوم بها رحمة تمنع إقامة الحد وهذا كله من ضعف الإيمان وكال الإيمان أن
 تقوم به قوة يقيم بها أمر الله ورحمة يرحم بها المحدث فيكون موافقاً لربه سبحانه في أمره
 ورحمته * الثالث أنه سبحانه أمر أن يكون حدهما بمشهد من المؤمنين فلا يكون في خلوة
 حيث لا يراها أحد وذلك أبلغ في مصلحة الحد وحكمة الزجر وحد الزاني المحصن
 مشتق من عقوبة الله تعالى لقوم لوط بالقذف بالحجارة وذلك لاشتراك الزنا واللواط في
 الفحش وفي كل منهما فساد يناقض حكمة الله في خلقه وأمره فإن في اللواط من المفساد
 ما يفوت الحصر والتعداد ولأن يقتل المفعول به خير له من أن يؤتى فإنه يفسد فساداً
 لا يرجي له بعده صلاح أبداً ويذهب خيره كله وتمص الأرض ماء الحياء من وجهه فلا
 يستحي بعد ذلك لا من الله ولا من خلقه وتعمل في قلبه وروحه نطفة الفاعل ما يعمل
 السم في البدن وقد اختلف الناس هل يدخل الجنة مفعول به على قوانين سمعت شيخ
 الاسلام رحمه الله يحكيهما والذين قالوا لا يدخل الجنة احتجاجاً بأمر منها أن النبي صلى الله
 عليه وسلم قال لا يدخل الجنة ولد زنا فإذا كان هذا حال ولد الزنا مع أنه لا ذنب له في
 ذلك ولكنه مظنة كل شر وخبث وهو جدير أن لا ينجي منه خير أبداً لأنه مخلوق من
 نطفة خبيثة وإذا كان الجسد الذي تربى على الحرام النار أولى به فكيف بالجسد المخلوق
 من النطفة الحرام قالوا والمفعول به شر من ولد الزنا وأخزى وأخبت وأوسخ وهو
 جدير أن لا يوفق لخير وأن يحال بينه وبينه وكل عمل خيراً قبض الله له ما يفسده

عقوبة له وقل أن ترى من كان كذلك في صغره إلا وهو في كبره شر مما كان ولا يوفق لعمل صالح ولا لعلم نافع ولا توبة نصوحا والتحقيق في هذه المسألة أن يقال إن تاب المبتلى بهذا البلاء وأتاب ودرزق توبة نصوحا وعملا صالحاً وكان في كبره خيراً منه في صغره وبذل سيئاته بحسنات وغسل عار ذلك عنه بأنواع الطاعات والقربات وغض بصره وحفظ فرجه عن المحرمات وصدق الله في معاملته فهذا مغفور له وهو من أهل الجنة فإن الله يغفر الذنوب جميعاً وإذا كانت التوبة تمحو كل ذنب حتى الشرك بالله وقتل أنبيائه وأوليائه والسحر والكفر وغير ذلك فلا تقصر عن محو هذا الذنب وقد استقرت حكمة الله به عدلاً وفضلاً أن النائب من الذنب كمن لا ذنب له وقد ضمن الله سبحانه لمن تاب من الشرك وقتل النفس والزنا أنه يبذل سيئاته حسنات وهذا حكم عام لكل نائب من ذنب وقد قال تعالى قل يا عبادي الذين اسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم فلا يخرج من هذا العموم ذنب واحد ولكن هذا في حق التائبين خاصة وأما مفعول به كان في كبره شرأماً كان في صغره لم يوفق لتوبة نصوحا ولا لعمل صالح ولا استدرك مافات ولا أحيا مامات ولا بدل السيئات بالحسنات فهذا بعيد أن يوفق عند الممات الخاتمة يدخل بها الجنة عقوبة له على عمله فإن الله سبحانه وتعالى يعاقب على السيئة بسيئة أخرى وتتضاعف عقوبة السيئات بعضها ببعض كما يثيب على الحسنة بحسنة أخرى فتضاعف الحسنات وإذا نظرت إلى حال كثير من المحتضرين وجدتهم يحال بينهم وبين حسن الخاتمة عقوبة لهم على أعمال السيئة قال الحافظ أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن الأشبيلي رحمه الله واعلم أن لسوء الخاتمة أعاذنا الله منها أسباب ولها طرق وأبواب أعظمها الانكباب على الدنيا وطاهاها والحرص عليها والاعراض عن الأخرى والاقدام والجرأة على معاصي الله عز وجل وربما غلب على الإنسان ضرب من الخطيئة ونوع من المعصية وجانب من الاعراض ونصيب من الجرأة والاقدام فملك قلبه وسبي عقله وأطفأ نوره وأرسل عليه حجه فلم تنفع فيه تذكرة ولا نجعت فيه موعظة فربما جاءه الموت على ذلك فسمع النداء من مكان بعيد فلم يتبين له المراد ولا علم ما أراد وإن كرر عليه الداعي وأعاد قال ويروي أن بعض رجال الناصر نزل به الموت فجلى ابنه يقول له قل لا إله إلا الله فقال الناصر مولاي فأعاد عليه القول فقال مثل ذلك ثم أصابته غشية فلما أفاق قال الناصر مولاي وكان هذا دأبه كلما قيل له قل لا إله إلا الله قال الناصر مولاي ثم قال لابنه يا فلان الناصر إنما يعرفك بسيفك والقتل القتل ثم مات على ذلك قال عبد الحق رحمه الله وقيل لآخر ممن أعرفه قل لا إله إلا الله فجعل يقول أدار الفلانية أصلحوا فيها كذا والبستان

الفلاني اقبلوا فيه كذا قال وفيما اذن لي أبو طاهر السلمي أن أحدث به عنه أن رجلاً نزل الموت فقبل له قل لا إله إلا الله فجعل يقول بالفارسية ده يازده تفسير عشرة بأحدى سر وقيل لآخر قل لا إله إلا الله فجعل يقول * أين الطريق الى حمام منجباب * قال وهذا الكلام له قصة وذلك أن رجلاً كان واقفاً بإزاء داره وكان بابها يشبه باب هذا الحمام فمرت به جارية لها منظر فقال أين الطريق الى حمام منجباب فقال هذا حمام منجباب فدخلت الدار ودخل وراءها فلما رأت نفسها في داره وعلمت أنه قد خدعها أظهرت له البشر والفرح باجتماعها معه وقالت خدعة منها له وتحيلاً لتخلص مما أوقعها فيه وخوفاً من فعل الفاحشة يصلح أن يكون معنا ما يطيب به عيشنا وتقربه عيوننا فقال لها الساعة آتيك بكل ما تريدن وتشتهين وخرج وتركها في الدار ولم يغلقها فاخذ ما يصلح ورجع فوجدها قد خرجت وذهبت ولم تحنه في شيء فهم الرجل وأكثر الذكر لها وجعل يمشي في الطارق والازقة ويقول

يارب قائمة يوماً وقد تعبت * أين الطريق الى حمام منجباب

فيينا يقول ذلك واذا بجاريته أجابته من طاق قرنان

هل لا جعلت سريعاً إذ ظفرت بها * حرزاً على الدار أو قفلاً على الباب

فازداد هيبانه واشتد هيجانه ولم يزل كذلك حتى كان هذا البيت آخر كلامه من الدنيا قال ويرى أن رجلاً عشق شخصاً فاشتد كلفه به وتمكن حبه من قلبه حتى وقع المأثم به ولزم الفراش بسببه وتمنع ذلك الشخص عليه واشتد نفاره عنه فلم تزل الوسائط يمسون بينهما حتى وعده أن يعود فآخبر بذلك البائس ففرح واشتد سروره وانجلى غمه وجعل ينتظر للميعاد الذي ضربه له فيينا هو كذلك اذ جاء الساعي بينهما فقال انه وصل معي الى بعض الطريق ورجع فرغبت اليه ولكنه فقال انه ذكرني وبرح بي ولا أدخل مداخل الريب ولا أعرض نفسي لمواقع ألهم فعاودته فأبى وانصرف فلما سمع البائس ذلك أسقط في يده وعاد الى أشد مما كان به وبدت عليه علام الموت فجعل يقول في تلك الحال

أسلم ياراحة العليل * وياشفاء المدنف انجيل

رضاك أشهى الى فؤادي * من رحمة الخالق الجليل

فقلت له يا فلان اتق الله قال قد كان فقمته عنه فما جاوزت باب داره حتى سمعت صيحة الموت فبادراً بالله من سوء العاقبة وشؤم الخاتمة ولقد بكى سفيان الثوري ليلة الى الصباح فلما أصبح قيل له أكل هذا خوفاً من الذنوب فاخذ تبة من الارض وقال الذنوب أهون من هذه وإنما أبكى خوفاً من الخاتمة وهذا من أعظم الفقه ان يخاف الرجل ان تحده

ذنبه عند الموت فتحول بينه وبين الحاتمة الحسنى وقد ذكر الامام احمد عن أبي الدرداء أنه لما اختصر جعل يغمى عليه ثم يفيق ويقرأ وتقلب أثدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذروهم في طغيانهم يعمهون فمن هذا خاف السلف من الذنوب أن تكون حجاباً بينهم وبين الحاتمة الحسنى قال واعلم أن سوء الحاتمة أعادنا الله تعالى منها لا تكون لمن استقام ظاهره وصاح باطنه ماسمع بهذا ولا علم به والله الحمد وإنما تكون لمن له فساد في العقيدة أو اصرار على الكبيرة واقدام على العظائم فربما غلب ذلك عليه حتى نزل به الموت قبل التوبة فيأخذه قبل إصلاح الطوية ويصطم قبل الانابة فيظفر به الشيطان عند تلك الصدمة ويحفظه عند تلك الدهشة والعياذ بالله قال ويروي أنه كان بمصر رجل يلزم المسجد للأذان والصلوات فيه وعليه بهاء الطاعة ونور العبادة فرقى يوماً المنارة على عادته للأذان وكان تحت المنارة دار النصراني فاطلع فيها فرأى إيسة صاحب الدار فافتتن بها فترك الأذان ونزل إليها ودخل الدار عليها فقالت له ماشأئك وما تريد قال أريدك قالت لماذا قال قد سلبت لبي وأخذت بمجامع قلبي قالت لا احبيك الى ربية أبداً قال أتزوجك قالت أنت مسلم وأنا نصرانية وابي لا يزوجني منك قال انتصر قالت ان فعلت افعل فتنصر الرجل ليتزوجها واقام معهم في الدار فلما كان في اثناء ذلك اليوم رقى الى سطح كان في الدار فسقط منه فمات فلم يظفر بها وفاته دينه

❦ فضل ❦

ولما كانت مفسدة اللواط من اعظم المفاسد كانت عقوبته في الدنيا والآخرة من اعظم العقوبات وقد اختلف الناس هل هو أغلظ عقوبة من الزنا او الزنا أغلظ عقوبة منه او عقوبتهما سواء على ثلاثة اقوال فذهب ابو بكر الصديق وعلى بن ابي طالب وخالد بن الوليد وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عباس وخالد بن زيد وعبد الله بن معمر والزهرى وربيعه بن ابي عبد الرحمن ومالك واسحق بن راهويه والامام أحمد في أصح الروايتين عنه والشافعي في احد قوليه الى ان عقوبته أغلظ من عقوبة الزنا وعقوبته القتل على كل حال محصناً كان أو غير محصن وذهب عطاء بن أبي رباح والحسن البصرى وسعيد بن المسيب وابراهيم النخعي وقتادة والاوزاعي والشافعي في ظاهر مذهبه والامام أحمد في الرواية الثانية عنه وأبو يوسف ومحمد إلى ان عقوبته وعقوبة الزانى سواء وذهب الحاكم والامام أبو حنيفة الى ان عقوبته دون عقوبة الزانى وهى التعزير قالوا لأنه معصية من المعاصي لم يقدر الله ولا رسوله صلى الله عليه وسلم فيه جداً مقدراً فكان

فيه التعزير كأكل الميتة والدم ولحم الخنزير قالوا ولأنه وطؤ في محل لانتشبهه الطبائع بل
ركبها الله تعالى على النفرة منه حتى الحيوان البهيم فلم يكن فيه حد كوطي الخمار وغيره
قالوا ولأنه لا يسمى زانياً لغة ولا شرعاً ولا عرفاً فلا يدخل في النصوص من الدلالة على
حد الزانيين قالوا ولأننا رأينا قواعد الشريعة أن المعصية إذا كان الوازع عنها طبعياً اكتفى
بذلك الوازع عن الحد وإذا كان في الطبائع تقاضيهما جعل فيها الحد بحسب اقتضاء الطبائع لها
ولهذا جعل الحد في الزنا والسرقة وشرب المسكر دون أكل الميتة والدم ولحم الخنزير قالوا
وطرد هذا أنه لا حد في وطئ البهيمة ولا الميتة وقد جبل الله تعالى الطبائع على النفرة من
وطئ الرجل الرجل أشد نفرة كما جبلها على النفرة من استدعاء الرجل من يطؤه بخلاف
الزنا فإن الداعي فيه من الجانبين قالوا ولأن أحد النوعين إذا استمتع بشكله لم يجب عليه
الحد كالأول تساحقت المراتن واستمعت كل واحدة منهما بالآخرى قال أصحاب القول الأول
وهم جمهور الأمة وحكاه غير واحد إجماعاً للصحابة ليس في المعاصي مفسدة أعظم من مفسدة
اللوواط وهي تلي مفسدة الكفر وربما كانت أعظم من مفسدة القتل كما سئله ان شاء الله
تعالى قالوا ولم يتلى الله تعالى بهذه الكبيرة قبل قوم لوط أحداً من العالمين وعاقبهم عقوبة لم
يعاقب بها أمة غيرهم وجمع عليهم أنواعاً من العقوبات من الإهلاك وقلب ديارهم عليهم
والخسف بهم ورجمهم بالحجارة من السماء وطمس أعينهم وعذبهم وجعل عذابهم مستمراً
فتكل بهم نكالا لم ينكله بأمة سواهم وذلك لعظم مفسدة هذه الجريمة التي تكاد الأرض
تتمد من جوانبها إذا عملت عليها وتهرب الملائكة إلى أقطار السموات والأرض إذا شاهدوها
خشية نزول العذاب على أهلها فيصيبهم معهم وتعج الأرض إلى ربها تبارك وتعالى وتكاد
الجيال تزول عن أماكنها وقتل المفعول به خير له من وطئه فانه إذا وطأه الرجل قتله
قتلاً لا ترجي الحياة معه بخلاف قتله فانه مظلوم شهيد وربما ينتفع به في آخرته قالوا والدليل
على هذا أن الله سبحانه جعل حد القاتل إلى خيرة الولي إن شاء قتل وإن شاء عفى وحم
قتل اللوطي حداً كما أجمع عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ودلت عليه سنة
رسول الله صلى الله عليه وسلم الصحيحة الصريحة التي لا معارض لها بل عليها عمل أصحابه
وخلفائه الراشدين رضي الله عنهم أجمعين وقد ثبت عن خالد بن الوليد أنه وجدني بعض
نواحي العرب رجلاً ينكح كما تنكح المرأة فكتب إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه
فاستشار أبو بكر الصديق الصحابة رضي الله عنهم فكان على بن أبي طالب أشدهم قولاً
فيه فقال ما فعل هذا الأمة من الأمم واحدة وقد علمتم ما فعل الله بها أرى أن يحرق
بالنار فكتب أبو بكر إلى خالد فخرقه وقال عبد الله بن عباس ان ينظر أعلا ما في القرية

فيرمى اللوطي منها منكساً ثم يتبع بالحجارة وأخذ ابن عباس هذا الحد من حقوبة الله للوطية قوم لوط وابن عباس هو الذي روى عن النبي صلى الله عليه وسلم من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به رواء أهل السنن وصححه ابن حبان وغيره واحتج الامام أحمد بهذا الحديث واسناده على شرط البخاري قالوا وثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال لعن الله من عمل عمل قوم لوط لعن الله من عمل عمل قوم لوط لعن الله من عمل عمل قوم لوط ولم نجى عنه لعنة الزاني ثلاث مرات في حديث واحد وقد لعن جماعة من أهل الكباثر فلم يتجاوز بهم في الامن مرة واحدة وكرر لعن اللوطية فأكده ثلاث مرات وأطبق أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على قتله لم يختلف منهم فيه رجلان وإياه اختلفت أقوالهم في صفة قتله فظن بعض الناس أن ذلك اختلاف منهم في قتله فحكاهم مسألة نزاع بين الصحابة وهي بينهم مسألة نزاع قالوا ومن تأمل قوله سبحانه ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة ومقتنا وساء سبيلا وقوله في اللواط أنأتون الفاحشة ماسبقكم بها من أحد من العالمين تبين له تفاوت ما بينهما فانه سبحانه نكر الفاحشة في الزنا أي هو فاحشة من الفواحش وعصره في اللواط وذلك يفيد أنه جامع لمعاني اسم الفاحشة كما تقول زيد الرجل ونعم الرجل زيد أي تأتون الحصاة التي استقر فحشها عند كل أحد فهي اظهر فحشها وكاله غنية عن ذكره بحيث لا ينصرف الاسم الى غيرها وهذا نظير قول فرعون لموسى وفعلت فعلتك التي فعلت أي الفعلية الشنعاء الظاهرة المعلومة لكل أحد ثم أكد سبحانه شأن فحشها بانها لم يعملها احد من العالمين قباهم فقال ماسبقكم بها من أحد من العالمين ثم زاد في التأكيدي بان صرح بمشتم منه القلوب وتبوا عنها الاسماع وتنفر منه أشد التنفر وهو إتيان الرجل رجلا مثلاً ينكحه كما ينكح الأنثى فقال أنكم لتأتون الرجال ثم نبه على استغنائهم عن ذلك وان الحامل لهم عليه ليس الا مجرد الشهوة لا الحاجة التي لاجلها مال الذكور الى الانثى من قضاء الوطر ولذة الاستمتاع وحصول المودة والرحمة التي تنسي المرأة لها أبوها وتذكر بملها وحصول النسل الذي هو حفظ هذا النوع الذي هو أشرف المخلوقات وتحصين المرأة وقضاء الوطر وحصول علاقة المصاهرة التي هي أخت النسب وقيام الرجال على النساء وخروج أحب الخلق الى الله من جماعهن كالانبياء والاولياء والمؤمنين ومكاثرة النبي صلى الله عليه وسلم الانبياء بامته الى غير ذلك من مصالح التكاح والمفسدة التي في اللواط لقوام ذلك كله وربي عليه لا يمكن حصره وفساده ولا يعلم تفصيله الا الله عز وجل ثم أكد سبحانه قبح ذلك بان اللوطية عكسوا فطرة الله التي فطر الله عليها الرجال وقلبوا الطبيعة التي ركبها الله في الذكور وهي شهوة النساء دون الذكور فقلبوا الامر وعكسوا الفطرة والطبيعة فاتوا الرجال شهوة من

دون النساء ولهذا قلب الله سبحانه عليهم ديارهم فجعل عاليها سافلها وكذلك قلبوهم ونكسوا في العذاب على رؤسهم ثم أكد سبحانه قبح ذلك بأن حكم عليهم بالاسراف وهو مجاوزة الحد فقال بل أنتم قوم مسرفون فتأمل هل جاء مثل ذلك أو قريباً منه في الزنا وأكّد سبحانه ذلك عليهم بقوله ونجيناه من القرية التي كانت تعمل الحياث ثم أكد سبحانه عليهم الذم بوصفين في غاية القبح فقال إنهم كانوا قوم سوء فاسقين وسماهم مفسدين في قول نبيهم فقال رب انصرني على القوم المفسدين وسماهم ظالمين في قول الملائكة لإبراهيم عليه السلام إنا مهلكوا أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين فتأمل من عوقب بمثل هذه العقوبات ومن ذمه الله بمثل هذه الذمات ولما جادل فيهم خليله إبراهيم الملائكة وقد أخبروه بأهلاكم فقبل له بإبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيتهم عذاب غير مردود وتأمل خبث اللوطية وفرط تمردهم على الله حيث جاؤا نبيهم لوطاً لما سمعوا بأنه قد طرقه أضياف هم من أحسن البشر صوراً فأقبل اللوطية اليهم يهرعون فلما رأهم قال لهم يا قوم هؤلاء بناتي هن أظهر لكم فداً أضيافه بناته يزوجهن بهن خوفاً على نفسه وعلى أضيافه من العار الشديد فقال يا قوم هؤلاء بناتي هن أظهر لكم فاتقوا الله ولا تخزون في ضيفي أليس منكم رجل رشيد فردوا عليه ولكن رد جبار غيّد لقد علمت ما كنا في بناتك من حق وإنك اتعلم ما تريد ففتى نبي الله نفثة مصدور وخرجت من قلب مكروب عميد فقال لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد فكشف له رسل الله عن حقيقة الحال وأعلموه إنه ممن ليس يوصل إليهم ولا إليه بسببهم فلا تخف منهم ولا تعباً بهم وهون عليك فقالوا يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك وبشروه بما جاؤا به من الوعد له ولقومه من الوعيد المصيب فقالوا فاسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك إنه مصيبها ما أصابهم إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب فاستبطأ نبي الله عليه السلام موعدهم فها هم وقال أريد أعجل من هذا فقالت الملائكة أليس الصبح بقريب فوالله ما كان بين إهلاك أعداء الله ونجاة نبيه وأوليائه إلا ما بين السحر وطلوع الفجر وإذا بديارهم قد اقتلعت من أصولها ورفعت نحو السماء حتى سمعت الملائكة نباح الكلاب ونهيق الحمير فبرز المرسوم الذي لا يرد من عند الرب الجليل على يدي عبده ورسوله جبرائيل بن يقاها عليهم كما أخبر به في محكم التنزيل فقال عز من قائل فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل فجعلهم آية للعالمين وموعظة للمتقين ونكالا وسلفاً لمن شاركم في أعمالهم من المجرمين وجعل ديارهم بطريق السالكين إن في ذلك لآيات للمتوسمين وإنها لبسيلة مقيم إن في ذلك لآية للمؤمنين

أخذهم على غرة وهم نائمون وجاءهم بماسه وهم في سكرتهم يعمهون فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون تغلبت علي تلك اللذات آلاماً فأصبحوا بها يعذبون

مآرب كانت في الحياة لأهلها * عذاباً فصارت في الممات عذاباً

ذهبت اللذات • وأعقبت الحسرات • وانقضت الشهوات • وأورثت الشقوات • تمتعوا قليلاً • وعذبوا طويلاً • رتموا مرتعاً وخيماً • فأعقبهم عذاباً أليماً • أسكرتهم خمر تلك الشهوات فمستفاقوا منها إلا في ديار المعذبين • وأرقدتهم تلك الغفلة فما استيقظوا منها إلا وهم في منازل الهالكين • قدموا والله أشد الندامة حين لا ينفع الندم • وبكوا على ما أسلفوه بدل الدموع بالدم • فلو رأيت الأعلى والأسفل من هذه الطائفة والنار تخرج من منافذ وجوههم وأبدانهم وهم بين أطباق الجحيم • وهم يشربون بدل لذيذ الشراب كؤوس الحميم • ويقال لهم وهم على وجوههم يسحبون • ذوقوا ما كنتم تكسبون • إصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون • ولقد قرب الله سبحانه مسافة العذاب بين هذه الأمة وبين إخوانهم في العمل فقال مخوفاً لهم بأعظم الوعيد وماهي من الظالمين ببعيد

فيانا كح الذكر أن تهنيكم البشري * فيوم معاد الناس إن لكم أجراً
كلوا واشربوا وازنوا ولوطوا واكثروا * فإن لكم زفا إلى ناره الكبرى
فاخوانكم قد مهدوا الدار قبلكم * وقالوا أينا عجلوا لكم البشري
وهانحن أسلاف لكم في انتظاركم * سيجمعنا الجبار في ناره الكبرى
ولا تحسبوا أن الذين نكحتموا * يغيبون عنكم بل ترونهم جري
ويلعن كلا منهم لخليته * ويشقى به المحزون في الكرة الأخرى
يعذب كل منهم بشريكه * كما اشركا في نذة توجب الوزرى

❦ فصل ❦

في الأجوبة عما احتج به من جعل عقوبة هذه الفاحشة دون عقوبة الزنا أما قولهم إنها معصية لم يجعل الله فيها حداً معيناً فجوابه من وجوه أحدها إن المبلغ عن الله جعل حد صاحبها القتل حتماً وما شرعه رسوله صلى الله عليه وسلم فأنما شرعه عن الله فإن أردتم أن حدها غير معلوم بالشرع فهو باطل وإن أردتم إنه غير ثابت بنص الكتاب لم يلزم من ذلك إنتفاء حكمه بثبوت السنة الثاني إن هذا ينتقض عليكم بالرجم فإنه إنما ثبت بالسنة فإن قلتم بل ثبت بقرآن نسخ لفظه وبقي حكمه قلنا فينتقض عليكم بمحمد شارب

الحرم الثالث أن نفي دليل معين لا يلزم نفي مطلق الدليل ولانفي المدلول فكيف وقد قدمنا أن الدليل الذي نفيتموه غير مشتق وأما قولكم أنه وطاء لا تشبهه الطباع بل ركب الله الطباع على النفرة منه فهو كوطء الميتة والبهيمة فجوابه من وجوه أحدها أنه قياس فاسد الاعتبار مردود بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وإجماع الصحابة كما تقدم بيانه الثاني أن قياس وطاء الامرء الجليل الذي تربى فتنه على كل فتنة على وطاء أتان أو امرأة ميتة من أفسد القياس وهل تعدل ذلك أحد قط باتان أو بقرة أو ميتة أو يسي ذلك عقل عاشق أو أسرق قلبه أو استولى على فكره ونفسه فليس في القياس أفسد من هذا الثالث أن هذا منتقض بوطء الام والبنات والاخت فإن النفرة الطبيعية عنه كاملة مع أن الحد فيه من أغلظ الحدود في أحد القولين وهو القتل بكل حال محصنا كان أو غير محصن وهذه إحدى الروايتين عن الامام أحمد وهو قول إسحاق بن رهويه وجماعة من أهل الحديث وقد روى ابو داود من حديث البراء بن عازب قال لقيت عمى ومعه الراية فقلت له الى أين تريد قال بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم الى رجل نكح امرأة أبيه من بعده أن أضرب عنقه وأخذ ماله قال الترمذي هذا حديث حسن قال الجوزجاني عم البراء اسمه الحارث بن عمرو في سنن أبي داود وابن ماجه من حديث ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من وقع على ذات محرم فاقتلوه ورفع الى الحجاج رجلاً اغتصب أخته على نفسها فقال أحبسوه واسألوا من هاهنا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألوا عبد الله بن مطرف فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من نخطي حرم المؤمنين نخطوا وسطه بالسيف وفيه دليل على القتل بالتوسيط وهذا دليل مستقل في المسألة وهو أن من لا يباح وطؤه بحال فحد واطئه القتل دليلاً من وقع على أمه وابنته وكذلك يقال في وطاء ذوات المحارم من وطاء من لا يباح وطؤه بحال كان حده القتل كاللوطي والتحقيق أن يستدل على المسألتين بالنص والقياس يشهد لصحة كل منهما وقد إتفق المسلمون على أن من زنا بذات محرم فعليه الحد وإنما اختلفوا في صفة الحد هل هو القتل بكل حال أو حده حد الزاني على قولين فذهب الشافعي ومالك وأحمد في إحدى روايتيه إن حده حد الزاني وذهب أحمد وإسحاق وجماعة من أهل الحديث الى أن حده القتل بكل حال وكذلك إتفقوا كلهم على أنه لو أصابها باسم النكاح علماً بالتحريم أنه يحد إلا أبا حنيفة وحده فإنه رأى ذلك شبهة مسقط للحد والمنازعون يقولون إذا أصابها باسم النكاح فقد زاد الجريمة غلظاً وشدة فإنه إرتكب محذورين عظيمين محذور العقد ومحذور الوطاء فكيف تخفف عنه العقوبة بضم محذور العقد الى محذور الزنا وأما وطاء الميتة ففيه قولان للفقهاء وهما في مذهب أحمد وغيره

أحدهما أنه يجب به الحد وهو قول الاوزاعي فإن فعله أعظم جرماً وأكثر ذنباً لأنه انضم إلى هتك فاحشة حرمة الميتة

﴿ فصل ﴾

وأما وطاء البهيمة فملفقهاء فيه ثلاثة أقوال أحدها أنه يؤدب ولاحد عليه وهذا قول مالك وأبي حنيفة والشافعي في أحد قولييه وهو قول إسحق والقول الثاني أن حكمه حكم الزاني يجلد إن كان بكراً ويرجم إن كان محصناً وهذا قول الحسن والقول الثالث أن حكمه حكم اللوطي نص عليه أحمد ويخرج على الروایتين في حده هل هو القتل حتماً أو هو كالزاني والذين قالوا حده القتل احتجوا بما رواه أبو داود من حديث ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم من أتى بهيمة فاقتلوه واقتلوها معه قالوا ولأنه وطاء لايباح بحال فكان فيه القتل حداً للوطء ومن لم يرد عليه الحد قالوا لم يصح فيه الحديث ولو صح لقلنا به ولم يحل لنا مخالفته قال اسمعيل بن سعيد الشاذلي سألت أحمد عن الذي يأتي البهيمة فوقف عندها ولم يثبت حديث عمرو بن أبي عمرو في ذلك أو قال الطحاوي الحديث ضعيف وأيضاً فرواية ابن عباس وقد أفق بأنه لاحد عليه قال أبو داود وهذا يضعف الحديث ولا ريب أن الزاجر الطبعي عن أتيان البهيمة أقوى من الزاجر الطبعي عن التلوط وليس الأمران في طباع الناس سواء فالخاق أحدهما بالآخر من أفسد القياس

﴿ فصل ﴾

وأما قياسكم وطاء الرجل لمثله على سحاق المراتين فمن أفسد القياس إذ لا إيلاج هناك وإنما نظير مباشرة الرجل الرجل من غير إيلاج على أنه قد جاء في بعض الأحاديث المرفوعة إذا أتت المرأة المرأة فهما زانيتان ولكن لايجب الحد بذلك لعدم الإيلاج وإن أطلق عليهما اسم الزنا العام كنزنا العين واليد والرجل والضم وإذا ثبت هذا فاجمع المسلمون على أن حكم التلوط مع المملوك حكمه مع غيره ومن ظن أن تلوط الإنسان مع مملوكه جائز واحتج على ذلك بقوله تعالى إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيانهم فأنهم غير ملومين وقاس ذلك على أمته المملوكة فهو كافر يستتاب كما يستتاب المرتد فإن تاب والا قتل وضرب عنقه وتلوط الإنسان بمملوكه كتلوطه بمملوك غيره في الإثم والحكم

﴿ فصل ﴾

فإن قيل مع هذا كله فهل من دواء لهذا الداء العضال ورقية لهذا السحر القتال وما

الاحتيايل لدفع هذا الحيال وهل من طريق قاصد الى التوفيق وهل يمكن السكران بخمرة الهوى أن يفيق وهل يملك العاشق قلبه والعشق قد وصل الى سويدائه وهل للطبيب بعد ذلك حيلة في برئه من سويداءه لان لامة لائم التذ بلامه لذكركه لمحبوبه وان عدله عاذل أغراء عدله وسار به في طريق مطلوبه ينادي عليه شاهد حاله بلسان مقاله

وقف الهوى بي حيث أنت فليس لي * متأخر عنه ولا متقدم
وأهنتني فأهنت نفسي جاعدا * مامن يهون عليك ممن يكرم
أشبهت أعدائي فصرت أحبهم * إذ كان حظي منك حظي منهم
أجسد الملامة في هواك لذيذة * حبا لذكرك فليعلمني اللوم

ولعل هذا هو المقصود بالسؤال الاول الذي وقع عليه الاستفتاء عليه والداء الذي طلب له الدواء قيل نعم الجواب من أسأله وما أنزل الله سبحانه من داء الا وأنزل له دواء علمه من علمه وجهله من جهله والكلام في دواء هذا الداء من طريقين . أحدهما جسم مادته قبل حصولها . والثاني قلعبا بعد نزولها وكلاهما يسير على من يسره الله عليه ومتعذر على من لم يعنه الله فان أزمة الامور بيديه وأما الطريق المانع من حصول هذا الداء فامر ان أحدهما غض البصر كما تقدم فان النظرة سهم مسموم من سهام إبليس ومن أطلق لحظاته دامت حسراته وفي غض البصر عدة منافع . أحدها أنه إمتثال لأمر الله الذي هو غاية سعادة العبد في معاشه ومعاده وليس للعبد في دنياه وآخرته أنفع من إمتثال أوامر ربه تبارك وتعالى وما سعد من سعد في الدنيا والآخرة إلا بامتثال أوامره وما شقي من شقي في الدنيا والآخرة إلا بتضييع أوامره . الثاني أنه يمنع من وصول أثر السم المسموم الذي لعل فيه هلاكه الى قلبه . الثالث أنه يورث القلب أنسا بالله وجمعية على الله فان إطلاق البصر يفرق القلب ويشتته ويبعده من الله وليس على العبد شيء أضر من إطلاق البصر فانه يوقع الوحشة بين العبد وبين ربه . الرابع أنه يقوي القلب ويفرحه كما أن إطلاق البصر يضعفه ويحزنه . الخامس أنه يكسب القلب نورا كما أن إطلاقه يكسبه ظلمة ولهذا ذكر سبحانه آية النور عقيب الأمر بغض البصر فقال قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ثم قال أثر ذلك الله نور السموات والارض مثل نوره كشكاة فيها مصباح أي مثل نوره في قلب عبده المؤمن الذي امتثل أوامره واجتنب نواهيه وإذا استنار القلب أقبلت وفود الخيرات اليه من كل جانب كما أنه إذا أظلم أقبلت سحائب البلاء والشر عليه من كل مكان فما شئت من بدعة وضلالة واتباع هوى وإجتباب هدى وإعراض عن أسباب السعادة وإشتغال بأسباب الشقاوة فان ذلك انما يكشفه له النور الذي في القلب فاذا

فقد ذلك النور بقى صاحبه كالاعمى الذي يجوس في خادس الظلام . السادس أنه يورث
الفراصة الصادقة التي يميزها بين الحق والمبطل والصادق والكاذب وكان شاه بن شجاع
الكرماني يقول من عمر ظاهره باتباع السنة وباطنه بدوام المراقبة وغض بصره عن المحارم
وكف نفسه عن الشهوات واعتماد أكل الحلال لم تخط له فراصة وكان شجاع هذا لا تخطي
له فراصة والله سبحانه يجزي العبد على عمله بما هو من جنس عمله ومن ترك شيئاً لله
عوضه الله خيراً منه فإذا غض بصره عن محارم الله عوضه الله بأن يطلق نور بصيرته عوضاً
عن حبسه بصره لله ويفتح له باب العلم والايان والمعرفة والفراصة الصادقة المصيبة التي
انما تنال ببصيرة القلب وضد هذا ما وصف الله به اللوطية من العمه الذي هو ضد البصيرة
فقال تعالى لعمر ك إنهم لفي سكرتهم يعمهون فوصفهم بالسكره التي هي فساد العقل وعمه
الذي هو فساد البصر فالتعلق بالصورة يوجب فساد العقل وعمه البصيرة يسكر القلب كما قال القائل
سكران سكر هوى وسكر مدامة * ومتى إفاقة من به سكران

﴿ وقال الآخر ﴾

قالوا جنت بمن تهوى فقلت لهم * العشق أعظم مما بالجنانين

العشق لا يستفيق الدهر صاحبه * وإنما يصرع المجنون في الحين

السابع إنه يورث القلب ثباتاً وشجاعة وقوة ويجمع الله له بين سلطان البصيرة والحجة
وسلطان القدرة والقوة كما في الأثر الذي يخالف هواه يفر الشيطان من ظله وضد هذا
تجده في المتبع هواه من ذل النفس ووضاعتها ومهانتها وخسستها وحقارتها وما جعل الله
سبحانه فيمن عصاه كما قال الحسن إنهم وإن طقطقت بهم البغال وهملجت بهم البراذين فإن
المعصية لا تفارق رقابهم أي الله إلا أن يذل من عصاه وقد جعل الله سبحانه العزقرين
طاعته والذلقرين معصيته فقال تعالى والله العزة ولرسوله وللمؤمنين وقال تعالى ولا تهواؤوا ولا
تحزنوا وأنتم الاعلون إن كنتم مؤمنين والايان قول وعمل ظاهر وباطن وقال تعالى من كان
يريد العزة فله العزة جميعاً إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه أي من كان يريد
العزة فيطلبها بطاعة الله وذكره من الكلم الطيب والعمل الصالح وفي دعاء القنوت انه
لا يذل من واليت ولا يعز من عاديت ومن أطاع الله فقد والاه فيما أطاعه فيه وله من العز
بحسب طاعته ومن عصاه فقد عاداه فيما عصاه فيه وله من الذل بحسب معصيته الثامن أنه
يسد على الشيطان مدخله من القلب فانه يدخل مع النظرة وينفذ معها الى القلب أسرع
من نفوذ الهوى في المكان الخالي فيمثل له صورة المنظور اليه ويزينها ويجعلها صنماً يعكف
عليه القلب ثم يعده ويمنيه ويوقد على القاب نار الشهوة ويبقى عليه حطب المعاصي التي لم

يكن يتوصل إليها بدون تلك الصورة فيصير القلب في اللهب فمن ذلك اللهب تلك الانفاس التي يجذب فيها وهج النار وتلك الزفرات والحرقان فان القلب قد أحاطت به النيران بكل جانب فهو في وسطها كالشاة في وسط التنور ولهذا كانت عقوبة أصحاب الشهوات بالصور المحرمة أن جعل لهم في البرزخ تنور من نار وأودعت أرواحهم فيه الى حشر أجسادهم كما أراها الله نبيه صلى الله عليه وسلم في المنام في الحديث المتفق على صحته التاسع أنه يفرغ القلب للفكرة في مصالحه والاشتغال بها وإطلاق البصر يشتت عليه ذلك ويحول عليه بينه وبينها فتفترط عليه أموره ويقع في اتباع هواه وفي الغفلة عن ذكر ربه قال تعالى لا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً وإطلاق النظر يوجب هذه الأمور الثلاثة بحسبه العاشر أن بين العين والقلب منفذاً أو طريقاً يوجب اشتغال أحدهما عن الآخر وإن يصلح بصلاحه ويفسد بفساده فإذا فسد القلب فسد النظر وإذا فسد النظر فسد القلب وكذلك في جانب الصلاح فإذا خربت العين وفسدت خرب القلب وفسد وصار كالزبلة التي هي محل النجاسات والقاذورات والأوساخ فلا يصلح لسكني معرفة الله ومحبة والانبابة اليه والانس به والسرور بقربه فيه وإنما يسكن فيه اضداد ذلك فهذه إشارة الى بعض فوائد غض البصر تطالعك على ما ورأها

❦ فصل ❦

الثاني اشتغال القلب بما يصد عنه ذلك ويحول بينه وبين الوقوع فيه وهو إما خوف مقلق أو حب مزعج فتى خلا القلب من خوف ما فواته أضر عليه من حصول هذا المحبوب أو خوف ما حصوله أضر عليه من فوات هذا المحبوب أو محبة ما هو أنفع له وخير له من هذا المحبوب لم يجد بداً وفواته أضر عليه من فوات هذا المحبوب لم يجد بداً من عشق الله ور شرح هذا ان النفس لا تترك محبوباً الا لمحبوب أعلى منه أو خشية مكروه حصوله أضر عليه من فوات هذا المحبوب وهذا يحتاج صاحبه الى أمرين ان فقداً أو احد منهما لم يتنفع بنفسه أحدهما بصيرة صحيحة يفرق بها بين درجات المحبوب والمكروه فيؤثر على المحبوبين على أدناها ويحتمل أدنى المكروهين لتخلص من أعلاهما وهذا خاصة العقل ولا يعد عاقلاً من كان بضد ذلك بل قد تكون البهائم أحسن حالا منه الثاني قوة عزيم وصبر يتمكن بهما من هذا الفعل والترك فكثير ما يعرف الرجل قدر التفاوت ولكن يأتي له ضعف نفسه وهيمته وعزيمته على إيثار الانفع من خسته وحرصه ووضاعة نفسه وخسة همته ومثل هذا لا يتنفع بنفسه ولا يتنفع به غيره وقد منع الله سبحانه إمامة الدين الامني أهل

الصبر واليقين فقال تعالى وبقره يهتدي المتمدنون وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون وهذا هو الذي ينتفع بعلمه وينتفع به غيره من الناس وضد ذلك لا ينتفع بعلمه ولا ينتفع به غيره ومن الناس من ينتفع بعلمه في نفسه ولا ينتفع به غيره فالاول يمشي في نوره ويمشي الناس في نوره والثاني قد طغى نوره فهو يمشي في الظلمات ومن تبعه والثالث يمشي في نوره وحده

❦ فصل ❦

اذا عرفت هذه المقدمة فلا يمكن ان يجتمع في القلب حب المحبوب الاعلى وعشق الصور أبدا بل هما ضدان لا يجتمعان بل لا بد ان يخرج أحدهما صاحبه فمن كانت قوة حبه كلها للمحبوب الاعلى الذي محبة ماسواه باطلة وعذاب على صاحبها صرفه ذلك عن محبة ماسواه وان أحبه لم يحبه الا لاجله أو لكرمه وسيلة له الى محبته أو قاطعاً له عما يضاد محبته وينقصها والمحبة الصادقة تقتضي توحيد المحبوب وان لا يشرك بينه وبين غيره في محبته واذا كان المحبوب من الخلق يأتف ويفار ان يشرك في محبته غيره ويمتته لذلك ويبعده ولا يحظيه بقربه ويبعده كاذبا في دعوي محبته مع انه ليس أهلاً لصرف قوة المحبة اليه فكيف بالحبيب الاعلى الذي لا تنبغي المحبة الا له وحده وكل محبة لغيره فهي عذاب على صاحبها ووبالا ولهذا لا يغفر سبحانه أن يشرك به في هذه المحبة ويغفر مادون ذلك لمن يشاء فمحبة الصور نفوت محبة ماهو أنفع للعبد منها بل يفوت محبة ما ليس له صلاح ولا نعيم ولا حياة نافعة الا بمحبته وحده فليختر إحدى المحبتين فانهما لا يجتمعان في القلب ولا يرتفعان منه بل من أعرض عن محبة الله وذكره والشوق الى لقائه ابتلاه بمحبة غيره فيعذب بها في الدنيا وفي البرزخ وفي الآخرة إما يعذبه بمحبة الاوثان أو بمحبة الصلبان أو بمحبة النيران أو بمحبة المردان أو بمحبة النسوان أو بمحبة الاثمان أو بمحبة العشراء والحلان أو بمحبة ماهو دون ذلك مما هو في غاية الحقارة والهوان فالانسان عبد محبوبه كاشا ما كان كما قيل

أنت القاتل بكل من أحبيته * فاختر لنفسك في الهوى من تصطفي

فمن لم يكن إلهه مالكة ومولاه كان إلهه هواه قال تعالى أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون

❦ فصل ❦

وخاصية التعبد الحب مع الخضوع والذل للمحبوب فمن أحب شيئاً وخضع له فقد

تعبد قلبه له بل التعبد آخر مراتب الحب ويقال له التتيم أيضاً فإن أول مراتبه العلاقة
وسميت علاقة لتعلق الحب بالمحجوب قال الشاعر

وعلفت ليلي وهي ذات تمنائم * ولم يبدل الأتراب من نديها ضخم

وقال الآخر

أعلاقة أم الوليد بعد ما * أفنان رأسك كالبنام الأبيض

ثم بعدها الصباية وسميت بذلك لانصباب القلب الى المحجوب قال الشاعر

يشكى المحبون الصباية ليتني * تحملت ما يلقون من بينهم وحدي

فكانت لقلبي لذة الحب كلها * فلم يلقها قبلي محب ولا بعدي

ثم الغرام وهو لزوم الحب للقلب لزوماً لا يبتك عنه ومنه سمي الغريم غرباً الملازمة
صاحبه ومنه قوله تعالى إن عذابها كان غراماً وقد أواع المتأخرون باستعمال هذا اللفظ
في الحب وقل أن تجده في أشعار العرب ثم العشق وهو سفر إفراط المحبة ولهذا لا يوصف
به الرب تبارك وتعالى ولا يطلق في حقه ثم الشوق وهو سفر القلب الى المحجوب أحت
السفر وقد جاء إطلاقها في حق الرب تعالى كما في مسند الامام أحمد من حديث عمار بن
ياسر إنه صلا صلاة فاجز فيها فليل له في ذلك فقال أما إني دعوت فيها بدعوات كان
النبي صلى الله عليه وسلم يدعو بهن اللهم إني أسئلك بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق
أحيني إذا كانت الحياة خيراً لي وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي اللهم إني أسئلك خشيتك
في الغيب والشهادة وأسئلك كلمة الحق في الرضاء والغضب وأسئلك القصد في الفقر والغنى
وأسئلك نعيماً لا ينفذ وأسئلك قرة عين لا تنقطع وأسئلك الرضاء بعد القضاء وأسئلك برد
العيش بعد الموت وأسئلك لذة النظر الى وجهك الكريم وأسئلك الشوق الى لقاءك في غير
ضراء مضرة ولا فتنة مضلة اللهم زينا بزينة الايمان واجعلنا هداة مهتدين وفي أثر آخر
طال شوق الابرار الى وجهك وأنا الى لقاءهم أشد شوقاً وهذا هو المعنى الذي عبر عنه
صلى الله عليه وسلم بقوله من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه وقال بعض أهل البصائر في
قوله تعالى من كان يرجوا لقاء الله فإن أجل الله لآت لما علم الله سبحانه شدة شوق أوليائه
الى لقائه وإن قلوبهم لا تهدي دون لقائه ضرب لهم أجلاً موعداً للاقائه تسكن نفوسهم به
وأطيب العيش والأذلة على الإطلاق عيش المشتاقين المسائسين فحياتهم هي الحياة الطيبة في الحقيقة
بلا حياة للعبد أطيّب ولا أنعم ولا أنها منها فهي الحياة الطيبة المذكورة في قوله تعالى من
عمل صالحاً من ذكر أو أنثي وهو مؤمن فلتحيينه حياة طيبة وليس المراد منها الحياة
مشتركة بين المؤمنين والكفار والابرار والفجار من طيب المأكل والمشرب والملبس والمنكح

بل ربما زاد أعداء الله على أوليائه في ذلك أضعافاً مضاعفة وقد ضمن الله سبحانه لكل من عمل صالحاً أن يحياه حياة طيبة فهو صادق الوعد الذي لا يخلف وعده وأي حياة أطيب من حياة من اجتمعت همومه كلها وصارت هي واحدة في مرضات الله ولم يستشعب قلبه بل أقبل على الله واجتمعت إرادته وإنكاره التي كانت منقسمة بكل واحد منها شعبة على الله فصار ذكر محبوبه الأعلى وحبه والشوق إلى لقائه والانس بقربه وهو المتولى عليه وعليه تدور همومه وإرادته وتصوره بل خطرات قلبه فإن سكت سكت بالله وإن نطق نطق بالله وإن سمع فبه يسمع وإن أبصر فبه يبصر وبه يبطن وبه يمشي وبه يتحرك وبه يسكن وبه يحيى وبه يموت وبه يبعث كما في صحيح البخاري عنه صلى الله عليه وسلم فيما يروي عن ربه تبارك وتعالى أنه قال ما تقرب إلى عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه ولا يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشى بها في يسمع وبه يبصر وبه يبطن وبه يمشي ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذ بي لأعيذنه وما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي عن قبض روح عبدي المؤمن من يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه فتضمن هذا الحديث الشريف الإلهي الذي حرام على غليظ الطبع كثيف القلب فهم معناه والمراد به حصر أسباب محبته في أمرين أداء فرائضه والتقرب إليه بالنوافل وأخبر سبحانه أن أداء فرائضه أحب مما تقرب إليه المتقربون ثم بعدها النوافل ولأن الحب لا يزال يكثر من النوافل حتى يصير محبوباً لله فإذا صار محبوباً لله أوجبت محبة الله له محبة منه أخرى فوق المحبة الأولى فشغلت هذه المحبة قلبه عن الفكرة والاهتمام بغير محبوبه وملكت عليه روحه ولم يبق فيه سعة لغير محبوبه البتة فصار ذكر محبوبه ووجه مثله الأعلى مالكا لتمام قلبه مستولياً على روحه إستيلاء المحبوب على محبة الصادق في محبته التي قد اجتمعت قوى حبه كلها له ولا ريب أن هذا المحب إن سمع سمع لمحبيبه وإن أبصر أبصر به وإن بطش بطش به وإن مشى مشى به فهو في قلبه ومعه ومؤنس وصاحبه قالبا ههنا بآاء المصاحبة وهي مصاحبة لا نظير لها ولا تدرك بمجرد الاخبار عنها والعلم بها فالمسألة خالية لاعلمية محضة وإذا كان المخلوق يجدهذا في محبة المخلوق التي لم يخلق لها ولم يفطر عليها كما قال بعض المحبين

خيالك في عيني وذكرك في فمي * ومثواك في قلمي فأين تغيب

*(وقال الآخر) *

وتطلبهم عيني وهم في سوادها * ويشنقهم قلبي وهم بين أضيائي

ومن عجب أني أحسن إليهم * فأستل عنهم من لقيت وهم معي

* (وهذا اللفظ من قول الآخر) *

إن قلت غبت قلبي لا يصدقني * إذ أنت فيه مكان السر لم تغب
أولت ما غبت قال الطرف ذا كذب * فقد تحيرت بين الصدق والكذب
فليس شيء أدنى من المحب لمحبوبه وربما تمكنت المحبة حتى يصير في المحبة أدنى إليه من
نفسه بحيث يذني نفسه ولا ينساه كما قيل

أريد لأنسي ذكره فكأنما * تمثل لي ليسلى بكل سليل

* (وقال الآخر) *

يراد من القلب نسيانكم * وتأتي الطباع على الناقل

وخص في الحديث السمع والبصر واليد والرجل بالذكور فان هذه الآلات آلات الادراك
وآلات الفعل والسمع والبصر يوردان على القلب الارادة والكرهية ويحجان اليه الحب
والبغض فتستعمل اليد والرجل فاذا كان سمع العبد بالله وبصره به كان محفوظاً في آلات
إدراكه فكان محفوظاً في حبه وبغضه يحفظ في بطشه ومشيه وتأمل كيف اكتفى بذكر
السمع والبصر واليد والرجل عن اللسان فانه اذا كان ادراك السمع الذي يحصل باختياره
تارة وبغير اختياره تارة وكذلك البصر قد يقع بغير الاختيار فجاء كذلك حركة اليد والرجل
التي لا بد للعبد منها فكيف بحركة اللسان التي لا يقع الا بقصد واختيار وقد يستغنى العبد
عنها الا حيث أمر بها وأيضاً فانفعال اللسان عن القلب أتم من انفعال سائر الجوارح فانه
ترجمانه ورسوله وتأمل كيف حقق تعالى كون العبد به عند سمعه وبصره الذي يبصر به
وإبطشه ومشيه بقوله كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها
ورجله التي يمشي بها تحقياً لكونه مع عبده وكون عبده في إدراكه بسمعه وبصره
وتحركته بيديه ورجله وتأمل كيف قال بي يسمع وبني يبصر وبني يبطش ولم يقل فلي
يسمع ولي يبصر ولي يبطش وربما يظن الظان ان اللام أولى بهذا الموضع إذ هي أدل
على الغاية ووقوع هذه الامور لله وذلك أخص من وقوعها به وهذا من الوهم والغلط إذ
ليست الباء ههنا لجرد الاستعانة فان حركات الابرار والفجار وإدراكهم انما هي بمعونة الله
لهم وان الباء ههنا للمصاحبة إنما يسمع ويبصر ويبطش ويمشي وأنا صاحبه ومعه كقوله
في الحديث الآخر أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت بي شفتاه وهذه المعية هي المعية الخاصة
المذكورة في قوله تعالى إن الله معنا وقول النبي صلى الله عليه وسلم ما ظنك بالذين اتوا
نائبهم وقوله تعالى وإن الله مع الحسنين وقوله إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون
وقوله واصبروا إن الله مع الصابرين وقوله كلا إن معي ربي سيهدين وقوله تعالى لموسى

وهارون إنني معكما أسمع وأرى فهذه الباء مفيدة بمعنى هذا المعية دون اللام ولا يتأتى للعبد الاخلاص والصبر والتوكل ونزوله في منازل العبودية الا بهذه الباء وهذه المعية فتى كان العبد بالله هانت عليه المشاق وانقلب الخاف في بحقه أمانا فبالله يهون كل صعب ويسهل كل عسير ويقرب كل بعيد وبالله تزول الاحزان والهموم والغموم فلا هم مع الله ولا غم مع الله ولا حزن مع الله وحيث يفوت العبد معنى هذه الباء فيصير قلبه حينئذ كالحوت إذا فارق الماء يثب ويتقلب حتى يعود اليه وما حصلت هذه الموافقة مع العبد لربه تعالى في محابه حصلت موافقة الرب لعبده في حوائجه ومطالبه فقال ولئن سئلي لأعطينه ولئن استعاذ بي لأعيذنه أي كما وافقني في مرادي بامتثال أوامري والتقرب الى محبابي فانا أوافقه في رغبته ورهيبته فيما يسئلي أن أفعل به ويستعيني أن يناله ماكره وحقق هذه الموافقة من الجانبين حتى اقتضى تردد الرب سبحانه في إماتة عبده ولأنه يكره الموت والرب تعالى يكره ما يكره عبده ويكره مساءته فمن هذه الجهة تقتضى انه لا يمته ولكن مصلحته في إماتته فانه ما أماته الا ليحييه وما أمرضه الا ليصحه وما أفقره الا ليغنيه وما منعه الا ليعطيه ولم يخرج من الجنة في صلب أبيه الا ليعيده اليها على أحسن الاحوال ولم يقل لآبيه أخرج منها الا ليعيده اليها فهذا هو الحبيب على الحقيقة لا سواه بل لو كان في كل منبت شعر لعبد محبة تامة لله لكان بعض ما يستحقه على عبده

قل فؤادك حيث شئت من الهوى * ما الحب الا للحبيب الاول
كم منزل في الارض يألفه الفتى * وحينه أبداً الاول منزل

فصل

ثم التيم وهو آخر مراتب الحب وهو تعبد المحب المحبوه يقال تيمه الحب إذا عبده ومنه تيم الله أي عبادة الله وحقيقة التعبد الذل والخضوع للمحبوب ومنه قواهم طريق معبداي مذل قد ذلته الاقدام فالعبد هو الذي ذلله الحب والخضوع المحب به ولهذا كانت أشرف أحوال العبد ومقاماته في العبودية فلا منزل له أشرف منها وقد ذكر الله سبحانه أكرم الخلق عليه وأحبهم اليه وهو رسوله محمد صلى الله عليه وسلم بالعبودية في أشرف مقاماته وهي مقام الدعوة اليه ومقام التحدي بالثبوة ومقام الاسرحة فقال سبحانه وإنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا وقال وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وقال سبحانه الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى وفي حديث الشفاعة إذهبوا الى محمد صلى الله عليه وسلم عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر

تقال مقام الشفاعة بكمال عبوديته وكال مغفرة الله له والله سبحانه خلق الخلق لمبادته
 وحده لا شريك له التي هي أكمل أنواع المحبة مع أكمل أنواع الخضوع والذل وهذا هو
 حقيقة الاسلام وملة ابراهيم التي من رغب عنها فقد سفه نفسه قال تعالى ومن يرغب
 عن ملة ابراهيم الا من سفه الآية ولهذا كان أعظم الذنوب عند الله الشرك والله لا يفر
 أن يشرك به ويفر مادون ذلك لمن يشاء واصل الشرك بالله الا شراك مع الله في المحبة
 كما قال تعالى ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا
 أشد حبا لله وأخبر سبحانه إن من الناس من يشرك به من دونه فيمخذ الانداد من دونه
 بحبهم كحب الله وأخبر أن الذين آمنوا أشد حبا لله من أصحاب الانداد لاناداهم وقيل بل
 الغني انهم أشد حبا لله من أصحاب الانداد الله فانهم وان أحبوا الله لكن لما أشركوا بينه وبين
 لعباده في المحبة ضعفت محبتهم لله والموحدون لله لما خلاصت محبتهم له كانت أشد من محبة
 أولئك والعدل رب العالمين والتسوية بينه وبين الانداد هو في هذه المحبة ولما كان مراد الله
 من خلقه هو خلوص هذه المحبة له أنكر على من اتخذ من دونه ولياً او شفيعاً غاية الانكار
 وجمع ذلك تارة وأقرها أحدهما عن الآخر تارة بالانكار فقال تعالى إن ربكم الله الذي خلق
 السموات والارض في ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الامر ما من شفيع الا من بعد
 إذنه وقال تعالى الله الذي خلق السموات والارض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على
 العرش مالكم من دونه من ولي ولا شفيع أفلا تتذكرون وقال تعالى وأنبأه الذين يخافون
 أن يحشروا الى ربهم ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع لعلمهم يتقون وقال في الافراد أم
 تتخذون من دون الله شفعاء قل أولو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون قل لله الشفاعة جميعاً
 وقال تعالى من وراءهم جهنم ولا يغني عنهم ما كسبوا شيئاً ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء
 لهم عذاب عظيم فاذا والى العبد ربه وحده وأقام له ولياً من شفعاء وعقد الموالاة بينه
 وبين عباده المؤمنين فصاروا أولياءه في الله بخلاف من اتخذ مخلوقاً أولياءه من دون الله
 هذا لون وذاك لون والشفاعة الشركية الباطلة لون والشفاعة الحق الثابتة التي انما تنال
 التوحيد لون وهذا موضع فرقان بين أهل التوحيد وأهل الشرك بالله والله يهدي من
 يشاء الى صراط مستقيم والمقصود ان حقيقة العبودية وموجباته لا تخص مع الاشراك بالله
 المحبة بخلاف المحبة لله فانها من لوازم العبودية وموجباتها فان محبة الرسول صلى الله عليه
 وسلم بل تقديمه في الحب على النفس وعلى الآباء والابناء لا يتم الايمان الا بها اذ محبته من
 محبة الله وكذلك كل حب في الله والله كما في الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال
 من كن فيه وجد بهن حلاوة الايمان وفي لفظ في الصحيح لا يجد عبد طعم الايمان

الا من كان في قلبه ثلاث خصال أن يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواها وان يحب المرأ
لا يحبه الا الله وان يكره أن يرجع الى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف
في النار وفي الحديث الذي في السنن من أحب لله وأبغض لله وأعطى الله ومنع الله فقد
استكمل الايمان وفي حديث آخر ما تحب رجلا في الله الا كان أفضلها أشدها حباً
لصاحبه فان هذه المحبة من لوازم محبة الله وموجباتها وكل ما كانت أقوى كان أصلها كذلك

❦ فصل ❦

وهنا أربعة أنواع من الحب يجب التفريق بينهما وإنما ضل من ضل بعدم التمييز بينهما
أحدهما محبة الله ولا تنكفي وحدها في النجاة من الله من عذابه والفوز بثوابه فان المشركين
وعباد الصليب واليهود وغيرهم يحبون الله الثاني محبة ما يحب الله وهذه هي التي تدخله في
الاسلام وتخرجه من الكفر وأحب الناس الى الله أقومهم بهذه المحبة وأشدهم فيها الثالث
الحب لله وفيه وهي من لوازم محبة ما يحب الله ولا يستقيم محبة ما يحب الله الا بالحب فيه
وله الرابع المحبة مع الله وهي المحبة الشريكة وكل من أحب شيئاً مع الله لالله ولا من
أجابه ولا فيه فقد اتخذ نداءً من دون الله وهذه محبة المشركين وبقي قسم خامس ليس بما
نحن فيه وهي المحبة الطبيعية وهي ميل الانسان الى ما يلائم طبعه كمحبة العطشان للماء
والجائع للطعام ومحبة النوم والزوجة والولد فلك لا تدم الا إن ألهت عن ذكر الله
وشغلت عن محبته كما قال تعالى يا أيها الذين آمنوا لا تأمكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر
الله وقال تعالى رجال لا تأمهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله

❦ فصل ❦

ثم الحسنة وهي تتضمن كل المحبة ونهايتها بحيث لا يبقى في القلب لمحبة سعة لغير محبوه
وهي منصب لا يقبل المشاركة بوجه وهذا المنصب خاصة للخليين صلوات الله وسلامه
عليهما إبراهيم ومحمد كما قال صلى الله عليه وسلم إن الله يتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً
وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم لو كنت متخذاً من أهل الارض خليلاً لا اتخذت
أبا بكر خليلاً ولكن صاحبكم خليل الله وفي حديث آخر اني أبرئ الى كل خليل من
خلتي ولما سأل إبراهيم عليه السلام الولد فأعطيه فعلق حبه بقلبه فأخذ منه شعبة غار
الحبيب على خديله أن يكون في قلبه موضع لغيره فامر بذبحه وكان الامر في المنام ليكون
تنفيذ المأمور به أعظم ابتلاء وامتحاناً ولم يكن المقصود ذبح الولد ولكن المقصود ذبحه
من قلبه ليخلص القلب للرب فلما بادر الخليل عليه الصلوات والسلام الى الامتثال وقدم

قبة الله على محبة ولده حصل المقصود فرفع الذبح وفدى بذبح عظيم فان الرب تعالى ما
مر بشيء ثم أبطله رأساً بل لأبد أن يبقى بعضه أو بدله كما أبقى شريعة الفداء وكما أبقى
استحباب الصدقة عند المناجاة وكما أبقى الخمس صلوات بعد رفع الحسين وأبقى نوابها
قال لا يبدل القول لدى خمس في الفعل وخمسون في الاجر

❦ فصل ❦

وأما ما يظنه بعض الظانين ان المحبة أكمل من الخلقة وان إبراهيم خليل الله ومحمد صلى
الله عليه وسلم حبيب الله فمن جهله فان المحبة عامة والخلقة خاصة والخلقة نهاية المحبة
وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم ان الله اتخذ إبراهيم خليلًا ونبي أن يكون له خليل غير
وبه مع اخباره لحبه لعائشة ولانبياءها ولعمر بن الخطاب وغيرهم وأيضاً فان الله سبحانه يحب
التوابين ويحب الصابرين ويحب المحسنين ويحب المتقين ويحب المقسطين وخلقه خاصة
بالخليلين عليهما الصلاة والسلام والشاب الثائب حبيب الله وإنما هذا عن قلة العلم والفهم
عن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم

❦ فصل ❦

وقد تقدم أن العبد لا يترك ما يحب ويهواه إلا لما يحبه ويهواه ولكن يترك أضعف ما محبة
لأقواها محبة كما انه يفعل ما يكره لحصول ما محبته أقوى عنده من كراهة ما يفعله والخلاص
من كراهته عنده أقوى من كراهة ما يفعله وتقدم ان خاصية العقل إيثارة على المحبوبين
على أدناها وأيسر المكروهين على أقواها وتقدم ان هذا الكمال قوة الحب والبغض ولم يتم
له هذا إلا بامر من قوة الادراك وشجاعة القلب فان التخلف عن ذلك والعمل بخلافه
يكون اما بضعف الادراك بحيث إن لم يدرك مراتب المحبوب والمكروه على ما كان عليه
إما لضعف في النفس وعجز في القلب لا يطاوعه الايثار الا صاحب له مع علمه بانه الاصلح
فاذا صح إدراكه وقويت نفسه وتشجع القلب على إيثار المحبوب الاعلى والمكروه الادنى
فقد وافق لاسباب السعادة فمن الناس من يكون سلطان شهوته أقوى من سلطان عقله
وإيمانه فيقهر الغالب الضعيف ومنهم من يكون سلطان إيمانه وعقله أقوى من سلطان شهوته
وإذا كان كثير من المرضى يحميه الطبيب عما يضره فتأباً عليه نفسه وشهوته لإلتناوله ويقدم
شهوته على عقله وتسميه الاطباء عديم الرؤية فهكذا أكثر مرضى القلب يؤثرون ما يزيد
مرضهم لقوة شهوتهم له فاصل الشر من ضعف الادراك وضعف النفس ودنائتها وأصل
الخير من كمال الادراك وقوة النفس وشرورها وشجاعتها فالحب والارادة أصل كل فعل

ومبدأه والبغض والكراهة أصل كل ترك ومبدأه وهاتان القوتان في القلب أصل سعادته وشفاقته ووجود العقل الاختياري لا يكون إلا بوجود سببه من الحب والارادة وأما عدم الفعل فتارة يكون لعدم مقتضاه وسببه وتارة يكون بوجود البغض والكراهة المانع منه وهذا متعلق الامر والنهي وهو يسمى الكف وهو متعلق الثواب والعقاب وبهذا يزول الاشتباه في مسألة الترك هل هو أمر وجودي أو عدمي والتحقيق انه قسمان فالترك المضاف الى عدم السبب المقتضي عدمي والمضاف الى السبب المانع من الفعل وجودي

❦ فصل ❦

وكل واحد من الفعل والترك الاختياريين فانما يؤثر الحلي لما فيه من الحصول والمتفعة التي ينتد بحصولها أو زوال الالم الذي يحصل له الشفاء بزواله ولهذا يقال شفاء صدره وشفاء قلبه قال

هي الشفاء لداء لو ظفرت بها * وليس منها شفاء الداء مبذول

وهذا مطلوب يؤثره العاقل حتى الحيوان البهيم ولكن يغلط فيه أكثر الناس غلطاً قبيحاً فية صد حصول اللذة بما يعقب عليه أعظم الالم فيؤلم نفسه من حيث يظن أنه يحصل لذتها ويشقى قلبه بما يعقب عليه غاية المرض وهذا شأن من قصر نظره على العاجل ولم يلاحظ العواقب وخاصة العقل النظر في العواقب فاعقل الناس من أثر لذة نفسه وراحته في الآجلة الدائمة على العاجلة المنقضية الزائلة وأسفه الخلق من باع نعيم الابد وطيب الحياة الدائمة واللذة العظمى التي لا تنفيس فيها ولا نقص بوجه ما بلذة منقضية مشوبة بالآلام والخاوف وهي سريعة الزوال وشيكة الانقضاء قال بعض العلماء فكرت في سمي العقلاء فرأيت سعيهم كلهم في مطلوب واحد وإن اختلفت طرقهم في تحصيله رأيتهم جميعهم إنما يسعون في دفع الهم والغم عن نفوسهم فهذا في الاكل والشرب وهذا في التجارة والكسب وهذا بالنكاح وهذا بسماع الغناء والاصوات المطربة وهذا باللهو واللعب فقلت هذا المطلوب مطلوب العقلاء ولكن الطرق كلها غير موصلة اليه بل لعل أكثرها إنما يوصل الى ضده ولم أر في جميع هذه الطرق طريقاً موصلاً اليه بل لعل أكثرها إنما يؤثر الى الاقبال على الله وحده ومعاملته وحده وإيثار مرضاته على كل شيء فان سالك هذا الطريق ان فاته حظه من الدنيا فقد ظفر بالخط العالي الذي لا قوت معه وإن حصل للعبد حصل له كل شيء وإن فاته فاتته كل شيء وإن ظفر بحظه من الدنيا ناله على أهني الوجوه فليس للعبد أنفع من هذا الطريق ولا أوصل منه الى لذته وبهيجته وسعادته وبالله التوفيق

فصل ❦

والمحجوب قسمان محبوب لنفسه ومحجوب لغيره ولا بد أن ينتهي إلى المحجوب لنفسه دفعا
لتسلسل المحال وكل ماسوى المحجوب الحق فهو محجوب لغيره وليس شيء يحب لنفسه إلا الله
وحده وكل ماسواه مما يحب فانما محبته تبع لمحبة الرب تبارك وتعالى كمحبة ملائكته وأنبيائه
وأوليائه فانها تبع لمحبة سبحانه وهي من لوازم محبته فان محبة المحجوب توجب محبة ما يحبه
وهذا موضع يجب الاعتناء به فانه محل فرقان بين المحبة النافعة لغيره والتي لا تنفع بل قد
تضر واعلم انه لا يحبه لذاته الا من كاله من لوازم ذاته وإلهيته وربوبيته وغناه من لوازم ذاته
وماسواه فانما ينفى ويكره لثناؤه محابه ومضاده لها وبغضه وكرهاته بحسب قوة هذه المناقاة
وضمها فان كان أشد مناقاة لمحابه كان أشد كراهة من الاعيان والاصاف والافعال والارادات
وغيرها فهذا ميزان عادل يوزن به موافقة الرب ومخالفته وموالاته ومعاداته فاذا رأينا
شيخصا يحب ما يكرهه الرب تعالى ويكره ما يحبه علمنا ان فيه من معاداته بحسب ذلك واذا
رأينا الشخص يحب ما يحبه الرب ويكره ما يكرهه وكما كان الشيء أحب إلى الرب كان أحب
إليه وأثره عنده وكما كان أبغض إليه كان أبغض إليه وأبعد منه علمنا ان فيه من موالات
الرب بحسب ذلك فتمسك بهذا الاصل غاية التمسك في نفسك وفي غيرك فالولاية عبارة عن
موافقة الولي الحميد في محابه ومساخطه ليست بكثرة صوم ولا صلاة ولا رياضة
والمحجوب لغيره قسمان أيضا أحدهما ما يلتذ المحب بادرأكه وحصوله والثاني ما يتألم به ولكن
يحتمله لأفضائه إلى المحجوب كشرب الدواء الكريه قال تعالى كتب عليكم القتال وهو كره
لكم وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم
وأتم لاتعلمون فاخبر سبحانه أن القتال مكروه لهم مع إثمهم خير لهم لأفضائه إلى أعظم
محجوب وأنفعه وأنفوس تحب الراحة والفراغة والرفاهية وذلك شر لها لأفضائه إلى فوات
هذا المحجوب فالعقل لا ينظر إلى لذة المحجوب العاجل فيؤثرها وألم المكروه العاجل فيرغب
عنه فان ذلك قد يكون شرآله بل قد يجلب عليه غاية الألم وتقوته أعظم اللذة بل عقلاء الدنيا
يحملون المشاق المكروهة لما يقيمهم من اللذة بعدها وإن كانت منقطعة فالأمور أربعة مكروه
يوصل إلى مكروه ومكروه يوصل إلى محجوب ومحجوب يوصل إلى محجوب ومحجوب يوصل
إلى مكروه فالمحجوب الموصل إلى المحجوب قد اجتمع فيه داعي الفعل من وجهين والمكروه
الموصل إلى مكروه قد اجتمع فيه داعي الترك من وجهين بقي قسمان الاخران يتجاوزهما
الداعيان وهما معترك الابتلاء والامتحان فالنفس تؤثر أقربهما جوارأمنهما وهو العاجل والعقل

والعقل والایمان يؤثران نفعهما وإيقاظها والقلب بين الداعيين وهو الى هذا مرة وإلى
هذه مرة وههنا محل الابتلاء شرعاً وقدره فداعي العقل والایمان ينادي كل وقت حي على الفلاح
عند الصباح بحمد القوم السري وفي الممات بحمد العبد النقي فان اشتد ظلام ليل المحبة وتحكم
سلطان الشهوة والارادة يقول

يانفس اصبري فما هي الاساعة * ثم تنقضي ويذهب هذا كله ويزول

فصل

وإذا كان الحب أصل كل عمل من حق وباطل فأصل الاعمال الدينية حب الله ورسوله
كأن أصل الاقوال الدينية تصديق الله ورسوله وكل إرادة تمنع كمال حب الله ورسوله
وتزاحم هذه المحبة وشبهه منع كمال التصديق في معارضة لأصل الايمان أو مضغفة له فان
قويت حتي عارضت أصلي الحب والتصديق كانت كفراً وشركاً أكبر وإن لم تعارضه قدحت
في كماله وأثرت فيه ضعفاً وفتوراً في العزيمة والطلب وهي تحجب الواصل وتقطع الطالب
وتسكي الراغب فلا تصلح المولات إلا بالمعادات كما قال تعالى عن إمام الخلفاء الحمين انه قال
لقومه أفرايتم ما كنتم تعبدون أتم وآباؤكم الاقدمون فانهم عدولي لإلرب العالمين فلم تصلح
لخليل الله هذه الموالاة والحلة إلا بتحقيق هذه المعادات فان ولاية الله لا تصح إلا بالبراءة
من كل معبود سواه قال تعالى قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا
لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدأيتنا بينكم العداوة والبغضاء
أبدا حتي تؤمنوا بالله وحده وقال تعالى وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إني برآء مما تعبدون
إلا الذي فطرني فإنه سيهدين وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون أي جعل هذه الموالاة
لله والبراءة من كل معبود سواه كلمة باقية في عقبه يتوارثها الانبياء وأتباعهم بعضهم عن
بعض وهي كلمة لا إله إلا الله وهي التي ورثها إمام الخلفاء لاتباعه الي يوم القيامة وهي الكلمة
التي قامت بها الارض والسموات وفطر الله عليها جميع المخلوقات وعليها أسست الملة ونصبت
القبلة وجردت سيوف الجهاد وهي محض حق الله على جميع العباد وهي الكلمة العاصمة
للدن والمال والذرية في هذه الدار والمنجية من عذاب القبر وعذاب النار وهي النشور الذي
لا تدخل الجنة إلا به والحب الذي لا يصل الى الله من لم يتعلق بربه وهي كلمة الاسلام
ومفتاح دار السلام وبها تنقسم الناس الى شقي وسعيد ومقبول وطريد وبها انفصلت دار
الكفر من دار الاسلام وتميزت دار النعيم من دار الشقاء والهوان وهي العمود الحامل
للفرض والسنة ومن كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة وروح هذه الكلمة وسرها

أفراد الرب جل ثناؤه وتقدست أسماؤه وتبارك اسمه وتعالى جده ولا إله غيره بالحجة والجلال والتعظيم والخوف والترجاء وتوابع ذلك من التوكل والابانة والرغبة والرهبة فلا يحب سواه بل كل ما كان يحب غيره فانما هو تبعاً لمحبهه وكونه وسيلة الى زيادة محبهه ولا يخاف سواه ولا يرجي سواه ولا يتوكل إلا عليه ولا يرغب إلا اليه ولا يهرب إلا منه ولا يخاف إلا باسمه ولا يندر إلا له ولا يتاب إلا اليه ولا يطاع إلا أمره ولا يحتسب إلا به ولا يستعان في الشدائد إلا به ولا يلتجئ إلا اليه ولا يسجد إلا له ولا يذبح إلا له وباسمه يجتمع ذلك في حرف واحد وهو أن لا يعبد بجميع أنواع العبادة إلا هو فهذا هو تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله ولهذا حرم الله على النار من شهد أن لا إله إلا الله حقيقة الشهادة ومحال أن يدخل النار من تحقق بحقيقة هذه الشهادة وقام بها كما قال تعالى والذين هم بشهاداتهم دائمون فيكون قائماً بشهادته في باطنه وظاهره وفي قلبه وقالبه فان من الناس من تكون شهادته ميتة ومنهم من تكون نائمة اذا نهت انتهت ومنهم من تكون مضطجعة ومنهم من تكون الى القيام أقرب وهي في القلب بمنزلة الروح في البدن فروح ميتة وروح مريضة الى الموت أقرب وروح الى الحياة أقرب وروح صحيحة قائمة بمصالح البدن وفي الحديث الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم إني لأعلم كلمة لا يقولها عبد عند الموت الا وجدت روحه لها روحاً فحياة هذه الروح بهذه الكلمة فيها فكما ان حياة البدن بوجود الروح فيه وكما ان من مات على هذه الكلمة فهو في الجنة يتقلب فيها فمن عاش على تحقيقها والقيام بها فروحه تتقلب في جنة المأوى وعيشها أطيب عيش قال تعالى وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هي المأوى فالجنة مأواه يوم اللقاء وجنة المعرفة والمحبة والانس بالله والشوق الى لقائه والفرح به والرضى عنه وبه مأوى روحه في هذه الدار فمن كانت هذه الجنة مأواه ههنا كانت جنة الخلد مأواه يوم المعاد ومن حرم هذه الجنة فهو لتلك الجنة أشد حرماناً والابرار في نعيم وإن اشتد بهم العيش وضائق بهم الدنيا والفجار في جحيم وإن إنسعت عليهم الدنيا قال تعالى من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلننجينه حياة طيبة وطيب الحياة جنة الدنيا قال تعالى فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً فأني أنيم أطيب من شرح الصدر وأي عذاب أضيّق من ضيق الصدر وقال تعالى ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشري في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم فالؤمن الخاص لله من أطيب الناس عيشاً وأنعمهم تالاً وأشرحهم صدرأ وأسهرهم قلباً وهذه جنة عاجلة قبل الجنة الآجلة قال النبي صلى الله عليه وسلم إذا مهرتم

برياض الجنة فارتعوا قالوا وما رياض الجنة قال خلق الذكر ومن هذا قوله صلى الله عليه وسلم ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة ومن هذا قوله وقد سئلوه عن وصاله في الصوم وقال اني است كهيئتكم اني اطل عند ربي يطعمني ويسقيني فاخبر صلى الله عليه وسلم ان ما يحصل له من الغذاء عند ربه يقوم مقام الطعام والشراب الحسي وإن ما يحصل له من ذلك أمر مختصاً به لا يشركه فيه غيره فاذا أمسك عن الطعام والشراب فله عوض عنه يقوم مقامه وينوب منابه وينى عنه كما قيل

لها أحاديث من ذكر اك تشغلها * عن الشراب وتامها عن الزاد

لها بوجهك نور يستضي به * ومن حديثك في أعقابها حادي

إذا اشتكت من كلال السير أو عدها * روح اللقاء فتحي عند ميعادي

وكل ما كان وجود الشيء أنفع للعبد وهو إليه أحوج كان تألمه بفقدته أشد وكل ما كان عدمه أنفع كان تألمه بوجوده أشد ولا شيء على الإطلاق أنفع للعبد من إقباله على الله واشتغاله بذكره وتنعمه بحبه وإيثاره لرضائه بل لا حياة له ولا نعيم ولا سرور ولا بهجة الا بذلك فعدمه ألم شيء له وأشد عذاباً عليه وإنما تغيب الروح عن شهود هذا الألم والعذاب لاشتغالها بغيره واستغراقها في ذلك الغير فتغيب به عن شهود ما هي فيه من ألم العقوبة بفراق أحب شيء إليها وأنضم لها وهذا بمنزلة السكران المستغرق في سكره الذي احترقت داره وأمواله وأهله وأولاده وهو لاستغراقه في السكر لا يشعر بألم ذلك القوات وحسرتة حتى إذا صحى وكشف عنه غطاء السكر واتقته من رقدة الخمر فهو أعلم بحاله حينئذ وهكذا الحال سواء عند كشف الغطاء ومما ينة طلائع الآخرة والاشراف على مفارقة الدنيا والانتقال منها الى الله بل الألم والحسرة والعذاب هناك أشد باضاف أضماف ذلك فان المصاب في الدنيا يرجو جبر مصيبته في الدنيا بالعوض ويعلم إنه قد أصيب بشيء زائل لا بقاء له فكيف بمن مصيبته بما لا عوض عنه ولا بدل منه ولا نسبة بينه وبين الدنيا جميعا فلو قضى الله سبحانه بالموت من هذه الحسرة والألم لكان العبد جديراً به وان الموت لا يعود أكبر أمنيته وأكبر حسراته هذا لو كان الألم على مجرد القوات كيف وهناك من العذاب على الروح والبدن أمور أخرى وجودية مالا يقدر قدره فتبارك من حمل هذا الخلق الضعيف هذين الامين العظيمين اللذين لا يحملهما الجبال الرواسي فاعرض على نفسك الآن أعظم محبوب لك في الدنيا بحيث لا تطيب لك الحياة الا معه فاصبحت وقد أخذ منك وحيل بينك وبينه أحوج ما كنت اليه كيف يكون حالك هذا ومنه كل عوض فكيف بمن لا عوض عنه كما قيل

من كل شيء إذا ضيعته عوض * وما من الله أن ضيعته عوض
وفي الأثر الإلهي بن آدم خلقتك لعبادتي فلا تلعب وتكفلت برزقك فلا تمتع ابن
آدم أطلبني تجديني فإن وجدتني وجدت كل شيء وإن فتك فتك كل شيء وأنا أحب
إليك من كل شيء

❦ فصل ❦

ولما كانت المحبة جنساً تحته أنواع متفاوتة في القدر والوصف كان أغلب ما يذكر فيها
في حق الله تعالى ما يختص به ويليق به من أنواعها ولا يصلح إلا له وحده مثل العبادات
والإنايات ونحوها فإن العبادات لا تصلح إلا له وحده وكذا الإنايات وقد ذكر المحبة باسمها
المطلق كقوله تعالى فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه وقوله تعالى ومن الناس من يتخذ
من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله وأعظم أنواع المحبة المذمومة
المحبة مع الله التي سوى فيها المحب بين محبة الله ومحبة الله الذي يحبه من دون الله
وأعظم أنواعها المحمودة محبة الله وحده وهذه المحبة هي أصل السعادة ورأسها التي لا يخو
أحد من العذاب إلا بها والمحبة المذمومة الشريكة هي أصل الشقاوة ورأسها التي لا يبتقي في
العذاب إلا أهلها فاهل المحبة الذين أحبوا الله وعبدوه وحده لا شريك له لا يدخلون النار
من دخلها منهم بذنوبه فإنه لا يبتقي فيها منهم أحد ومدار القرآن على الأمر بتلك المحبة و
أزماها والنهي عن المحبة الأخرى ولوازمها وضرب الأمثال والمقاييس للنوعين وذكر قصص
لولا زماها النوعين وتفصيل أعمال النوعين وأوليائهم ومعبود كل منهما وأخباره عن فعله
ونوعين وعن حال النوعين في الدور الثلاثة دار الدنيا ودار البرزخ ودار القرار والقرآن
بافي شأن النوعين وأصل دعوة جميع الرسل من أولهم إلى آخرهم إنما هو عبادة الله وحده
لا شريك له المتضمنة لكمال حبه وكمال الخضوع والذل له والاحلال والتعظيم ولوازم
ذلك من الطاعة والتقوى وقد ثبت في الصحيحين من حديث أنس عن النبي صلى الله عليه
وسلم أنه قال والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده
والناس أجمعين وفي صحيح البخاري عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال يا رسول الله
والله لانت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي فقال لا يا عمر حتى أكون أحب إليك من
نفسك فقال والذي بعثك بالحق لانت أحب إلي من نفسي فقال الآن يا عمر فإذا كان هذا
شأن محبة عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم ووجوب تقديمها على محبة النفس والولد وولد
والناس أجمعين فما الظن بمحبة مرسله سبحانه وتعالى ووجوب تقديمها على محبة ماسواه

ومحبة الرب تعالى تختص عن محبة غيره في قدرها وصفها وإفراده سبحانه بها فإن الواجب له من ذلك كله أن يكون إلى العبد أحب إليه من ولده ووالده بل من سمعه وبصره ونفسه التي بين جنبيه فيكون إله الحق ومعبوده أحب إليه من ذلك كله والشيء قد يحب من وجه دون وجه وقد يحب بغيره وليس شيء يحب لذاته من كل وجه إلا الله وحده ولا تصلح الألوهية إلا له ولو كان فهما آلهة إلا الله لفسدنا والتأله هو المحبة والطاعة والخضوع

﴿ فصل ﴾

وكل حركة في العالم العلوي والسفلي فأصلها المحبة فهي علتها الفاعلية والغائية وذلك لأن الحركات ثلاثة أنواع حركة إختيارية إرادية وحركة طبيعية وحركة قسرية فالحركة الطبيعية أصلها السكون وإنما تحرك الجسم إذا خرج عن مستقره ومركزه الطبيعي فهو يتحرك للعود إليه وخروجه عن مركزه ومستقره وإنما تحرك بحرك القاسر المحرك له فله حركة قسرية تحرك بتحريك محركه وقاسمه وحركة طبيعية بذاتها تطلب بها العود إلى مركزه وكلا حركتيه تابع للمحرك القاسر فهو أصل الحركتين والحركة الإختيارية الإرادية هي أصل الحركتين الأخرتين وهي تابعة للإرادة والمحبة فصارت الحركات الثلاث تابعة للمحبة والإرادة والدليل على انحصار الحركات في هذه الثلاث أن المتحرك إن كان له شعور بالحركة فهي الإرادية وإن لم يكن له شعور بها فاما أن يكون على وفق طبيعته الأولى فالأولى هي الطبيعية والثانية هي القسرية إذا فهمت هذا فما في السموات والأرض وما بينهما من حركات الأفلاك والشمس والقمر والنجوم والرياح والسحاب والمطر والنبات وحركات الأجنة في بطون أمهاتها فانما هي بواسطة الملائكة المدبرين أمراً والمقدمات أمراً كما دل على ذلك نصوص القرآن والسنة في غير موضع والإيمان بذلك من تمام الإيمان بالملائكة فإن الله وكل بالرحم ملائكة وبالقطر ملائكة وبالنبات ملائكة وبالرياح ملائكة وبالأفلاك والشمس والقمر والنجوم ووكل بكل عبد أربعة من الملائكة كاتبين على يمينه وعلى شماله وحافظين من بين يديه ومن خلفه ووكل ملائكة بقبض روحه ونجسها إلى مستقرها من الجنة والنار وملائكة بمسأله وإمتحانه في قبره وعذابه هناك أو نعيمه وملائكة تسوقه إلى المحشر إذا قام من قبره وملائكة بتعذيبه في النار أو نعيمه في الجنة ووكل بالحيال ملائكة وبالسحاب ملائكة تسوقه إلى حيث أمرت به وملائكة بالقطر تنزله بأمر الله بقدر معلوم كما شاء الله ووكل ملائكة بفرس الجنة وعمل آلاتها وفرشها ونياها والقيام عليها وملائكة بالنار كذلك فاعظم جند الله الملائكة ولفظ الملك يشعر بأنه رسول منفذ لأمر غيره

يس لهم من الامر شيء بل الامر كله لله وهم يدبرون الامر ويقسمونه باذن الله وامره
ال تعالي اخبارا عنهم وما ننزل الا بالامر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك
ما كان ربك نسيا وقال تعالى وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئا الا من بعد
ن يأذن الله لمن يشاء ويرضى وأقسم سبحانه بطوائف من الملائكة المنفذين لامره في
خلقته كما قال تعالى والصابغات صفاء فالزاجرات زجراً قال اليات ذكرأ وقال والمرسلات
مرفأ فالعاصفات عصفأ والناشرات نشرأ فالفارقات فرقا فالملقيات ذكرأ عذرا أو نذرا
وقال تعالى وانازعات غرقأ والناشطات نشطأ والسابحات سبحأ فالسابقات سبقأ فالمدبرات
أمرأ أو قد ذكرنا معنى ذلك وسر الاقسام في كتاب أقسام القرآن اذا عرف ذلك فجميع
ملك المحبات والحركات والارادات والافعال هي عباداتهم لرب الارض والسموات وجميع
الحركات الطبيعية والقسرية تابعة لها فلاول الحب مادارت الافلاك ولا تحركت الكواكب
النيرات ولا هبت الرياح المسخرات ولا مرت السحاب الحاملات ولا تحركت الأجنة في
بطون الامهات ولا أنصدع عن الحب أنواع النبات ولا اضطربت أمواج البحار الزاجرات
ولا تحركت المدبرات والمقسمات ولا سبحت بحمد فاطرها الارض والسموات وما فيها
من أنواع المخلوقات فسبحان من تسبحه السموات والارض ومن فيهن وان من شيء الا
يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً

فصل ٥

إذا عرف ذلك فكل حي له إرادة ومحبة وعمل يحسنه وكل متحرك فأصل حركته
المحبة والارادة والاصلاح للموجودات الابان تكون حركاتها ومحبتها لفاطرها وباريها
وحده كما لا وجود لها الا بأبداعه وحده ولهذا قال تعالى لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا
فسبحان الله رب العرش عما يصفون ولم يقل سبحانه لما وجدنا ولكننا معدومتين ولا
قال لعدمنا اذ هو سبحانه قادر على أن يبقيهما على وجه الفساد لكن لا يمكن أن تكون
على وجه الصلاح والاستقامة الا بان يكون الله وحده وهو معبود لهما ومعبود ما حوتاه
وسكن فيهما فلو كان للعالم إلهان لفسد نظامه غاية الفساد فان كل إله يطلب مغالبة الآخر
والعلو عليه وتفرده دونه بالالهية اذ الشرك نقص في كمال الالهية والاله لا يرضى لنفسه أن
يكون إلهاً ناقصاً فان قهر أحدهما الآخر كان هو الاله وحده والمنتهى ورايس باله وان لم يقهر
أحدهما الآخر لزم عجز كل منهما ونقصه ولم يكن تام الالهية فيجب أن يكون فوقهما إله
قاهر لهما حاكم عليهما وإلا ذهب كل منهما بما خلق وطلب كل منهما العلو على الآخر

وفي ذلك فساد أمر السموات والارض ومن فيهما كما هو المعبود من فساد البلد اذا كان فيها ملكان متكافئان وفساد الزوجة اذا كان لها بهلان والشول اذا كان فيه فخلان واصل فساد العالم انما هو من فساد اختلاف الملوك والخلفاء ولهذا لم تطمع أعداء الاسلام فيهم في زمن من الازمنة الا في زمن تعدد الملوك من المسلمين واختلافهم وانفراد كل واحد منهم ببلاد وطالب بعضهم الملوك على بعض فصلاح السموات والارض واستقامتهما وانتظام أمر المخلوقات على أتم نظام ومن أظهر الأدلة على أنه لا إله الا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير وان كل معبود من لدن عرشه الى قرار أرضه باطل إلا وجهه الأعلى قال الله تعالى ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله اذا لذهب كل إله بما خلق ولعل بعضهم على بعض سبحانه الله عما يصفون علم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون وقال تعالى أم اتخذوا آلهة من الارض هم ينشرون لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون وقال تعالى قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لا بتقوا الى ذي العرش سبيلا قيل المعنى لا بتقوا السبيل اليه بالمغالبة والقهر كما يفعل الملوك بعضهم مع بعض ويدل عليه قوله في الآية الاخرى ولعل بعضهم على بعض قال شيخنا والصحيح ان المعنى لا بتقوا اليه سبيلا بالتقرب اليه وطاعته فكيف تعبدونهم من دونه وهم لو كانوا آلهة كما يقولون لكانوا عبيداً له قال ويدل على هذا وجوه منها قوله تعالى أو أئلك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه أي هؤلاء الذين يعبدونهم من دونه هم عبادي كما أتم عبادي ويرجون رحمتي ويخافون عذابي فلماذا تعبدونهم من دوني الثاني انه سبحانه لم يقل لا بتقوا عليه سبيلا قال لا تسقوا اليه سبيلا وهذا اللفظ إنما يستعمل في القرب كقوله تعالى اتقوا الله وابتغوا الوسيلة وأما في المغالبة فانما يستعمل بلى كقوله فان أظنكم فلا تبغوا عليهم سبيلا الثالث إنهم لم يقولوا إن آلهتهم تغالبه وتطلب العلو عليه وهو سبحانه قال قل لو كان معه آلهة كما يقولون وهم لما كانوا يقولون ان آلهتهم تبتغي التقرب اليه وتقربهم زلفى اليه قال تعالى لو كان الامر كما تقولون لكانت تلك الآلهة عبيداً له فلماذا تعبدون عبيده من دونه

❦ فصل ❦

والحجة لها آثار وتوابع ولوازم وأحكام سواء كانت محمودة أو مذمومة نافعة أو ضارة من الوجه والذوق والحلاوة والشوق والانس والاتصال بالحبوب والتقرب منه والانفصال عنه والبعد منه والصد والهجران والفرح والسرور والبكا والحزن وغير ذلك من أحكامها

ولوازمها والمحبة المحموددة هي المحبة النافعة التي تجلب لصاحبها ما ينفعه في دنياه وآخرته وهذه المحبة هي عنوان السعادة وضدها هي التي تجلب لصاحبها ما يضره في دنياه وآخرته وهي عنوان الشقاوة ومعلوم ان الحى العاقل لا يختار محبة ما يضره ويشقيه وإنما يصدر ذلك عن جهله وظلمه فان النفس قد تهوى ما يضرها ولا ينفعها وذلك ظلم من الانسان لنفسه اما ان تكون النفس جاهلة بحال محبوبها بان تهوى الشيء ونحوه غير عالمة بما في محبته من المضره وهذا حال من اتبع هواه بغير علم واما عالمة بما في محبته من الضرر لكن يؤثر هواها على عامها وقد تترك محبتها من أمرين من إعتقاد فاسد وهوى مذموم وهذا حال من اتبع الظن وما تهوى الانفس فلا تقع المحبة الفاسدة الا من جهل أو اعتقاد فاسد وهو غالب أو ما تركب من ذلك فاعان بعضه بعضاً فتتفق شبهة يشبهها الحق بالباطل يزين له أمر المحبوب وشهوة تدعوه الى وصوله فيتساند جيش الشهوة والشهوة على جيش العقل والايمان والغلبة لا قواها اذا عرف هذا فتوابع كل نوع من أنواع المحبة له حكم متبوعه فالمحبة النافعة المحموددة التي هي عنوان سعادة العبد وتوابعها كلها نافعة له حكمها حكم متبوعها فان بقي نفعه وإن حزن نفعه وإن فرح نفعه وإن انبسط نفعه وإن انقبض نفعه فهو يتقلب في منازل المحبة وأحكامها في مزيد وورخ وقوة والمحبة المضرمة المذمومة توابعها وآثارها كلها ضارة لصاحبها مبعدة له من ربه كيف ما تقلب في آثارها ونزل في منازلها فهو في خسارة وبعد وهذا شأن كل فعل تولد عن طاعة ومعصية فكل ما تولد من الطاعة فهو زيادة لصاحبه وقرب وكل ما تولد من المعصية فهو خسران لصاحبه وبعد قال تعالى ذلك بانهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يطؤون موطئاً يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلاً الا كتب لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً الا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون فأخبر سبحانه في الآية الاولى أن المتولد عن طاعتهم وأفعالهم يكتب لهم به عمل صالح وأخبر في الثانية أن أعمالهم الصالحة التي باتمروها تكتب لهم أنفسهم والفرق بينهما ان الاول ليس من فعلهم وإنما تولد عنه فكتب لهم به عمل صالح والثاني نفس أفعالهم فكتب لهم فليتأمل قتيل المحبة هذا الفصل حق التأمل ليعلم ماله وما عليه

سيعلم يوم العرض أي بضاعة * أضاع وعند الوزن ما كان حصلاً

فصل

وكا ان المحبة والارادة أصل كل فعل كما تقدم فهي أصل كل دين سواء كان حقاً أم

باطلا فان الدين هو من الاعمال الباطنة والظاهرة والمجبة والارادة أصل ذلك كله والدين هو الطاعة والعبادة والخلق فهو الطاعة اللازمة الدائمة التي صارت خلقا وعادة ولهذا فسم الخلق بالدين في قوله تعالى وإنا لك لعلى خالق عظيم قال الامام أحمد عن ابن عينة قال ابن عباس لعلى دين عظيم وسئلت عائشة عن خالق النبي صلى الله عليه وسلم فقالت كان خلق القرآن والدين فيه معنى الاذلال والقهرو فيه معنى الذل والخضوع والطاعة فذلك يكون من الاعلى الى الاسفل كما يقال دنته فدان أي قهرته فذل قال الشاعر

هو أدنى الزمان أذكر هذا الدين * فاصبحوا بغيره وصيان

ويكون من الأدنى الى الأعلى كما يقال دنت الله ودنت الله وفلان لا يدين الله ديناً ولا يدين الله بدين فدان الله أي أطاع الله وأحبه وخافه ودان الله أي خشع له وخضع وذل وانقاد والدين الباطن لا بد فيه من الخضوع والحب كالعبادة سواء بخلاف الدين الظاهر فإنه لا يستلزم الحب وإن كان فيه انقياد وذل في الظاهر وسمي الله تعالى يوم القيامة يوم الدين لأنه اليوم الذي يدين فيه الناس فيه بأعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر وذلك يتضمن جزاؤهم وحسابهم فلذلك فسروا بيوم الجزاء ويوم الحساب وقال تعالى فلولوا إن كنتم غير مدينين يرجعونها إن كنتم صادقين أي هلا تردون الروح الى مكانها إن كنتم غير مربوبين ولا مقهورين ولا مجزيين وهذه الآية تحتاج الى تفسير فإنها سبقت للاحتجاج عليهم في إنكارهم البعث والحساب ولا بد أن يكون الدليل مستلزم لمدلوله بحيث يتقوى الذهن منه الى المدلول لما بينهما من التلازم فيكون الملزوم دالاً على لازمه ولا يجب العكس ووجه الاستدلال أنهم إذا أنكروا البعث والجزاء فقد كفروا بربهم وأنكروا قدرته وربوبيته وحكمته فاما أن يقرروا بأن لهم رباً قهراً أو تصرفاً فيهم بميتهم إذا شاء ويحييهم إذا شاء ويأمرهم وينهاهم ويثيب محسنهم ويعاقب مسيئهم وأما أن لا يقرروا رب هذا شأنه فإن أقروا آمنوا بالبعث والنشور والدين الأمري والجزائي وإن أنكروه كفروا به فقد زعموا إنهم غير مربوبين ولا محكوم عليه ولا لهم رب يتصرف فيهم كما أراد فهلا يقدر على دفع الموت عنهم إذا جاءهم وعلى رد الروح الى مستقرها إذا بلغت الحلقوم وهذا خطاب للحاضرين وهم عند المحتضرين يعاينون موته أي فهلا يردون الروح الى مكانها إن كان لهم قدرة وتصرف ولستم بمربوبين ولا مقهورين لقاهر قادر يرضى عليكم أحكامه وينفذ فيكم أوامره وهذه غاية التمجيز لهم إذا سئبن عجزهم عن رد نفس واحدة الى مكانها ولو اجتمع على ذلك الثقلان فيألفها من آية دالة على وحدانيته وربوبيته سبحانه وتصرفه في عباده ونفوذ أحكامه فيهم وجريانها عليهم والدين دينان دين شرعي وأمري ودين حسابي جزائي وكلاهما لله وحده فالدين كله أمر

أجزاء والمحبة أصل كل واحد من الدينين فإن ما شرعه وأمر به فإنه يحبه ويرضاه وما نهى عنه فإنه يكرهه ويبغضه لما فاته لما يحبه ويرضاه فهو يحب ضده فعاد دينه الأمرى كله الى محبته ورضاه ودين العبد لله به إنما يقبل إذا كان عن محبة ورضى كما قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم ذاق طعم الايمان من رضى بالله ربا وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولا وهذا الدين قائم بالمحبة وبسببها شرع ولا جاءها شرع وعليها أسس وكذلك دينه الجزائي فإنه يتضمن مجازات المحسن باحسانه والمسيء بأسائه وكل من الأمرين محبوب للرب فإنهما عدله وفضله وكلاهما من صفات كماله وهو سبحانه يحب صفاته وأسمائه ويحب من يحبها وكل واحد من الدينين فهو صراطه المستقيم الذي هو عليه فهو سبحانه على صراط مستقيم في أمره ونهيه وثوابه وعقابه كما قال تعالى إخباراً عن نبيه هود عليه السلام إنه قال لقومه إني أشهد الله وأشهدوا إني بريء مما تشركون من دونه فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون إني توكلت على الله ربي وربكم مامن دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم ولما علم نبي الله أن ربه على صراط مستقيم في خلقه وأمره وثوابه وعقابه وقضائه وقدره ومنعه وعطائه وعافيته وبلائه وتوفيقه وخذلانه لا يخرج في ذلك عن موجب كماله المقدس الذي تقتضيه أسماؤه وصفاته من العدل والحكمة والرحمة والاحسان والفضل ووضع الثواب في مواضعه والعقوبة في مواضعها اللائق بها ووضع التوفيق والخذلان والعطاء والمنع والهداية والاضلال كل ذلك في أما كنهه ومحاله اللائقة به بحيث يستحق على ذلك كمال الحمد والتناء أوجب له ذلك العلم والعرفان إذ نادى على رؤس الملأ من قومه بجنان ثابت وقلب غير خائف بل متجرد لله إني أشهد الله وأشهدوا إني بريء مما تشركون من دونه الآية ثم أخبر عن عموم قدرته وقهره بكل ما سواه وذل كل شيء لعظمته فقال مامن دابة إلا هو آخذ بناصيتها فكيف أخاف من ناصيته بيد غيره وهو في قبضته وتحت قهره وساططانه دونه وهل هذا الأمر الامن أهل الجهل وأقبح الظلم ثم أخبر أنه سبحانه على صراط مستقيم فكل ما يقضيه ويقدره فلا يخاف العبد جوراً ولا ظلمه فلا أخاف مادونه فإن ناصيته بيده ولا أخاف جوراً وظلمه فإنه على صراط مستقيم وهو سبحانه ماض في عبده حكمه عدل فيه قضاؤه له الملك وله الحمد لا يخرج في تصرفه في عبادته عن العدل والفضل إن أعطي وأكرم وهدي ووفق فيفضله ورحمته وإن منع وأهان وأضل وخذل وشقى فبعده وحكمته وهو على صراط مستقيم في هذا وهذا وفي الحديث الصحيح ما أصاب عبد قط هم ولا حزن فقال اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك ناصيتي بيدك ماض في حكمك عدل في قضاؤك أسئلك اللهم بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن العظيم

ربيع قلبي ونور صدرى وجلاء همى وحزنى وذهاب همى وغمى إلا أذهب الله همه وغمه وأبدله فرجا مكانه وهذا يتناول حكم الرب الكونى والامرى والقضاء الذى يكون باختيار العبد وبغير اختياره وكلا الحكمين ماض فى عبده وكلا القضائين عدل فيه فهذا الحديث مشتق من هذه الآية بينهما أقرب نسب وبالله التوفيق

❦ فصل ❦

ونختم الجواب بفصل متعلق بمشق الصور وما فيه من المفسد العاجلة والآجلة وإن كانت أضعاف ما يذكره ذاكر فانه يفسد القلب بالذات وإذا فسد فسدت الارادات والاقوال والاعمال وفسد ثمر التوحيد كما تقدم وسنقرره أيضاً إن شاء الله تعالى والله سبحانه وتعالى إنما حكى هذا المرض عن طائفتين من الناس وهم اللوطية والنساء فآخبر عن عشق امرأة العزيز ليوسف وماراودته وكادته به وأخبر عن الحال التي صار اليها يوسف بصبره وعفته وتقواه مع أن الذي ابتلى به أمر لا يصبر عليه إلا من صبره الله عليه فان موافقة الفعل بحسب قوة الداعى وزوال المانع وكان الداعى هاهنا في غاية القوة وذلك لوجوه أحدها ماركب الله سبحانه في طبع الرجل من ميله الى المرأة كما ميل العطشان الى الماء والجائع الى الطعام حتى إن كثيراً من الناس يصبر عن الطعام والشراب ولا يصبر عن النساء وهذا لا يذم اذا صادف حلال بل يحمى كما في كتاب الزهد للإمام أحمد من حديث يوسف بن عطية الصفار عن ثابت البناني عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم حبيب الى من دنياكم الطيب والنساء أصبر عن الطعام والشراب ولا أصبر عنهن الثاني أن يوسف عليه السلام كان شاباً وشهوة الشاب وحدته أقوى اثبات أنه كان عزباً لا زوجة له ولا سيرة تكسر شهوة الشهوة الرابع أنه كان في بلاد غريبة يتأني للغريب فيها من قضاء الوطر ملاً يتأني لغيره في وطنه وأهله ومعارفه الخامس أن المرأة كانت ذات منصب وجمال بحيث أن كل واحد من هذين الأمرين يدعو الى موافقتها السادس أنها غير آبية ولا تمتنع فان كثيراً من الناس يزيل رغبته في المرأة إباؤها وامتناعها للمجسد في نفسه من ذل الخضوع والسؤال لها وكثير من الناس يزيده الإباء والامتناع زيادة حب كما قال الشاعر

وزادني كفا في الحب إن منعت * أحب شيء الى الإنسان ما منعا

قطباع الناس مختلفة في ذلك فمنهم من يتضاعف حبه عند بذل المرأة ورغبتها وتضمحل عند إياها وإمتناعها وأخبرني بعض القضاة ان إرادته وشهوته تضمحل عند امتناع زوجته أو سريته وإياها بحيث لا يعاودها ومنهم من يتضاعف حبه وإرادته بلذع ويشد شوقه بكل

مأموع وتحصل له من اللذة بالظفر نظير ما يحصل من لذة بالنظر بالضد بعد إمتناعه ونفاره
واللذة بأدراك المسئلة بعد إستصعابها وشدة الحرص على إدراكها السابع أنها طلبت وأرادت
وبذلت الجهد فكفته مؤنة الطلب وذلل الرغبة اليها بل كانت هي الرغبة الذليلة وهو العزيز
المرغوب اليه الثامن إنه في دارها ونحت سلطانها وقهرها بحيث يخشي إن لم يطاوعها من
أذاهاله فاجتمع داعي الرغبة والرغبة التاسع إنه لا يخشي أن تمس عليه ولا أحد من جهتها
فإنها هي الطالبة والرغبة وقد غلقت الابواب وغيت الرقباء العاشر إنه كان مملوكا لها في الدار
بحيث يدخل ويخرج ويحضر معها ولا ينكر عليه وكان الامن سابقاً على الطلب وهو من
أقوى الدواعي كما قيل لامرأة شريفة من أشرف العرب ما حملك على الزنا قالت قرب
الوساد ومملوك السواد تعنى قرب وساد الرجل من وسادتي وطول السواد بيننا الحادي
عشر أنها استعانت عليه بأئمة الذكر والاحتياال فأثرته إياهن وشكت حالها اليهن لتستعين
بهن عليه فاستعان هو بالله عاين فقال وإلا تصرف عني كيدهن أصب اليهن وأكن من
الجاهلين الثاني عشر أنها تواعدته بالسجن والصغار وهذا أنواع إكراه إذ هو تهديد ممن
يغلب على الظن وقوع ما هدد به فيجتمع داعي الشهوة وداعي السلامة من ضيق السجن
والصغار الثالث عشر أن الزوج لم يظهر منه الغيرة والنخوة ما يفرق به بينهما ويبعد كلامهما
عن صاحبه بل كان غاية ما خاطبهما به أن قال ليوسف أعرض عن هذا والمرأة إستغفري
لذنبك إنك كنت من الخاطئين وشدة الغيرة للرجل من أقوى الموانع وهنا لم يظهر منه
غيرة ومع هذه الدواعي كلها فأثر مرضات الله وخوفه وحمله حبه لله على أن اختار السجن
على الزنا فتنال رب السجن أحب الى مما يدعونني إليه وعلم أنه لا يطيق صرف ذلك عن نفسه
وأن ربه تعالى إن لم يعصمه ويصرف عنه كيدهن صبا اليهن بطبعه وكان من الجاهلين
وهذا من كمال معرفته بربه وبنفسه وفي هذه القصة من العبر والفوائد والحكم ما يزيد على
الف فائدة لعالمنا إن وفقنا الله أن نقردها في مصنف مستقل

❦❦❦ فصل ❦❦❦

والطائفة الثانية الذين حكى الله عنهم المشق هم اللوطية كما قال تعالى وجاء أهل المدينة
يستبشرون قال إن هؤلاء ضيبي فلا تفضحون واتقوا الله ولا تحزروا قالوا ألم نهك عن
العالمين قال هؤلاء بناتي إن كنتم فاعلين لعمرك إنهم اني سكرتهم يعمهون فهذه عشقة فحكاه
سبحانه عن طائفتين عشق كل منهما ما حرم عليه من الصور ولم يبال بما في عشقه من الضرر
وهذا داء أعي الاطباء دواؤد وعز عليهم شفاؤد وهو والله الداء العضال والسم القاتل

الذي ماعلق بقلب الا وعز على الورى إستفاده من إسارة ولا اشتعلت نار في مهجة إلا وصعب على الخلق تخليصها من ناره وهو أقسام وهو تارة يكون كفر لمن يأخذ معشوق ندا يحبه كما يحب الله فكيف إذا كانت محبته أعظم من محبة الله في قلبه فهذا عشق لا يغفر لصاحبه فانه من أعظم الشرك والله لا يغفر أن يشرك به وإنما يغفر بالتوبة الماحية مادون ذلك وعلاصة هذا العشق الشركى الكفرى أن يقدم العاشق رضاء معشوقه على رضاء ربه إذا تعارض عنده حق معشوقه وحق ربه وطاعته قدم حق معشوقه على حق ربه وآثر رضاء على رضاء وبذل لمعشوقه أنفس ما يقدر عليه وبذل لربه إن بذل أردى ما عنده واستغرق وسعه في مرضات معشوقه وطاعته والتقرب اليه وجعل لربه إن أطاعه الفضلة التي تفضل عن معشوقه من ساعاته فتأمل حال أكثر عشاق الصور هل تجدها مطابقة لذلك ثم ضع حالهم في كفة وتوحيدهم في كفة وإيمانهم في كفة ثم زن وزنا يرضي الله ورسوله ويطابق العدل وربما صرح العاشق منهم بأن وصل معشوقه أحب اليه من توحيد ربه كما قال العاشق الخيث

يترشفن من في رشفت * هن أحلى فيه من التوحيد

وكما صرح الخيث الآخر بأن وصل معشوقه أشهى اليه من رحمة ربه فعياذا بك

الاهم من هذا الخذلان ومن هذا الحال قال الشاعر

وصلك أشهى الى فؤادي * من رحمة الخالق الجليل

ولا ريب ان هذا العشق من أعظم الشرك وكثير من العشاق يصرح بأنه لم يبق في قلبه موضع لغير معشوقه البتة بل قد ملك معشوقه عليه قلبه كله فصار عبداً مخلصاً من كل وجع لمعشوقه فقد رضي هذا من عبودية الخالق جل جلاله بعبودية المخلوق مثله فان العبودية أي كمال الحب والخضوع وهذا قد استغرق قوة حبه وخضوعه وذلك لمعشوقه فقد أعطاه حقيقة العبودية ولا نسبة بين مفسدة هذا الامر العظيم ومفسدة الفاحشة فان تلك ذنب كبير لفاعله حكمه أمثاله ومفسدة هذا العشق مفسدة الشرك وكان بعض الشيوخ من العارفين يقول لئن أبتلى بالفاحشة مع تلك الصورة أحب الى من أن أبتلى فيها بعشق يتعبد لها قلبي ويشغله عن الله

❦ فصل ❦

ودواء هذا الداء القتال أن يعرف إنما إبتلى به من الداء المضاد لتوحيد أولاً ثم يأتي من العبادات الظاهرة والباطنة بما يشغل قلبه عن دوام الفكر فيه ويكثر الاجاء والتضرع

الى الله سبحانه في صرف ذلك عنه وان يرجع بقلبه اليه وليس له دواء أنفع من الاخلاص لله وهو الدواء الذي ذكره الله في كتابه حيث قال كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين فاخبر سبحانه أنه صرف عنه السوء من العشق والفحشاء من الفعل باخلاصه فان القلب اذا خلاص وأخلص عمله لله لم يتمكن منه عشق الصور فانه انما يتمكن من قلب فارغ كما قال

أنا في هواها قبل أن أعرف الهوى * فصادف قلباً خالياً فتمكنا
وليعلم العاقل أن العقل والشرع قد يوجبان تحصيل المصالح وتكميلها وإعدام المفسدات وتقليلها فإذا عرض للعاقل أمر يرى فيه المصلحة والمفسدة وجب عليه أمران أمر علمي وأمر عملي فالعلمي طلب معرفة الراجح من طرفي المصلحة والمفسدة فإذا تبين له الراجح وجب عليه إتيان الاصح له ومن المعلوم أنه ليس في عشق الصور مصلحة دينية ولا دنيوية بل مفسدة دينية ودنيوية أضاعف أضاعف ما يقدر فيه من المصلحة وذلك من وجود أحدها الاشتغال بذكر المخلوق وحببه عن حب الرب تعالى وذكره فلا يجتمع في القلب هذا وهذا الا ويقهر أحدهما صاحبه ويكون السلطان والغلبة له الثاني عذاب قلبه بمعشوقه فان من أحب شيئاً غير الله عذب به ولا بد كما قيل

فما في الارض أشقى من محب * وإن وجد الهوى حلو المذاق
تراء باكياً في كل حين * مخافة فرقة أو لاشتياق
فبيكى ان ناؤا شوقاً اليهم * ويبكي ان دنوا خوف الفراق
فتسخن عينه عند الفراق * وتسخن عينه عند اتلاق

والعشق وان استلذ به صاحبه فهو من أعظم عذاب القلب الثالث ان العاشق قلبه أسير في قبضة معشوقه يسومه الهوان ولكن لسكرة العشق لا يشعر بمصابه فقابه كالعصفورة في كف الطفل يسومها حياض الردى والطفل يلهو ويلعب فيميش العاشق عيش الاسير المونق ويعيش الحلى عيش المسيب المطلق والعاشق كما قيل

طليق برأي العين وهو أسير * عليل على قطب الهلاك يدور
وميت يرى في صورة الحلي غادياً * وليس له حتى النشور نشور
أخو غمرات ضاع فيهن قلبه * فليس له حتى الممات حضور

الرابع انه يشتغل به عن مصالح دينه ودنياه فليس شيء أضيع لمصالح الدين والدنيا من عشق الصور اما مصالح الدين فانها منوطة بلم شعث القلب وإقباله على الله وعشق الصور أعظم شيئاً تشغيلاً وتشتيتاً له وأما مصالح الدنيا فهي تابعة في الحقيقة لمصالح الدين فمن انفرطت

عليه مصالح دينه وضاعت عليه فصالح دنياه أضيع وأضيع الخامس ان آفات الدنيا والآخرة أسرع الى عشاق الصور من النار في يابس الحطب وسبب ذلك إن القلب كلما قرب من العشق قوى اتصاله به بعد من الله فابعد القلوب من الله قلوب عشاق الصور واذا بعد القلب من الله طرقته الآفات من كل ناحية فان الشيطان يتولاه ومن تولاه عدوه واستولى عليه لم يأله وبالا ولم يدع أذاً يمكنه إيصاله إليه الا أوصله فما الظن من قلب تمكن منه عدوه وأحرص الخلق على عييه وفساده وبعده من واهيه ومن لاسمادة له ولا فلاح ولا سرور الا بقربه وولايته السادس انه اذا تمكن من القلب واستحكم وقوى سلطانه أفسد الذهن وأحدث الوسوس وربما التحق صاحبه بالمجانين الذين فسدت عقولهم فلا يتفكرون بها واخبار العشاق في ذلك موجودة في مواضعها بل بعضها يشاهد بالعيان وأشرف ما في الانسان عقله وبه يتميز عن سائر الحيوانات فاذا عدم عقله التحق بالبهائم بل ربما كان حال الحيوان أصالح من حاله وهل اذهب عقل مجنون ليلى وأضرابه الا العشق وربما زاد جنونه على جنون غيره كما قيل

قالوا جننت بمن تهوي فقلت لهم * العشق أعظم مما بالمجانين

العشق لا يستفيق الدهر صاحبه * وإنما يصرع المجنون بالحين

السابع انه ربما أفسد الحواس أو نقصها إما فساداً معنوياً أو صورياً أما الفساد المعنوي فهو تابع لفساد القلب فان القلب اذا فسد فسدت العين والاذن واللسان فيرى القبيح حسناً منه ومن معشوقه كما في المسند مرفوعاً حبك الشيء يعمي ويصم فهو يعمي عين القلب عن رؤية مساوي المحبوب وعيوبه فلا يرى الدين ذلك ويصم أذنه عن الاصغاء الى العذل فيه فلا تسمع الاذن ذلك والرغبات تستر العيوب فان الراغب في شيء لا يرى عيوبه حتي إذا زالت رغبته فيه أبصر عيوبه فشدت الرغبة غشاوة على العين تمنع من رؤية الشيء على ما هو عليه كما قيل

هويتك اذعيني عليها غشاوة * فلما انحلت قطعت نفسي ألومها

والداخل في الشيء لا يرى عيوبه والخارج منه الذي لم يدخل فيه لا يرى عيوبه ولا يرى عيوبه الا من دخل فيه ثم خرج منه وانهذا كان الصحابة الذين دخلوا في الاسلام بعد الكفر خير من الذين ولدوا في الاسلام قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه انما يتقضى عرى الاسلام عروة عروة اذا ولد في الاسلام من لا يعرف الجاهلية وأما فساد الحواس ظاهراً فانه يمرض البدن وينهكه وربما أدى الى تافه كما هو المعروف في اخبار من قتله العشق وقد رفع الى ابن عباس وهو بعرفة شاب قد انحلت حتى عاد جليداً على عظم فقال ما شأن

كما تقدم هو الافراط في المحبة بحيث يستولى المعشوق على القلب من العاشق حتى لا يخلو من تخيله وذكره والفكر فيه بحيث لا يغيب عن خاطره وذهنه فعند ذلك تشتغل النفس بالخواطر النفسانية فتعطل تلك القوي فيحدث بتعطيلها من الآفات على البدن والروح ما يضر دواؤه ويتعذر تغيير أفعاله وصفاته ومقاصده ويحتل جميع ذلك فتعجز البشر عن صلاحه كما قيل

الحب أول ما يكون للحاجة * يأتي بها وتسوقه الاقدار
حتى اذا خاض الفتى لحج الهوي * جاءت أمور لانطلاق كبار
والعشق مباديه سهلة حلوة وأوسطه هم وشغل قلب وسقم وآخره عطب وقتل ان لم يتداركه
عناية من الله كما قيل

وعش خالياً فالحب أوله عناء * وأوسطه سقم وآخره قتل

وقال آخر

تولع بالعشق حتى عشق * فلما استقل به لم يطق
رأى لجة ظنها موجة * فلما تمكن منها غرق
والذنب له فهو الجاني على نفسه وقد قعد تحت المثل السائر يداك أوكيا وفوك نفخ

فصل

والعاشق له ثلاث مقامات مقام ابتداء ومقام توسط ومقام انتهاء فاما مقام ابتداءه فالواجب عليه مدافعة بكل ما يقدر عليه اذا كان الوصول الى معشوقه متعذرا قدرا وشرعا فان عجز عن ذلك وأبى قلبه الا السفر الى محبوبه وهذا مقام التوسط والانتفاء فعليه كتمان ذلك وأن لا يفشي الى الخلق ولا يشمت بمحبوبه ولا يهتك به بين الناس فيجمع بين الظلم والشرك فان الظلم في هذا الباب من أعظم أنواع الظلم وربما كان أعظم ضرراً على المعشوق وأهله من ظلمه في ماله فانه يعرض المعشوق بهتكه في عشقه الى وقوع الناس فيه وانقسامهم الى مصدق ومكذب وأكثر الناس يصدق في هذا الباب بادنى شبهة واذا قيل فلان فعل بفلان أو بفلانة كذبه واحد وصدقه تسعمائة وتسعة وتسعين وخبر العاشق للمتهتك عن المتهتك عند الناس في هذا الباب يفيد القطع اليقين بل اذا أخبرهم المفعول به عن نفسه كذباً واقترأ على غيره جزموا بصدقه جزماً لا يحتمل النقيض بل لو جمعهم مكاناً واحداً اتفقا جزموا ان ذلك عن وعد واتفاق بينهما وجزمهم في هذا الباب على الظنون والتخيل والشبهة والالوهام والاخبار الكاذبة كجزمهم بالحسيات المشاهدة وبذلك وقع أهل الافك

في الطيبة المطيبة حبيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم المبرأة من فوق سبع سموات بحجيء صفوان بن المعطل بها وحده خلف العسكر حتى هلك من هلك ولولا أن تولى سبحانه برأتها والذب عنها وتكذيب قاذفها لكان أمراً آخر والمقصود أن في اظهار ما عشق من لا يحل له الاتصال به من ظلمه وأذاه ما هو عدوان عليه وعلى أهله وتعمد تصديق كثير من الناس ظنونهم فيه فإن استعان عليه ممن يستعمله اليه أما برغبة أو رعدة الظلم وانتشر وصار ذلك الوساطة بين الراشي والمرتشي وصار ذلك الوساطة وإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم قد لعن الراشئ وهو الوساطة ديوناً ظالماً بين الر أو المرتشي لا يصل الرشوة فما الظن بالديوث الوساطة بين العاشق والمعشوق في الوصلة الم فيتساعد العاشق على ظلم المعشوق وغيره ممن يتوقف حصول غرضهما على ظلمه في مال أو عرض فإن كثيراً ما يتوقف حصول المطلوب غرضه على قتل نفس يكون حياتها من غرضه وكم قيل ظل دمه بهذا السبب من زوج وسيد وقريب وكم خبثت امرأة على معلم أو عبد على سيدهما وقد لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم من فعل ذلك وتبرأ منه وهو من الكبار وإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم قد نهى أن يخطب الرجل على خطبة أخيه يستام على سومه فكيف بمن يسمي بالتفريق بينه وبين امرأته وأمه حتى يتصل بهما وهما في الصور ومساعدتهم من المدينة لا يرون ذلك ذنباً فإن في طلب العاشق وصل معشوقه ومث الأزواج والسيد ففي ذلك من أثم ظلم الغير ماله لا يقصر عن أثم الفاحشة إن لم يربو عليها يسقط حق الغير بالتوبة من الفاحشة فإن التوبة وإن أسقطت حق الله فحق العبد بالمطالبة به يوم القيامة فإن من ظلم الوالد بافساد ولده وفلذة كبده ومن هو أغرض عليه من وظلم الزوج بافساد حبيبته والجناية على فراشه أعظم من ظلمه باخذ ماله كله ولهذا ذلك أعظم مما يؤذيه باخذ ماله ولا يعدل ذلك عندك الأسفك دمه فياله من ظلم أعظم إ فعل الفاحشة فإن كان ذلك حقاً لما في سبيل الله وقف له الجاني الفاعل يوم القيامة له خذ من حسناته ما شئت كما أخبر بذلك النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال صلى الله عليه فإظنكم أي فانتظون يبقى له من حسناته فإن انضاف إلى ذلك أن يكون المظلوم ذا رحم محرم تعدد الظلم وصار ظلماً مؤكداً لقطيعة الرحم وأذي الجار ولا يدخل الجنة رحم ولا من لا يأمن بجاره بوائقه فإن استعان العاشق على وصل معشوقه بشياطين إما بسحر أو استخدام أو نحو ذلك ضم إلى الشرك والظلم كفر السحرفان لم يفعله هو به كان راضياً بالكفر غير كاره لحصول مقصوده وهذا ليس ببعيد من الكفر والملة أن التعاون في هذا الباب تعاون على الآثم والعدوان وأما ما يفتن بمحصول غرض ال

الظلم المنتشر المتعدي ضرره فامر لا يخفى فانه إذا حصل له مقصوده من المعشوق
 فوق أمور آخر يريد من العاشق إعانته عليها فلا يجد من إعانته بدا فيبقى كل منهما
 لا آخر على الظلم والعدوان فالمعشوق يعين العاشق على ظلم من يكون غرض المعشوق متوقفا
 عليه فكل منهما يعين الآخر على أغراضه التي يكون فيها ظلم الناس فيحصل العدوان
 للناس بسبب اشتراكهما في القبح لتعاونهما بذلك على الظلم وكما جرت به العادة بين
 والمعشوقين من إعانة العاشق لمعشوقه على ما فيه ظلم وعدوان وبني حتى ربما يسي
 منصب لا يليق به ولا يصلح لمثل في تحصيل مال من غير حله وفي استغلاله على غيره
 قصم معشوقه وغيره أو تشاكيا لم يكن الا في جانب المعشوق ظالما كان أو مظلوما هذا
 ينضم الى ذلك من ظلم العاشق للناس بالتحيل على أخذ أموالهم والتوصل بهما الى
 فة بسرقة أو غصب أو خيانة أو عيب كاذبة أو قطع طريق ونحو ذلك وربما أدى ذلك
 لن النفس التي حرم الله ليأخذ ماله ليتوصل به الى معشوقه فكل هذه الآفات
 فيها وأضما ف أضما فها تنشأ من عشق الصور وربما حمله على الكفر الصريح وقد
 جماعة ممن نشأ في الاسلام بسبب العشق كما جري لبعض المؤذنين حين أبصرو هو على
 سجد امرأة جميلة ففتن بها فزل ودخل عليها وسألها نفسها فقالت هي نصرانية فان
 في ديني تزوجت بك ففعل فرقى في ذلك اليوم على درجة عندهم فسقط منها فمات
 هذا عبد الحق في كتاب العاقبة له وإذا أراد النصاري أن ينصروا الاسير أروه
 جميلة وأمروها أن تطعمه في نفسها حتى إذا تمكن حبها من قلبه بذات له نفسها
 قل في دينها فهناك يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي
 وة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء وفي العشق من ظلم كل واحد من العاشق
 وق لصاحبه لمعاونته له على الفاحشة وظلمه لنفسه فكل منهما ظالم لنفسه وصاحبه
 بما متعد الى الغير كما تقدم وأعظم من ذلك ظامهما بالشرك فقد تضمن العشق أنواع
 لها والمعشوق إذا لم يتق الله فانه يعرض العاشق للتلف وذلك ظلم منه بان يطعمه
 به ويتزين له ويستميله بكل طريق حتى يستخرج منه ماله ونفعه ولا يمكنه من
 فلا يزول غرضه بقضاء وطره منه فهو يسومه سوء العذاب والعاشق ربما قتل
 قة ليشفي نفسه منه ولا سيما إذا جاد بالوصال لغيره وكم للعاشق من قتل من الجائنين
 زال من نعمة وأفقر من غنى وأسقط من مرتبة وشتت من شمل وكم أفسد من
 للرجل وولد فان المرأة إذا رأت بعلها عاشقا لغيرها أخذت هي معشوقا لنفسها

فيصير الرجل متردداً بين خراب بيته بالطلاق وبين انقياد فتن الناس من يؤثر هذا ومنهم من يؤثر هذا فعلى العاقل أن يحكم على نفسه سد عشق الصور لئلا يؤذيه ويؤذيه ذلك إلى الهلاك وإلى هذه المفسد وأكثرها أو بعضها فمن فعل ذلك فهو المفرط بنفسه وهو المغرر بها فإذا هلك فهو الذي أهلكها فلولا تكراره النظر إلى وجه معشوقه وطمعه في وصاله لم يتمكن عشقه من قلبه فإن أول أسباب العشق الاستحسان سواء تولد عن نظر أو سماع فإن لم يقارنه طمع في الوصال وقارنه الالاس من ذلك لم يحدث له العشق فإن إقترن به الطمع فصرفه عن فكره ولم يشغل قلبه به لم يحدث له ذلك فإن اطاع مع ذلك الفكر في محاسن المعشوق وقارنه خوف ما هو أكبر عنده من لذة وصاله إما خوف ديني نخوف النار وغضب الجبار واجتناب الاوزار وغلب هذا الخوف على ذلك الطمع والفكر لم يحدث له العشق فإن فاته هذا الخوف وقارنه خوف دنيوي نخوف إتلاف نفسه وماله وذهاب جاهه وسقوط مرتبته عند الناس وسقوطه من عين من يعز عليه وغلب هذا الخوف لداعي العشق دفعه وكذلك إذا خاف من فوات محبوب هو أحب إليه وأنفع له من ذلك المعشوق وقدم محبته على محبة المعشوق إن دفع عنه العشق فانتفاء ذلك كله أو غابت محبة المعشوق لذلك إنجذب إليه القاب بالكلية ومالت إليه النفس كل الميل فإن قيل قد ذكرت آفات العشق ومضاره ومفاسده فهل ذكرت منافعه وفوائده التي من جنتها رقة الطبع وترويح النفس وخفتها وزوال تلفها ورياضتها وحملها على مكارم الاخلاق من الشجاعة والكرم والمروءة ورقة الحاشية ولطف الجانب وقد قيل ليحيى بن معاذ الرازي إن ابنك قد عشق فلانة فقال الحمد لله الذي صيره إلى الطبع الآدمي وقال بعضهم العشق داء أفئدة الكرام وقال غيره العشق لا يصلح إلا لذي مروءة طاهرة وخليفة ظاهرة أولذي لسان فاضل وإحسان كامل أو لذي أدب بارع وحسب ناصع وقال آخر العشق حنان الحيان ويصفي ذهن الغبي ويسخي كف البخيل ويذل عزة الملوك ويسكن نوافر الاخلاق وهو أنيس من لأنيس له وجليس من لا جليس له وقال آخر العشق يزيل الاثقال ويلطف الروح ويصفي كدر القلب ويوجب الارتياح لأفعال الكرام كما قيل

سبيلك في الدنيا شقيق عليكم * إذا غاله من حادث الحب غائله

كريم بميت النرحى كأنه * إذا استفهموه عن حديثك جاهله

يودبان بمسي سقيما لعاهها * إذا سمعت عنه بشكوى ترأسله

ويتهزل المعروف في طلب العلي * لتحمد يوماً عند دليل شمائله

فالعشق يحمل على مكارم الاخلاق وقال بعض الحكماء العشق بروض النفس ويهذب

الاخلاق إظهاره طبعي وإظهاره تكلفي وقال الآخر من لم يتبهج نفسه بالصوت الشجي والوجه البهي فهو فاسد المزاج يحتاج الى علاج وأنشد في ذلك المعنى
إذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى * فمالك في طيب الحياة نصيب
وقال الآخر

إذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى * فقم واعتلف بنا فانت حمار
وقال آخر

إذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى * فكن حجيراً من يابس الصخر جليداً
وقال بحد العشاق أولى العفة والصيانة إذا عفوا تشرفوا وإذا عشقوا تظرفوا وقيل لبعض
العشاق ما كنت تصنع بمن تهوى لو ظفرت به فقال كنت أمتع طرفي بوجهه وأروح قلبي
بذكره وحديثه واستر منه ما لا أحب كشفه ولا أصير بقبح الفعل الى ما ينقض عهده ثم أنشد
أخلوبه فأعف عنه تكرماً * خوف الديانة لست من عشاقه
كلما في يد صائم يلتذ به * ظمأ فصر عن لذيق مذاقه
وقال أبو اسحق بن ابراهيم أرواح العشاق عطرة لطيفة وأبدانهم رقيقة خفيفة زهتهم
الموانسة وكلامهم يحبي موات القلوب ويزيد في العقول ولولا العشق والهوى لبطل نعيم
الدنيا وقال آخر العشاق للأرواح بمنزلة الغذاء للأبدان أن تركته ضرك وان أكثر
منه قلك وفي ذلك قيل

خليلي إن الحب فيه لذاعة * وفيه شقاء دائم وكروب
على ذلك ما عيش يطيب بغيره * ولا عيش إلا بالحبيب يطيب
ولا خير في الدنيا بغير صباية * ولا في نعيم ليس فيه حيب
وذكر الخرائطي عن أبي غسان قال مر أبو بكر الصديق رضي الله عنه بجارية وهي تقول
وهويته من قبل قطع تمنائي * متميلاً مثل القضيبي الناعم
فسألها أحره أنت أم مملوكة قالت بل مملوكة فقال تهوين فتلكأت فأقسم علمها فقالت
وأنا التي لعب الهوى بفؤادها * قتلت بحب محمد بن القاسم
فاشتراها من مولاها وبعت بها الى محمد بن القاسم بن جعفر بن أبي طالب فقال هؤلاء
والله فتن الرجال وكم والله قد مات بهن كريم وعطب بهن سليم وجاءت جارية عثمان بن
عفان رضي الله عنه تستدعي على رجل من الانصار قال لها عثمان ما قصتك قالت كلفت
بأمر المؤمنين بابن أخيه فما انفك أداعبه فقال له عثمان إما أن تنهها الى ابن أخيك أو أعطيك
ثمها من مالي فقال أشهدك بأمر المؤمنين إنها له ونحن لانكر فساد العشق الذي يتعلق به

فعل الفاحشة بالمعشوق وإنما الكلام في العشق الدفين من الرجل الظريف الذي يأتي له
إيمانه ودينه وعفته ومروءته أن يفسد ما بينه وبين الله وما بينه وبين معشوقه بالحرام وهذا
عشق الساف الكرام والأئمة الاعلام فهذا عبد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود أحد
الفقهاء السبعة عشق حتى اشتهر أمره ولم ينكر عليه وعد ظالماً من لأمه ومن شعره

كنمت الهوى حتى أضربك الکت * ولا منك أقوام ولومهم ظلم
فتم عليك الكاشحون وقباهم * عليك الهوى قد نمت ما ينفع الکت
فأصبحت كالنمري إذ مات حسرة * على أثر هنداوكن شفه سقم
تجنبت إتيان الحبيب تأثماً * ألا إن هجران الحبيب هو الانم
فذق هجرها تد كنت تزعم أنه * رشاد الألباء ربما كذب الزعم

وهذا عمر بن عبد العزيز وعشقه لجارية فاطمة بنت عبد الملك بن مروان وإمرأته
مشهورة وكانت جارية بارعة الجمال وكان معجبا بها وكان يطلبها من إمرأته ويحرص على
أن تهاله فتأبى ولم تزل الجارية في نفس عمر فلما استخلف أمرت فاطمة بالجارية فاصلحت
وكانت مثلاً في حسنها وجمالها ثم دخلت على عمر وقالت يا أمير المؤمنين انك كنت معجبا
بجاريتي فلانة فسلتها ان أهبطك فأبى عليك والآن فقد طابت نفسي لك بها فلما قالت
له ذلك استبان الفرح في وجهه وقال عجلي بها علي فلما دخلت بها عليه ازداد بها عجباً وقال
لها التي ثيابك ففعلت ثم قال لها على رسلك أخبريني لمن كنت ومن أين صرت لفاطمة
فقالت أغرم الحجاج عاملاً له بالكوفة مالا وكنت في ربيعة ذلك قالت فأخذني وبعثني
الى عبد الملك فوهبني لفاطمة قال وما فعل ذلك العامل قالت هلك قال وهل ترك ولدا
قالت نعم قال فما حالهم قالت سيئة قال شدي عليك ثيابك واذهي الى مكانك ثم كتب الى
عامله على العراق أن ابعث الى فلان بن فلان على البريد فلما قدم قال له ارفع الي جميع ما أغرمه
الحجاج لا يك فم يرفع اليه شيئاً الا دفعه اليه ثم أمر بالجارية فدفع اليه ثم قال له اياك
واياها فلعل أباك قد وقع بها فقال الغلام هي لك يا أمير المؤمنين قال لا حاجة لي بها قال فابتعها
منى قال لست اذا ممن نهى نفسه عن الهوى فلما عزم الفتى على الانصراف قالت أين وجدك
بي يا أمير المؤمنين قال على حاله ولقد زادني ولم تزل الجارية في نفس عمر حتى مات رحمه
الله وهذا أبو بكر بن محمد بن داود الظاهري العالم المشهور في فنون العلم من الفقه والحديث
وال تفسير والادب وله قول في الفقه وهو من أكابر العلماء وعشقه مشهور قال نفضويه
دخلت عليه في مرضه الذي مات فيه فقلت كيف نبذك قال حب من تعلم أورثني ماترى
فقلت وما يمنعك من الاستمتاع به مع القدرة عليه فقال الاستمتاع على وجهين أحدهما

انظر المباح والآخرة المحظورة فاما النظر المباح فهو الذي أوردني مآثرى وأما اللذة المحظورة بمعنى منها ما حدثني أبي حدثنا سويد بن سعيد حدثنا علي بن مسهر عن أبي يحيى القتات عن مجاهد عن ابن عباس رضى الله عنهما يرفعه من عشق وكنم وعف وصبر غفر الله له وأدخله الجنة ثم أنشد

انظر الى السحر يجري من لواظظه * وانظر الى دمع في طرفه الساج
وانظر الى شعرات فوق عارضه * كأنهن نمل دب في عاج
(ثم أنشد) *

ما لهم أنكروا سواداً بخديه * ولا ينكرون ورد الفصوص
ان يك عيب خده بدو لشعر * فميب العيون شعر الجفون
فقلت له نفيت القياس في الفقه وأثبتته في الشعر فقال غلبة الوجد وملكة الوجه النفس دعت اليه ثم مات من ليلته وبسبب معشوقه صنف كتاب الزهرة ومن كلامه فيه من يياس بمن يهواه ولم يمض من وقته سلام وذلك ان أول روعات الناس تأتي القلب وهو غير مستعد لها فأما الثانية تأتي القلب وقد وطأت لها الروعة والتقى هو وأبو العباس بن شريح في مجلس أبي الحسن على بن عيسى الوزير فتناظرا في مسألة من الایلاء قال له ابن شريح أنت بأن تقول من دامت لحظاته كثرت حسراته أحذق منك بالكلام على الفقه فقال الآن كان ذلك فاني أقول

أنزه في روض المحاسن مقلتي * وأمنع نفسي أن تنال محرما
وأحمل من ثقل الهوى مالهو أنه * يصب على الصخر الاصم تهديما
وينطق طرفي عن مترجم خاطري * فلولوا اختلاس وده لتكلاما
رأيت الهوى دعوى من الناس كلهم * فليست أرى وداً هيجها مسلما

فقال له أبو العباس بن شريح ثم تفخر علي ولوشئت لقلت

مطاعمه كالشهد في نعماته * قد بت أمنعه لذيد سناته
بصبايه وبجسسه وحديثه * وأنزه اللحظات عن وجناته
حتى اذا ما الصبح راح عموده * ولي بخاتم ربه وبراته

فقال أبو بكر بحفظ عليه الوزير ما أقربه حتى يقيم شاهدين على انه ولي بخاتم ربه وبراته فقال ابن شريح يلزمي في هذا ما يلزمك في قولك

أنزه في روض المحاسن مقلتي * وأمنع نفسي أن تنال محرما

فضحك الوزير فقال لقد جمعتا لطفاً وظرفاً ذكر ذلك أبو بكر الخطيب في تاريخه وجاءته يوماً قتيبا مضمونها

يا ابن داود يا فقيه العراق * إفتا في فواتر الاحداق

هل عليها بما أنت من جناح * أم حلال لها دم العشاق

فكتب تحت البيتين بخطه

عندي جواب سائل العشاق * فاسمعه من قرح الحشا مشتاق

لما سئلت عن الهوى هيجتني * وأرقت دمعاً لم يكن مهراق

ان كان معشوقاً يهذب عاشقاً * كان الممذب أنعم العشاق

قال صاحب كتاب منازل الاحباب شهاب الدين محمود بن سليمان بن مهدي صاحب كتاب

الانشاء وقلت في جواب البيتين على قافيتهما مجيباً للسائل

قل لمن جاء سائلاً عن لحاظ * هن يلعبن في دم العشاق

ما على السيف في العدا من جناح * ان ثني الحد عن دم مهراق

وسيوف اللحاظ أولى بأن * تصفح عما جنت على العشاق

انما كل من قتل شهيداً * دوا هذا يفني فنا وهو باق

ونظير ذلك فتوى وردت على الشيخ أبي الخطاب محفوظ بن أحمد الكلوذاني شيخ الحنابلة

في وقته رحمه الله

قل للإمام أبي الخطاب مسألة * جاءت اليك وما أخال سواك لها

ماذا على رجل رام الصلاة فذ * لاحت مخاطرة ذات الجمال لها

فأجابه تحت سؤاله

قل للأديب الذي وافى بمسألة * سرت فؤادي لما ان أصبحت لها

إن الذي فتنه عن عبادة ربه * فريدة ذات حسن فائتي ولها

إن تاب ثم قضا عنه عبادة ربه * فرحمة الله تغشى من عصي ولها

وقال عبد الله بن معمر القيسي حججبت سنة ثم دخلت مسجد المدينة لزيارة قبر النبي صلى الله

عليه وسلم فينما أنا جالس ذات ليلة بين القبر والمنبر اذ سمعت أئينا فأصغيت اليه فاذا هو يقول

أشجاك نوح حمام السدر * فأهجن منك بلابل الصدر

أم عز نومك ذكر غايبة * أهدت اليك وساوس الفكر

باليلة طلت على دنف * يشكو السهاد وقلة الصبر

أسلمت من تهوى لخرجوى * متوقد كتوقد الجمر

قال بدر يشهد يا نبي كلف * مغرم بحب شبهة البدر

ما كنت أحسبني أهم مجها * حتى بليت وكنت لأدري
ثم انقطع الصوت فلم أدر من أين جاء وإذا به قد عاد البكاء والالين ثم أنشد يقول
أشجاك من ربا خيال زائر * والليل مسود الذوائب عاكر
واعتاد مهجتك الهوى برشيشة * وأحتاج مقلتك الخيال الزائر
ناديت ربا والظلام كأنه * يم تلاطم فيه موج زاهر
والبدر يسري في السماء كأنه * ملك ترحل والتجوم عساكر
وترى به الجوزاء رقص في الدجى * رقص الحبيب علاه سكر طاهر
يا ليل طلت على محب ماله * إلا الصباح مساعد وموازر
فاجابني متخف أنفك واعلمن * إن الهوى لهو الهوان الحاضر

قال وكنت ذهبت عند ابتدائه بالآيات فلم يتنبه الا وأنا عنده فرأيت شابا مقبلا شبابه قد
خرق الدمع في خده خرقين فسلمت عليه فقال لإجلس من أنت فقلت عبد الله بن معمر
القيسي قال ألك حاجة قلت نعم كنت جالسا في الروضة فما راعني الا صوتك فبنفسي افديك
فما الذي تجده فقال أنا عتبة بن الحباب بن المنذر بن الجوح الانصاري غدوت يوما الى مسجد
الاحزاب فصلت فيه ثم اعتزلت غير بعيد فاذا بنسوة قد أقبلن يتهادين مثل القطا وإذا في
وسطهن جارية بديعة الجمال كاملة الملاحظة فوقفت علي وقالت يا عتبة ما تقول في وصل من
يطلب وصلك ثم تركتني وذهبت فلم أسمع لها خبراً ولم أقف لها على أثر فأتانا حيران أنتقل
من مكان الى مكان ثم انصرع وأكب مغشيا عليه ثم أفاق كأنما أصبغت وجهه بورس
ثم أنشد يقول

أراكم بقاقي من بلاد بسيدة * فياهل تروني بالقمود على بعدي
فؤادي وطرفي ناسفان عليكم * وعندكم روحي وذكركم عندي
ولست ألد العيش حتى أراكم * ولو كنت في الفردوس جنة الخلد

فقلت يا ابن أخي تب الى ربك واستغفره من ذنبك فبين يديك هول المطلاع فقال ما أنا
بسائل حتى يذوب العارضان لم أزل معه حتى طلع الصباح فقلت قم بنا الى مسجد الاحزاب
فلعل الله أن يكشف كربتك فقال أرجوا ذلك ان شاء الله ببركة طاعتك فذهبنا حتى أتينا
مسجد الاحزاب فسمعته يقول

يا لارجل ليوم الاربعاء أما * ينفك يحدث لي بعد النهار طربا
ما إن يزال غزال منه يلقني * يأتي الى مسجد الاحزاب منتقبا
يخبر الناس إن الاجر همته * وما أنا طالب للاجر محتسبا

لو كان ينبغي ثوابا ما أتى صلفا * مضمخا بفيت المسك محتضبا
ثم جلسنا حتى صلبنا الظهر فاذا بالنسوة قد أقبلن وليست الجارية فيهن فوقفن عليه وقلن له
يا عتبة ما ظنك بطالبة وصلك وكاشفة بالك قال وما بالها قان أخذها أبوها وارتحل بها الى
أرض السماوة فسلتن عن الجارية فقالن هي ريا بنت الغطريف السلمي فرفع عتبة اليهن
رأسه وقال

خيلي ريا قد أجسد بكورها * وسارت الى أرض السماوة غيرها
خيلي إني قد غشيت من البكا * فهل عند غيري مقلة أستعيرها
فقلت له إني قد وردت بمال جزيل أريد به أهل السر ووالله لا بدلته إمامك حتى تبلغ
رضاك وفوق الرضاء فقم بنا الى مسجد الانصار فقمنا وسرنا حتى أشرفنا على ملائمتهم
فسلمت فأحسنوا الرد فقلت أيها الملاء ما تقولون في عتبة وأبيه قالوا من سادات العرب قلت
فانه قد رمى بدهاية من الهوي وما أريد منكم الا المساعدة الى السماوة فقالوا سمعنا وطاعة
فركبنا وركب القوم معنا حتى أشرفنا على منازل بني سليم فأعلم الغطريف بنا فخرج مبادرا
فاستقبلنا وقال حينئذ بالاكرام فقلنا وأنت فحيك الله إننا لك أضياف فقال نزلتم أكرم منزل
فنادي يامعشر العبيد أنزلوا القوم ففرشت الانطاع والتمازق وذبحت الذبايح فقلنا لسنا
بذائق طعامك حتى تقضي حاجتنا فقال وما حاجتكم قلنا نخطب عقيلتك الكريمة لعبة بن
الحباب بن المنذر فقال إن التي تخطبونها أمرها الى نفسها وأنا أدخل أخبرها ثم دخل مفضبا
على إبنته فقالت يا أبت مالي أرى الغضب في وجهك فقال قد ورد الانصار يخطبونك مني
فقلت سادات كرام إستغفر لهم الرسول صلى الله عليه وسلم فلمن الخطبة منهم قال لعبة
قالت والله لقد سمعت عن عتبة هذا إنه بني بما وعد ويدرك اذا قصد فقال أقسمت
لأزوجتك إياه أبدا ولقد نمت الى بعض حديثك معه فقالت ما كان ذلك ولكن اذا
أقسمت فان الانصار لا يردون ردا قبيحا فأحسن لهم الرد فقال بأي شيء قالت اغلظ
عليهم المهر فانهم قوم يرجعون ولا يجيبون فقال ما أحسن ما قلت فخرج مبادرا عليهم فقال
ان فئات الحي قد أجابت ولكني أريد لها مهر مثلها فمن القائم به فقال عبد الله بن ممر
أنا فقل ماشئت فقال ألف مثقال من الذهب ومائة ثوب من الابراد وخمسة أكرسة من
عنبر فقال عبد الله لك ذلك كله فهل أجبت قال نعم قال عبد الله فأنفذت نفرا من الانصار
الى المدينة فأتوا بجميع ما طلب ثم صنعت الوليمة فاقمنا على ذلك أياما ثم قال خذوا فئاتكم
وانصرفوا مصاحبين ثم حمأنا في هودج وجهزها بثلاثين راحلة من المتاع والتحف فودعناه
وسرنا حتى اذا بقي بيننا وبين المدينة مرحلة واحدة خرجت علينا خيل تريد الغارة

أحبها من سليم فحمل عليها عتبة فقتل منهم رجلاً وجندل منهم آخرين ثم رجع وبه طعنة تفور دماً فسنط إلى الأرض وأنا نأجدة فطردت الحيل عنا وقد قضى عتبة نحبه فقلنا واعتبناه فسمعنا الجارية فألقت نفسها عن البعير وجعلت تصيح بحرقة وأنشدت تصبرت لا إني صبرت وإنما * أعلل نفسي أنها بك لاحقه فلو أنصفت روعي لكانت إلى الردي * أملك من دون البرية سابقه فما أحد بمدي وبعدك منصف * خليل ولا نفس لنفس موافقه

ثم شهت وقتضت نحبها فاحتفرا لهما قبرا واحدا ودفناها فيه ثم رجعت إلى المدينة فأقت سبع سنين ثم ذهبت إلى الحجاز ووردت المدينة فقلت والله لا آتين قبر عتبة أزوره فأثيت القبر فاذا عليه شجرة عليها عصائب حمر وصفرة فقلت لأرباب المنزل ما يقال لهذه الشجرة قالوا شجرة العروسين ولولم يكن في العشق من الرخصة المخالفة للتشديد إلا الحديث الوارد بالحسن من الأسانيد وهو حديث سويد بن سعيد بن علي بن مسهر عن أبي يحيى القتات عن مجاهد عن ابن عباس يرفعه من عشق وعفو وكنتم فئات فهو شهيد ورواه سويد أيضاً عن ابن مسهر عن هشام بن هروة عن أبيه عن عائشة مرفوعاً ورواه الخطيب عن الأزهري في الام عن المعافا بن زكريا عن قطبة عن ابن الفضل عن أحمد بن مسروق عنه ورواه الزبير بن بكار عن عبدالعزيز الماجشون عن عبد العزيز ابن أبي حاتم عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس وهذا سيد الاولين والآخرين ورسول رب العالمين صلى الله عليه وسلم نظر إلى زينب بنت جحش رضي الله عنها فقال سبحان مقلب القلوب وكانت تحت زيد بن حارثة مولاه فلما هم بطلاقها قال له اتق الله وامسك عليك زوجك فلما طلقها زوجها الله سبحانه من رسوله صلى الله عليه وسلم من فوق سبع سموات فكان هو وولياها وولى تزويجها من رسول الله صلى الله عليه وسلم وعقد عقد نكاحها فوق عرشه وأنزل على رسوله صلى الله عليه وسلم وإذا تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفى في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه وهذا داود نبى الله عليه السلام لما كان تحته تسعة وتسعين امرأة ثم أحب تلك المرأة وتزوجها وأكمل بها المائة قال الزهري أول حب كان في الإسلام حب النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة رضي الله عنها وكان مسروق يسميها حبيبة رسول رب العالمين صلى الله عليه وسلم وقال أبو أنقيس مولى عبد الله ابن عمرو وأرسلني عبد الله بن عمرو إلى أم سلمة أسألهما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل أهلها وهو صائم فقالت لا فقال إن عائشة رضي الله عنها قالت كان النبي صلى الله عليه وسلم يقبلها وهو صائم فقالت أم سلمة رضي الله

عنها إن النبي صل الله عليه وسلم كان إذا رأى عائشة لم يملك نفسه عنها وذكر سعيد بن إبراهيم عن عامر بن سعيد عن أبيه قال كان إبراهيم خليل الله يزوره جبرائيل في كل يوم من الشام على البراق من شغفه به وقلة صبره عنه وذكر الخرائطي أن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما اشترى جارية رومية فكان يحبها حباً شديداً فوَقعت ذات يوم عن بغلة له فجعل يمسح التراب عن وجهها ويفديها ويقبها وكانت تكثر من أن تقول له يا بطرون أنت قالون تعني يا مولاي أنت جيد ثم إنها هربت منه فوجد عليها وجداً شديداً فقال

قد كنت أحسبني قالون فانصرفت * فاليوم أعلم إنني غير قالون

قال أبو محمد بن حزم وقد أحب من الخلفاء الراشدين والأئمة المهتدين كثير وقال رجل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه يا أمير المؤمنين رأيت امرأة فعمسها فقال ذلك ما يملك فالجواب وبالله التوفيق أن الكلام في هذا الباب لا بد فيه من التمييز بين الواقع والجائز والنافع والضار ولا يستعجل عليه بالذم والانكار ولا بالمدح والقبول من حيث الجملة وإنما يتبين حكمه وينكشف أمره بذكر متعلقاته والآل فالعشق من حيث هو لا يحمى ولا يذم ونحن نذكر النافع من الحب والضار والجائز والحرام اعلم أن أنفع المحبة على الإطلاق وأوجبها وأعلاها وأجلها محبة من جيل القلوب على محبته وفطرت الخليفة على تأله وبها قامت الأرض والسموات وعليها فطر الخلوقات وهي سر شهادة أن لا إله إلا الله فإن الآله هو الذي تأله القلوب بالمحبة والجلال والتعظيم والذل والخضوع وتعبده والعبادة لا تصح إلا له وحده والعبادة هي كمال الحب مع كمال الخضوع والذل والشرك في هذه العبودية من أظلم الظلم الذي لا يغفره الله والله سبحانه يحب لذاته من سائر الوجوه وما سواه فانما يحب تبعا لمحبه وقد دل على وجوب محبته سبحانه جميع كنهه المنزلة ودعوة جميع رسله صلى الله عليهم وسلم أجمعين وفطرته التي فطر عليها عباده وما ركب فيها من العقول وما أسبغ عليهم من النعم فإن القلوب مفعورة مجبولة على محبة من أنعم عليها وأحسن اليها فكيف بمن كل الاحسان منه وما بخلقه جميعهم من نعمته وخدمه لا شريك له كما قال تعالى وما بكم من نعمة فمن الله الآية وما تعرف به إلى عباده من أسمائه الحسنى وصفاته العاليا وما دلت عليه آثار مصنوعاته من كماله ونهاية جلاله وعظمته والمحبة لها داعين الجلال والجمال والرب تعالى له الكمال المطلق من ذلك فانه جميل يحب الجمال بل الجمال كله والاحمال كله منه فلا يستحق أن يحب لذاته من كل وجه سواه قال الله تعالى قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله وقال تعالى يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه الآية والولاية أصلها الحب فلا موالات إلا بحب

إن العداوة أصلها البغض والله ولي الذين آمنوا وهم أولياؤه فهم يوالونه بمحبتهم له هو يواليهم بمحبته لهم قاله يوالى عبده المؤمن بحسب محبته له ولهذا أنكر سبحانه على من اتخذ من دونه أولياء بخلاف من والى أولياءه فإنه لم يتخذهم من دونه بل موالاته من تمام موالاته وقد أنكر على من سوي بينه وبين غيره في المحبة وأخبر أن من لم ذلك فقد اتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله وأخبر من سوي بينه وبين الانداد في المحبة أنهم يقولون في النار لم يودهم تالله إن كنا في ضلال بين أذنسويكم رب العالمين وبهذا التوحيد في المحبة أرسل الله سبحانه جميع رسله صلى الله عليهم وسلم وأنزل جميع كتبه وأطبقت عليه دعوة جميع الرسل عليهم الصلاة والسلام من أولهم إلى آخرهم ولأجله خلقت السموات والأرض والجنة والنار فجعل الجنة لأهل النار والمشركون به وفيه وقد أقسم النبي صلى الله عليه وسلم أنه لا يؤمن عبد حتى يكون هو أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين فكيف بمحبة الرب جل جلاله قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه لا حتى أكون أحب إليك من نفسك أي لا تؤمن حتى تصل محبتك لي إلى هذه الغاية فإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم أولى بنات من أنفسنا لمحبة ولوازمها أفليس الرب جل جلاله وتقدست أسماؤه وتبارك اسمه وتعالى جده ولا إله غيره أولى بمحبته وعبادته من أنفسهم وكل مأمنه إلى عبده المؤمن يدعوه إلى محبة ما يحب بهد ويكرهه فمطأؤه ومنعه ومما فاته وابتلاؤه وقبضه وبسطه وعدله وفضله وأمانته إحيائه ولطفه وبره ورحمته وإحسانه وستره وعفوه وحامه وصبره على عبده وإجابته عنه وكشف كربته وإغاثة لطفته وتفريج كربته من غير حاجة منه إليه بل مع غناه التام به من جميع الوجوه كل ذلك داع للقلوب إلى تأميه ومحبتة بل تمكنه عبده من معصيته إغاثة عليه وستره حتى يقضي وطره منها وكلائته وحراسته له وهو يقضي وطره من بصيته وهو يعينه ويستعين عليها بنعمه من أقوى الدواعي إلى محبته فلو أن مخلوقاً فعل خلق أدنى شيء من ذلك لم يملك قلبه عن محبته فكيف لا يحب العبد بكل قلبه وجوارحه من يحسن إليه على الدوام بعدد الأنفاس مع إساءته نخيره اليك نازل وشرك إليه صاعد يب إليه بنعمه وهو غني عنه والعبد يتبغض إليه بالمعاصي وهو فقير إليه فلا إحسانه وبره إغامه عليه يصد عنه معصيته ولا معصية العبد ولومه يقطع إحسان ربه عنه فألام اللوم تخلف نلوب عن محبة من هذا شأنه وتعلقها بمحبة سواه وأيضا فكل من تحبه من الخلق أو بك إنما يريدك لنفسه وغرضه منك والرب سبحانه وتعالى يريدك لك كفاي الأثر الألمي عبدي كل يريدك لنفسه وأنا أريدك لك فكيف لا يستحي العبد أن يكون ربه له بهذا المنزلة

وهو معرض عنه مشغول بحب غيره وقد استغرق قلبه محبة ما سواه وايقضا فكل من تعامله من الخلق ان لم يرج عليك لم يعاملك ولا بدله من نوع من أنواع الرج والرب تعالى إنما يعاملك لترج أنت عليه أعظم الرج وأعلاه فالدرهم بعشرة أمثاله الى سبعة مائة ضعف الى أضعاف كثيرة والسيئة بواحدة وهي أسرع شي محو وأيقضا فهو سبحانه خلقك لنفسه وكل شي خلق لك في الدنيا والآخرة فمن أولى منه باستفراغ الوسع في محبته وبذل الجهد في مرضاته وأيضا فمطلبك بل مطالب الخلق كلهم جميعا لديه وهو أجود الأجودين وأكرم الأكرمين ويعطي عبده قبل أن يسأله فوق ما يؤمله يشكر على القليل من العمل ونحوه ويفقر الكثير من الزلل ويمحوه ويسأله من في السموات والارض كل يوم هو في شأن لا يشغله سمع عن سمع ولا يغطاه كثرة المسائل ولا يترجم بالخاح الملحين بل يحب الملحين في الدعاء ويجب أن يسئل ويفض بل يسئل فيستحي من عبده حيث لا يستحي العبد منه ويستتره حيث لا يستتر نفسه ويرحمه حيث لا يرحم نفسه دعاه بنعمته وإحسانه وناداه الى كرامته ورضوانه فتأني فأرسل رساله صلى الله عليه وسلم في طابه وبعث معهم اليه عهده ثم نزل سبحانه بنفسه وقال من يسألني فأعطيه من يستغفرني فأغفر له أَدْعُوكَ لِلْوَصْلِ فَتَأْتِي أَبْعَثْ رَسَالِي فِي الطَّلَبِ أَنْزِلْ إِلَيْكَ بِنَفْسِي الْفَاكْ فِي النَّوْمِ وَكَيْفَ لَا تَحِبُّ الْقُلُوبُ مِنْ لَا يَأْتِي بِالْحَسَنَاتِ إِلَّا هُوَ وَلَا يَذْهَبُ بِالسَّيِّئَاتِ إِلَّا هُوَ وَلَا يَحْيِي الدَّعْوَانَ وَيَقِيلُ الْعَثَرَاتِ وَيَغْفِرُ الْخَطِيئَاتِ وَيَسْتَرْ الْعُورَاتِ وَيَكْشِفُ الْكَرْبَاتِ وَيَغِيثُ اللَّهْفَاتِ وَيُنِيلُ الطَّلَبَاتِ سِوَاهُ فَهُوَ أَحَقُّ مِنْ ذِكْرٍ وَأَحَقُّ مِنْ شُكْرِ وَأَحَقُّ مِنْ حَمْدٍ وَأَحَقُّ مِنْ عِبَادَةٍ وَأَنْصَرُ مِنْ ابْتِغَاءِ أَرْأَفٍ مِنْ مَلِكٍ وَأَجُودُ مِنْ سَثَلٍ وَأَوْسَعُ مَنْ أَعْطَى وَأَرْحَمُ مَنْ اسْتَرْحَمَ وَأَكْرَمُ مَنْ قَصَدَ وَأَعَزُّ مَنْ التَّجَّى إِلَيْهِ وَأَكْفَى مَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ أَرْحَمُ بِعَبْدِهِ مِنَ الْوَالِدَةِ بِوَلَدِهَا وَأَشَدُّ فَرَحًا بِتَرْبَةِ عِبَادِهِ النَّاسِ مِنْ الْفَاقِدِ لِرَاحِلَتِهِ الَّتِي عَلَيْهِ اطْعَامُهُ وَشَرَايُهُ فِي الْأَرْضِ الْمَهْلَكَةِ إِذَا يَأْسُ مِنَ الْحَيَاةِ فَوْجِدَهَا وَهُوَ الْمَلِكُ فَلَا شَرِيكَ لَهُ وَالْفَرْدُ فَلَا نَدْلَهُ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَنْ يَطَاعَ إِلَّا بِإِذْنِهِ وَلَنْ يَعْصِيَ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَطَاعُ فَيَشْكُرُ وَبِتَوْفِيقِهِ وَنِعْمَتِهِ أَطِيعَ وَيَعْصِي فَيَغْفِرُ وَيَعْفُ وَحَقُّهُ أَضْيَعُ فَهُوَ أَقْرَبُ شَهِيدٍ وَأَدْنَى حَفِيزٍ وَأَوْفَى وَفِي الْعَهْدِ وَأَعْدَلُ قَائِمٍ بِالْقِسْطِ حَالُ دُونَ النَّفُوسِ وَأَخْذُ بِالْتَّوَصُّيِ وَكُتُبُ الْآثَارِ وَنَسْخُ الْآخَالِ فَالْقُلُوبُ لَهُ مَفْضِيَّةٌ وَالسَّرُّ عَنْدهُ عَلَانِيَةٌ وَالْعَلَانِيَةُ وَالْغُيُوبُ لديه مَكْشُوفٌ وَكُلُّ أَحَدٍ إِلَيْهِ مَاهُوفٌ وَغَتُّ الْوُجُوهِ لِنُورِ وَجْهِهِ وَمَعْجَزَةُ الْقُلُوبِ عَنْ إدْرَاكِ كُنْهِهِ وَدَلَّتِ الْفُطْرَةُ وَالْأَدْلَةُ كُلُّهَا عَلَى إِمْتِنَاعِ مِثْلِهِ وَشَبْهِهِ أَشْرَقَتْ لُتُورُ وَجْهِهِ الظُّلُمَاتُ اسْتَقَارَتْ لَهُ الْأَرْضُ وَالسَّمَوَاتُ وَصَلَحَتْ عَلَيْهِ جَمِيعُ الْخَلْقِ لَا يَنَامُ وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ يَحْفَظُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ يَرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ

مل النهار قبل عمل الليل حجابها التور لو كشفه لاحرق سُبُحات وجهه ما انتهى اليه بصره من
لقة ما اعتاض باذل حبه لسواه من * عوض ولو ملك الوجود بأسره

فصل في

وهنا أمر عظيم يجب على اللبيب الاعتناء به وهو أن كمال اللذة والسرور والفرح
نعم القلب وإبتهاج الروح تابع لأمرين أحدهما كمال المحبوب في نفسه وجماله وإنه أولى
نار المحبة من كل ماسواه والامر الثاني كمال محبته واستفراغ الوسع في حبه وإبتثار قربه
لوصول اليه على كل شيء وكل عاقل يعلم أن اللذة بمحصول المحبوب بحسب قوته ومحبته
كل ما كانت المحبة أقوى كانت لذة الحب أكمل فليدرك من اشتد ظمؤه بأدراك الماء الزلال
من اشتد جوعه بأكل الطعام الشهى ونظائر ذلك على حسب شوقه وشدة إرادته ومحبته
إذا عرفت هذا فاللذة والسرور والفرح أمر مطلوب في نفسه بل هو مقصود كل حي
عاقل وإذا كانت اللذة مطلوبة في نفسها فهي تدم إذا أعقبت ألم أعظم منها أو منعت لذة
خيراً منها وأجل فكيف إذا أعقبت أعظم الحسرات وفوت أعظم اللذات والمسرات وتحمده
فإن أعانت على لذة عظيمة دائمة مستقرة لا تنقص فيها ولا تنكد بوجه ما وهي لذة الآخرة
ونعيمها وطيب العيش فيها قال تعالى بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى وقال
لسحر ذفرعون لما آمنوا أقض ما أنت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا الآية والله سبحانه
تعالى خلق الخلق ليتلهم ويذل من أطاعه هذه اللذة الدائمة في دار الخلد وأما الدنيا
تقطع ولذاتها لا تصفو أبداً ولا تدوم بخلاف الآخرة فإن لذاتها دائمة ونعيمها خالص من
كل كدر وألم وفيها ما تشبهه النفس وتلد الاعين مع الخلود أبداً فلا تدم نفس مأخوذ لهم
من قرة أعين بل فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وهذا المعنى
الذي قصده الناصح لقومه بقرله يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد يا قوم إنما هذه الحياة
الدنيا متاع وإن الآخرة هي دار القرار فاخبرهم أن الدنيا متاع ليستمتع بها إلى غيرها
وإن الآخرة هي المستقر وإذا عرفت أن لذات الدنيا متاع وسبيل إلى لذات الآخرة
ولذلك خلقت الدنيا لذاتها فكل لذة أعانت على لذة الآخرة وأوصلت إليها لم يدم تناولها
بل يحمد لحسب إيصالها إلى لذة الآخرة إذا عرف فاعظم نعيم الآخرة ولذاتها النظر إلى
وجه الله جل جلاله وسماع كلامه والقرب منه كما ثبت في الصحيح في حديث الرؤية فوالله
ما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه وفي حديث آخر إنه إذا تجلى لهم ورأوه نسوا
إمامهم فيه من النعيم وفي النسائي ومسنده الإمام أحمد من حديث عمار بن ياسر رضى الله

نه عن النبي صلى الله عليه وسلم في دعائه واسئلك اللهم لذة النظر الى وجهك الكريم والشوق الى لقائك وفي كتاب السنة لعبد الله بن الامام أحمد مرفوعا كأن الناس يوم القيامة لم يسمعوا القرآن من الرحمن فاذا سمعوه من الرحمن فكأنهم لم يسمعوا قبل ذلك فاذا عرف هذا فاعظم الاسباب التي تحصل هذه اللذة هو أعظم لذات الدنيا على الاطلاق وهي لذة معرفته سبحانه ولذة محبته فان ذلك هو لذة الدنيا ونعيمها العالي ونسبة لذاتها الفانية اليه كنفلة في بحر فان الروح والقلب والبدن انما خلق لذلك فاطيب مافي الدنيا معرفته سبحانه ومحبته والذما في الجنة رؤيته ومشاهدته فمحبه ومعرفته قررة العيون ولذة الارواح وبهجة القلوب ونعيم الدنيا وسرورها من اللذة القاطمة عن ذلك تتقلب الآلام وعذابا ويبقى صاحبها في المعيشة الضنك فليس الحياة الطيبة الا بالله وكان بعض المحبين تمر به أوقات فيقول إن كان أهل الجنة في نعيم مثل هذا إنهم لفي عيش طيب وكان غيره يقول لو يعلم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجلدونا عليه بالسيوف وإذا كان صاحب المحبة الباطلة التي هي عذاب على قلب المحب يقول في حاله

وما الناس إلا العاشقون ذوو الهوي * فلا خير فيمن لا يحب ويعشق

ويقول الآخر

أف للدنيا متى ما لم يكن * صاحب الدنيا محب أو حبيب

ويقول الآخر

ولا خير في الدنيا ولا في نعيمها * وأنت وحيد مفرد غير عاشق

ويقول الآخر

أسكن الى سكن تله بحبه * ونهب الزمان وأنت منفرد

ويقول الآخر

تشكى المحبون الصبابة ليتني * تحملت مايقون من بينهم وحدي

فكانت لقابي لذة الحب كلها * فلم يلقها قبلي محب ولا بعدي

فكيف بالمحبة التي هي حياة القلوب وغذاء الارواح وليس للقلب لذة ولا نعيم ولا فلاح ولا حياة الا بها وإذا فقدتها القلب كان المه أعظم من ألم العين إذا فقدت نورها والأذن إذا فقدت سمعها والانف إذا فقد شمه واللسان إذا فقد نطقه بل فساد القلب إذا خلى من محبة فاطره وبارئه وإلهه الحق أعظم من فساد البدن إذا خلى منه الروح وهذا الامر لا يصدق به الا من فيه حياة وما الجرح ميت ايلام والمقصود إن أعظم لذات الدنيا هي السبب الموصل الى أعظم لذة في الآخرة ولذات الدنيا ثلاثة أنواع فاعظمها وأكملها ما أوصل الى

ة الآخرة ويثاب الانسان على هذه اللذة أتم ثواب ولهذا كان المؤمن يثاب على ما يقصد وجه الله من أكله وشربه ولبسه ونكاحه وشفاء غيظ لقهر عدو الله وعدوه فكيف نة ايمانه ومعرفة بالله ومحبه له وشوقه الى لقائه وطعمه في رؤية وجهه الكريم في جنات ميم النوع الثاني لذة تمتع لذة الآخرة وتعقب آلاما أعظم منها كلذة الذين اتخذوا من رب الله أولئامودة بينهم في الحياة الدنيا يحبونهم كحب الله ويستمتع بعضهم ببعض كما يقولون ، الآخرة إذا لقوا ربهم ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا الآية الى له يكسبون ولذة أصحاب الفواحش والظلم والبنى في الارض والعلوبغير الحق وهذه اللذات ، الحقيقة إنما هي استدراج من الله لهم ليزيقهم بها أعظم الآلام ويحرمهم بها أكل اللذات نزلة من قدم لغيره طعام لذيذ مسموم يستدرجه به الى هلاكه قال تعالى سنستدرجهم ن حيث لا يعلمون الآية الى قوله إن كيدي متين قال بعض السلف في تفسيرها كل ما حدثوا ذنبا أحدثناهم نعمة حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون الآية لى قوله والحمد لله رب العالمين وقال تعالى لأصحاب هذه اللذة يحسبون أنما نغدhem به من ال وينين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون وقال في حقهم فلا تعجبك أموالهم لأولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا الآية وهذه اللذة تنقلب آلاما من عظم الآلام كما قيل

يارب كائنة في الحياة لاهابها * عذابا فصارت في المعاد عذابا

نوع الثالث لذة لا تعقب لذة في دار القرار ولا ألم يمنع وصول لذة دار القرار وإن منعت كمالها وهذه اللذة المباحة التي لا يستعان بها على لذة الآخرة فهذه زمانها يسير ليس لتمتع بنفسها قدر ولا بد أن يشتغل عما هو خير وأنفع منها وهذا القسم هو الذي غناه النبي صلى لله عليه وسلم بقوله كل هو يلهو به الرجل فهو باطل الارمية بقوسه وتأديبه فرسه وملاعبته مرأته فانهن من الحق فناعان على اللذة المطلوبة لذاتها فهو حق ومالم يمن عليها فهو باطل

❦ فصل ❦

فهذا الحب لا ينكر ولا يذم بل هو أحد أنواع الحب وكذلك حب رسول الله صلى لله عليه وسلم وإنما نعني بالحب الخاصة وهي التي تشغل قلب الحب وفكره وذكره لمحبهه الا فكل مسلم في قلبه محبة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ولا يدخل الاسلام إلا بها الناس متفاوتون في درجات هذه المحبة تفاوت لا يحصىه إلا الله فبين محبة الخليلين صلى الله عليهما وسلم ومحبة غيرهما ما بينهما فهذه المحبة هي التي تلطف وتخفف أقال التكليف وتسخي (٢٢ - الدواء)

البخيل وتشجع الحيان وتصفي الذهن وترويض النفس وتطيب الحياة على الحقيقة لا محبة
الصور المحرمة وإذا بليت السرائر يوم اللقاء كانت سريرة صاحبها من خير سرائر العباد كما قيل
سبقي لكم في مضمرة القلب والحشا * سريرة حب يوم تبلى السرائر

وهذه المحبة هي التي تنور الوجه وتشرح الصدر وتحيي القلب وكذلك محبة كلام الله
فانه من علامة حب الله واذا أردت أن تعلم ما عندك وعند غيرك من محبة الله فانظر محبة
القرآن من قلبك والتذاذك سماعه أعظم من التذاذ أصحاب الملاهي والفناء المطرب بسماعهم
فانه من المعلوم أن من أحب حبباً كان كلامه وحديثه أحب شيئاً اليه كما قيل
ان كنت تزعم حبي فلم هجرت كتابي * أما تأملت ما فيه من لذيذ خطابي

وقال عثمان بن عفان رضي الله عنه لو طهرت قلوبنا لما شبعنا من كلام الله وكيف يشبع
المحب من كلام من هو غاية مطلوبه وقال النبي صلى الله عليه وسلم يوماً لعبد الله بن مسعود
رضي الله عنه اقرأ علي فقال اقرأ عليك وعليك أنزل فقال إني أحب أن أسمع من غيري
فاستفتح فقرأ سورة النساء حتى إذا بلغ قوله فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا
بك على هؤلاء شهيداً قال حسبك الآن فرفع رأسه فاذا عينا رسول الله صلى الله عليه
وسلم تذر فان من البكاء وكان الصحابة إذا اجتمعوا وفيهم أبو موسى يقولون يا أبا موسى
اقرأ علينا فيقرأونهم يستمعون فلمحبي القرآن من الوجد والذوق واللذة والحلاوة والسرور
أضعاف ما لمحبي السماع الشيطاني فاذا رأيت الرجل ذوقه وشدة وجدده وطربه وشوقه سماعه
الابيات دون سماع الآيات في سماع الالحان دون سماع القرآن وهو كما قيل

نقرأ عليك الحتمة وأنت جامد كالبحر * وبيت من الشعر ينشد فتميل كالنشوان
فهذا من أقوى الأدلة على فراغ قلبه من محبة الله وكلامه وتعلقه بمحبة سماع الشيطان
والمفرور يعتقد انه على شيء ففي محبة الله وكلامه ورسوله صلى الله عليه وسلم أضعاف
أضعاف ما ذكر السائل من فوائد المشق ومنافعه بل لا حب على الحقيقة أنفع منه وكل
حب سوى ذلك باطل ان لم يكن عليه ويسوق المحب اليه

❦ فصل ❦

واما محبة النسوان فلا لوم على المحب فيها بل هي من كماله وقد من الله سبحانه بها على
عباده فقال ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة
ورحمة الآية فجعل المرأة سكناً للرجل يسكن اليها قلبه وجعل بينهما خالص الحب وهو
المودة المقترنة بالرحمة وقد قال تعالى عقيب ذكره ما أحل لنا من النساء وما حرم منهن

يد الله ليعين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم الى
 وله خلق الانسان ضعيفاً وذكر سفيان الثوري في تفسيره عن ابن طلوس عن أبيه كان
 ذا نظر الى النساء لم يصبر عنهن وفي الصحيح من حديث جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم
 انه رأى امرأة فأتى زينب فقضى حاجته منها وقال ان المرأة تقبل في صورة شيطان وتدبر
 في صورة شيطان فاذا رأى أحدكم امرأة فاجبته فليأت أهله فان ذلك يرد ما في نفسه
 في هذا الحديث عدة فوائد منها الارشاد الى التسلي عن المطلوب بجنسه كما يقوم الطعام
 كان الطعام والثوب مقام الثوب ومنها الامر بمداوات الاعجاب بالمرأة المورث لشهوتها
 نفع الادوية وهو قضاء وطره من أهله وذلك ينقض شهوته بها وهذا كما أرشد المتحابين
 الى التكاح كما في سنن ابن ماجه مرفوعاً لم ير للمتحابين مثل التكاح ونكاحه لمعشوقه
 نودواء المشق الذي جعله الله داءه شرعاً وقدرأوبه تداوي نبي الله داود صلى الله عليه
 وسلم ولم يرتكب نبي الله محرماً وانما تزوج المرأة وضمها الى نسائه لمحبتة لها وكانت توبته
 حسب منزلته عند الله وعلو مرتبته ولا يليق بنا المزيد على هذا وأما قصة زينب بنت
 جحش فزيد كان قد عزم على طلاقها ولم توافقه وكان يستشير رسول الله صلى الله عليه
 وسلم في فراقها وهو يأمره بما سألها ففعل رسول الله صلى الله عليه وسلم انه سيفارقها
 لا بد فاختفى في نفسه ان يتزوجها اذا فارقها زيد وختى مقالة الناس ان رسول الله صلى
 الله عليه وسلم تزوج زوجة ابنه فانه كان قد تبني زيد قبل النبوة والرب تعالى يريد أن
 شرع شرعاً عاماً فيه مصالح عباده فلما طلقها زيد وانقضت عدتها منه أرسله اليها يخطبها
 نفسه فجاء زيد واستدبر الباب بظهره وعظمت في صدره لما ذكره رسول الله صلى الله
 عليه وسلم فنادها من وراء الباب يا زينب ان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطبك فقالت
 يا أبا بصانة شيئاً حتى أوامر ربي وقامت الى محرابها فصارت فتوى الله عز وجل نكاحها
 من رسوله صلى الله عليه وسلم بنفسه وعقد النكاح له من فوق عرشه وجاء الوحي بذلك
 فلما قضى زيد منها وطراً تزوجها فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم لوقته فدخل عليها فكانت
 تفخر على نساء النبي صلى الله عليه وسلم بذلك وتقول أنتن زوجتكن أهليكن وزوجني الله عز وجل
 من فوق سبع سموات فهذه قصة رسول الله صلى الله عليه وسلم مع زينب ولا ريب أن النبي صلى الله
 عليه وسلم حب اليه النساء كما في الصحيح من حديث أنس ورواه النسائي في سننه والطبراني
 في الاوسط عنه صلى الله عليه وسلم قال حبيب الي من دنياكم النساء والطيب وجعلت
 نرة عيني في الصلاة هذا لفظ الحديث لا ما يرويه بعضهم حبيب الي من دنياكم ثلاث
 زاد الامام أحمد في كتاب الزهد في هذا الحديث أصبر عن الطعام والشراب ولا أصبر

عنهم وقد حصد أعداء الله اليهود على ذلك وقالوا ما هم إلا النكاح فرد الله سبحانه
عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وناجح عنه فقال أم يحسدون الناس على ما آتاهم
الله من فضله الآية وهذا خليل الله إمام الخنفاء كان عنده سارة أجمل نساء العالمين
وأحب هاجر وتسرى بها وهذا داود عليه السلام كان عنده تسعة وتسعون امرأة
فأحب تلك المرأة وتزوجها فأكمل المائة وهذا سليمان ابنه عليه السلام كان يطوف في
الليلة على تسعين امرأة وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أحب الناس إليه
فقال عائشة رضي الله عنها وقال عن خديجة إني رزقت حبها فحببة النساء من كمال الإنسان
قال ابن عباس خير هذه الأمة أكثرهم نساء وقد ذكر الإمام أحمد أن عبد الله بن عمر
وقع في سهمه يوم حلو لا جارية كان عنقها ابريق فضة قال عبد الله فما صبرت عنها إن قبلها
والناس ينظرون إلي وبهذا احتج الإمام أحمد على جواز الاستمتاع بالمسيبة قبل الاستبراء
بغير الوطء بخلاف الأمة المشتركة والفرق بينهما أنه لا يتوهم انفساخ الملك في المسيبة بخلاف
المشتركة فقد يفسخ فيها الملك فيكون مستمعا بأمة غيره وقد شفع النبي صلى الله عليه وسلم
لعاشق أن يواصله معشوقه بأن يتزوج به فأبى وذلك في قصة مغيث وبريرة فإنه رأى يمشي
خلفها بعد فراقها ودموعه تجري على خديه فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم لو
راجعتيه فقلت أنا أمرني قال لا إنما أشفع فقلت لا حاجة لي به فقال لعنه يا عباس ألا تعجب
من حب مغيث وبريرة ومن بغضها له ولم ينكر عليه حبها وإن كانت قد بانت منه فإن هذا
ما لا يملكه وكان النبي صلى الله عليه وسلم يساوي بين نسائه بالقسم ويقول اللهم هذا قسمي
فيما أملك فلا تلمني فيما لا أملك يعني في الحب وقد قال تعالى ولن تستطيعوا أن تعدلوا
بين النساء ولو حرصتم يعني في الحب والجماع فلا تميلوا كل الميل ولم يزل الخلفاء الراشدين
الرحماء من الناس يشفعون للعشاق إلى معشوقهم الجائر وصلحهم كاتقدم من فعل أبي بكر
وعثمان وكذلك علي أبي بفلان من العرب وجد في دار قوم بالليل فقال له ما قصتك قال
لست بسارق ولكني أصدقك

تعلقت في دار الرباحي خريده * يذل لها من حسن منظرها البدر
لها في بنات الروم حسن ومنظر * إذا افتخرت بالحسن عانقها الفخر
فلما طرقت الدار من حب مهجتي * أتيت وفيها من يوقدها الجمر
تبادرا أهل الدار بي ثم صيحوا * هو اللص محتوم له القتل والأسر

فلما سمع علي بن أبي طالب رضي الله عنه قوله رقله وقال للمهلب بن رباح إسمع له بها
فقال يا أمير المؤمنين سله من هو فقال النهاس بن عينة فقال خذها فهي لك واشتري معاوية

جارية فأعجب بها إعجاباً شديداً فسمعها يوماً تنشد أبيتاً منها
وفارقت كالغصن يهتز في الثرى * طريراً وسيماً بعد ما طر شاربه
فستلها فأخبرته أنها تحب سيدها فردها إليه وفي قلبه منها وذكر الزمخشري في ربيعته أن
زبيدة قرأت في طريق مكة على حائط

أما في عباد الله أو في إمامه * كريم يحلى الهم عن ذاهل العقل
له مقالة إما الماء في قريحة * وأما الحشافة النار منه على رجل
فذرت أن نحتال لقائلها أن عرفته حتى تجمع بينه وبين من يحبه فينما هي في المزدلفة إذ
سمعت من يندشد البيتين فطلبت فزعم أنه قالهما في ابنة عم له نذر أهلها أن لا يزوجها منه
فوجهت إلى الحي وما زالت تبذل لهم المال حتى زوجهها منه وإذا المرأة أعشقت منه لها
فكانت تعده من أعظم حسناتها فتقول ما أنا بشيء أسر مني من جمعي بين ذلك الفتي
والفتاة وقال الخرائطي وكان لسليمان بن عبد الملك غلام وجارية يتحابان فكتب
الغلام لها يوماً

ولقد رأيتك في المنام كأنما * أسقيتني من ماء فيك البارد
وكان كفك في يدي وكأنا * بتنا جميعاً في فراش واحد
فطفقت نومي كله متراقداً * لأراك في نومي ولست براقداً

فأجابته الجارية

خيراً رأيت وكلما أبصرته * ستأله مني برغم الحاسد
إني لأرجو أن تكون معانتي * وتبيت مني فوق ندي ناهد
وأراك بين خلاخلي ودماجلي * وأراك فوق ترائي ومحاشدي

فبلغ ذلك سليمان فأنكحها الغلام وأحسن حالهما على فرط غيبرته وقال جامع
ابن مرجيه سألت سعيد بن المسيب بمقي المدينة هل من حب درهما من وزر فقال سعيد
إنما تلام على ما تستطيع من الأمر فقال سعيد والله ما سألتني أحد عن هذا ولو سألتني ما كنت
أجيب إلا به فعشقت النساء ثلاثة أقسام عشق هو قرينة وطاعة وهو عشق الرجل امرأته
وجاريته وهذا المشق نافع فإنه أدعي إلى المقاصد التي شرع الله لها النكاح وأكف للبصر
والقالب عن التطلع إلى غير أهله ولهذا يحمد هذا العاشق عند الله وعند الناس وعشيق
هو مقت عند الله وبعد من رحته وهو أضر شيء على العبد في دينه ودنياه وهو عشق
المردان فما ابتلى به إلا من سقط من عين الله وطرد عن بابه وأبعد قلبه عنه وهو من
أعظم الحجب القاطعة عن الله كما قال بعض السلف إذا سقط العبد من عين الله ابتلاه

بمحبة المردان وهذه المحبة هي التي جابت على قوم لوط ماجلبت وما أوتوا من هذا العشق قال الله تعالى لعمر ك انهم اني سكرتهم يعمهون ودواء هذا الداء الردي الاستعانة بمقلب القلوب وصدق اللجا اليه والاشتغال بذكره والتعوض بحبه وقربه والتفكر بالالم الذي يعقبه هذا العشق واللذة التي تفوته به فترتب عليه فوات أعظم محبوب وحصول أعظم مكروه فاذا قدمت نفسه على هذا وآثرته فليكبر على نفسه تكبير الجنازة وليعلم ان البلاء قد أحاط به والقسم الثالث من العشق المشق المباح الذي لا يملك كعشق من صورت له امرأة جميلة أو رآها فجأة من غير قصد فاورثته ذلك عشق لها ولم يحدث له ذلك العشق معصية فهذا لا يملك ولا يعاقب عليه ولا تنفع له مدافعة والاشتغال بما هو أنفع له منه والواجب على هذا أن يكتم ويعنف ويصبر على بلواه فيذيبه الله على ذلك ويعوضه على صبره لله وعفته وترك طاعته هو اه وإيثار مرضاة الله وما عنده

❦ فصل ❦

والعشاق ثلاثة أقسام منهم من يعشق الجمال المطلق ومنهم من يعشق الجمال المقيد سواء طمع بوصاله أو لم يطمع ومنهم من لا يعشق الا من طمع لوصاله وبين هذه الانواع الثلاثة تفاوت في القوة والضعف فعاشق الجمال المطلق يهيم قلبه في كل وادوله في كل صورة جميلة مراد

فيوما يحزوى ويوم بالعقيق * وبالعذيب يوماً ويوما بالخياض
وتارة ينتحي بنجد واودية شعـب العقيق وطورا تقصر أيتها
فهذا عشقه أوسع ولـكنه غير ثابت كثير التقل

يهم بهذا ثم يعشق غيره * ويسلاهم من وقته حين يصبح
وعاشق الجمال المقيد أثبت على معشوقه وأدوم محبة له ومحبه أقوى من محبة الاول لاجتماعهما
في واحد ويقسم الاولى والـكن يـضعفهما عدم الطمع في الوصال وعاشق الجمال الذي يطمع
في وصاله أعقل العشاق وأعرفهم وجهه أقوى لان الطمع يـمده ويقويه

❦ فصل ❦

وأما حديث من عشق وعف فهذا ممن يرويه سويد بن سعيد وقد أنكره حفاظ الاسلام
عليه قال ابن عدي في كامله هذا الحديث أحد ما أنكر على سويد وكذلك ذكره البيهقي
وابن طاهر في الزخيرة والتذكرة وأبو الفرج بن الجوزي وعده من الموضوعات وأنكره

أبو عبد الله الحاكم على تساهله وقال أنا أتعجب منه قلت والصواب في الحديث انه من كلام ابن عباس رضي الله عنهما موقوفا عليه فقاط سويد في رفعه قال أبو محمد بن خلف بن المرزبان حدثنا أبو بكر بن الارزق عن سويد فعابته على ذلك فاسقط ذكر النبي صلى الله عليه وسلم وكان بعد ذلك يسأل عنه ولا يرفعه ولا يشبه هذا كلام النبوة وأما ما رواه الخطيب له عن الزهرى حدثنا المعافى بن زكريا حدثنا قطبة بن الفضل حدثنا أحمد بن محمد بن مسروق حدثنا سويد حدثنا ابن مسهر عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة مرفوعا فمن أبين الخطأ ولا يحمل هذا عن هشام عن أبيه عن عائشة مثل هذا عنه من شئ أدنى رائحة من العلم من الحديث ونحن نشهد بالله أن عائشة ما تكلمت بهذا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قط ولا حدث به عنها عروة ولا حدث به عنه هشام قط وأما حديث ابن الماجشون عن عبد الله بن أبي حازم عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس مرفوعا فكذب على بن الماجشون فإنه لم يحدث بهذا ولم يحدث به عنه الزبير بن بكار وإنما هذا من تركيب بعض الواضعين وبأسبحان الله كيف يحتمل هذا الاسناد مثل هذا المتن فقيح الله الواضعين وقد ذكره أبو الفرج بن الجوزي من حديث محمد بن جعفر بن سهل حدثنا يعقوب بن عبد الله عن ولد عبد الرحمن بن عوف عن ابن أبي نجيح عن مجاهد مرفوعا وهذا غلط قبيح فان محمد بن جعفر هذا هو الحرائطي ووفاته سنة سبع وعشرين وثلاث مائة فبحال أن يدرك شيخه يعقوب ابن أبي نجيح لاسيما وقد رواه في كتاب الاعتلال عن يعقوب هذا عن الزبير عن عبد الملك عن عبد العزيز عن ابن أبي نجيح والحرائطي هذا مشهور بالضعف في الرواية ذكره أبو الفرج في كتاب الضعفاء وكلام حفاظ الاسلام في إنكار هذا الحديث هو الميزان واليه يرجع في هذا الشأن وما صححه بل ولا حسنه أحد يعول في علم الحديث عليه ويرجع في الصحيح اليه ولا من عادته التساهل والتسامح فإنه لم يصف نفسه له ويكفي أن ابن طاهر الذي يتساهل في أحاديث التصوف ويروي منها الغث والسمين والمنهنية والموفوذة قد أنكره وحكم ببطلانه نعم ابن عباس غير مستنكر ذلك عنه وقد ذكر أبو محمد بن حزم عنه أنه سئل عن الميت عشقا فقال قتل الهوي لاعتقل ولا فودورفع اليه بعرفات شاب قد صار كالفرخ فقال ما شأنه فقال العشق فجعل عامة يومه يستعيز من العشق فهذا تفسير من قال من عشق وعف وكم ومات فهو شهيد ومما يوضح ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم عد الشهداء في الصحيح فذكر المقتول في الجهاد والمبطون والحريق والنفساء يقتلها ولدها والغريق وصاحب الهدم فلم يذكر منهم العاشق يقتله العشق وحسب قتل العشق ان يصح له هذا الاثر عن ابن عباس رضي الله عنهما على أنه لا يدخل الجنة حتى يصبر لله ويعف لله ويكرم لله وهذا لا يكون

إلا مع قدرته على معشوقه وإيثار محبة الله وخوفه ورضاه وهذا أحق من دخل تحت
قوله تعالى وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن
الهوى فإن الجنة هي المأوي وتحت قوله تعالى ولمن
خاف مقام ربه جنتان فتسأل الله العظيم
رب العرش الكريم أن يجعلنا ممن آثر
وابتغى حبه ورضاه على هواه
بذلك قربه ورضاه آمين يارب
العالمين وصلي الله على
محمد وآله وصحبه
أجمعين
آمين